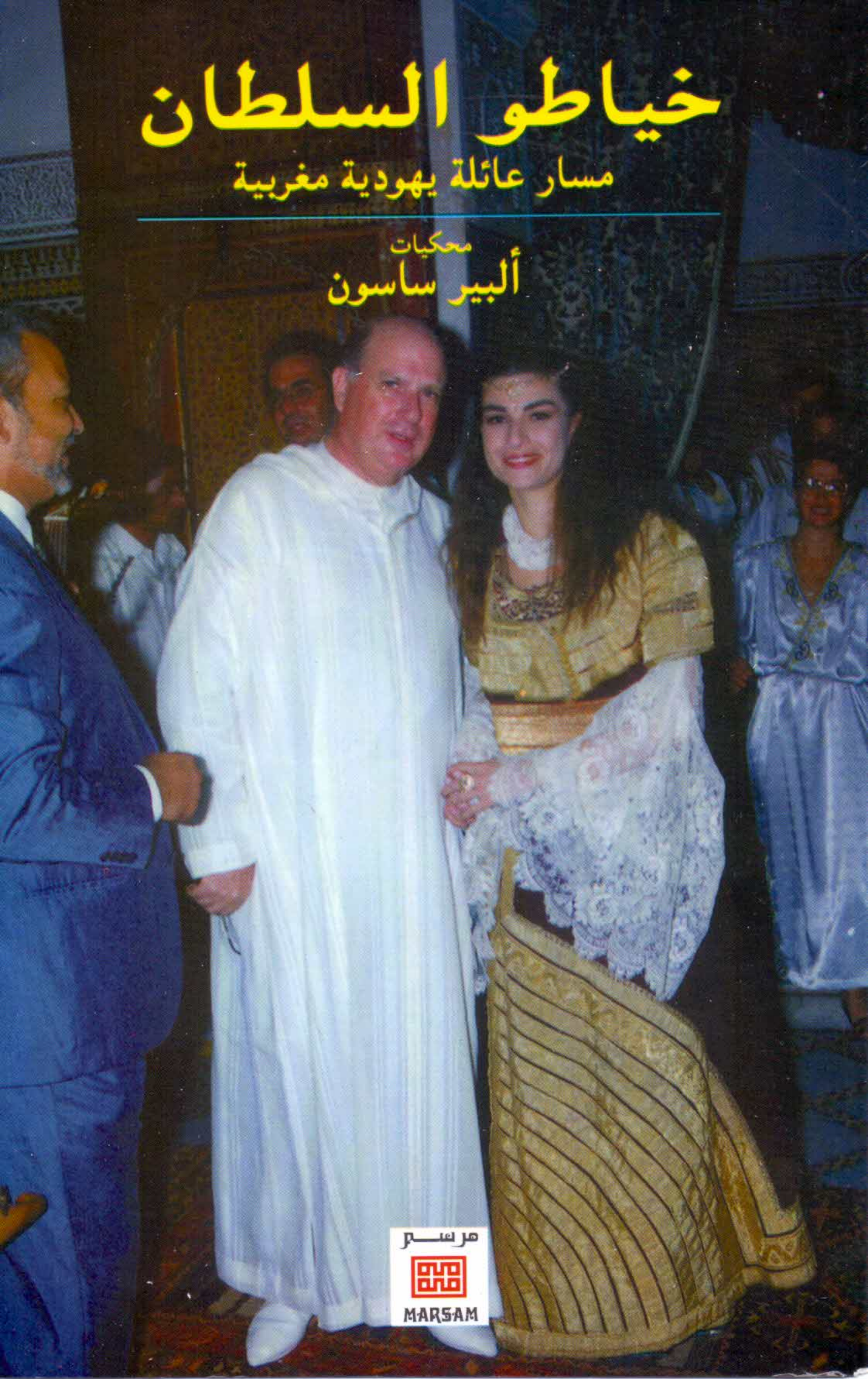

خياطو السلطان
مسار عائلة يهودية مغربية
محكيات
ألبير ساسون
مرسم
MARSAM



ألبير ساسون، أستاذ باحث في مجال علم الأحياء، يعتبر أول عميد لكلية العلوم بالرباط من 1963 إلى 1969، إلتحق بعدها بالعمل في منظمة اليونسكو وشغل بها مسؤولية مدير مساعد إلى حدود 1996. وهو مستشار دولي في التكنولوجيا الحيوية، عضو في المجلس الاستشاري لحقوق الإنسان بالمملكة المغربية منذ 1990 وأكاديمية الحسن الثاني للعلوم والتقنيات منذ 2004 .

خياطو السلطان

مسار عائلة يهودية مغربية

محكيات
ألبير ساسون

ترجمة : سعيد عاهد

على خلاف أغلبية يهود المغرب، فإن آل ساسون لا ينحدرون من إسبانيا، بل جاؤوا من الشرق الأوسط ليستقروا أولا في منطقة تافيلالت، حوض المنطقة الشبه صحراوية للمغرب. انطلاقا من عام 1877، سيصبح أبراهام ساسون خياطا للسلطان الحسن الأول، مستمرا في مهمته خلال حكم مولاي عبد العزيز، مولاي حفيظ ومولاي يوسف، ثم سيدي محمد بن يوسف الذي سيحمل لقب محمد الخامس بعد الاستقلال. وسيخلفه صهره حاييم بوطبول في مأموريته ليواصل آل بوطبول عمله في بلاطي الملكين محمد الخامس والحسن الثاني.

تميزت علاقات عائلتي ساسون وبوطبول اليهوديتين بالقرب والألفة مع بلاطات ستة سلاطين وملوك من الأسرة العلوية، وذلك طوال 120 سنة. وتندرج قصة مسارهم هذه في سياق تاريخ المغرب، وكذلك سياقات الحياة الاجتماعية والثقافية للطائفة اليهودية المغربية. إنها محكيات تغترف مادتها من شهادات وحكايات العديد من أفراد عائلة الكاتب، وكذا من تجربته الشخصية.



ردمك : 9954-21-180-2

50 DHS - 12 Euros

خياطو السلطان

مسار عائلة يهودية مغربية

محكيات

مرسم
MARSAM

صورة الغلاف:

ألبير ساسون وابنته يائيل ليلة الحناء، أكتوبر 1994 بمراكش، وعلى اليمين عازف العود الكبير سعيد الشرايبي.

منشورات

مرسم – 2009

المعمل: 6، زنقة أحمد الرفاعي - الرباط

المكتب: 15، شارع الأمم المتحدة - الرباط

الهاتف: 28 40 67 0537 - الفاكس: 22 40 67 0537

تصفيف وإخراج

كوادري كرومي

طباعة

مطبعة بورقراق

رقم الإيداع القانوني: 2009/ 2731

ردمك: 9954-21-180-2

خياطو السلطان

مسار عائلة يهودية مغربية

محكيات

ألبير ساسون

ترجمة

سعيد عاهد

مرسم

MARSAM

توضيح للقراء

هذا المؤلف ليس دراسة تاريخية، ولا كتابا حول جزء من تاريخ المغرب. لقد حظي تاريخ اليهود في المغرب، بالفعل، بكتابات كثيرة، وتم تحليل حياتهم الاجتماعية والثقافية، ومقاربة لغاتهم المحلية، مثلما تم تمحيص مكانتهم وسط المكونات الأخرى للشعب والأمة المغربيين على امتداد القرون. إنه تاريخ يمتد، ربما، طوال ألفي سنة، وهو مكون جوهري لتاريخ المغرب. وللتأكد من غزارة الكتابات حول يهود المغرب، تكفي العودة إلى الجرد الطويل للمراجع المثبت في الصفحات الأخيرة لمؤلفات حاييم زعفراني، محمد قنبيب، نيكول السرفاتي، جوزيف تدجي، شمعون ليفي أو روبير أسراف، وذلك حتى نقتصر على بعض الكتاب والباحثين المعاصرين.

وتجدر الإشارة كذلك إلى الجهود المحمودة التي بذلها عدة مؤرخين مغاربة في إطار "مجموعة البحث حول اليهودية المغربية" التابعة لكلية الآداب والعلوم الإنسانية لجامعة محمد الخامس بالرباط-أكدال، وذلك في أفق إلقاء نظرة جديدة على تاريخ اليهود في المغرب، انطلاقا من تحليل نصوص مكتوبة باللغة العربية ذات أصول مغربية. إننا أمام مشروع محكم بالفعل، نشرت أولى نتائجه على شكل مونوغرافيات في 2005 و 2006، مشروع سيساهم بدون شك في إعادة الاعتبار للمكانة الحقيقية لليهودية المغربية ضمن تاريخ المغرب، هذا التاريخ الذي يعمل العديد من المؤرخين المغاربة على إعادة كتابته منذ عدة سنوات. أجل، وبعد إحداث "المعهد الملكي للثقافة الأمازيغية"، فإن إنشاء المعهد الملكي للبحث في تاريخ المغرب من طرف الملك محمد السادس، يجسد أفضل ضمانة لكتابة تاريخ تعددي متميز بتنوع ثقافي نادر،

تاريخ يشكل، هو نفسه، دعامة مواطنة كاملة التحقق وعامل التحام وطني.

ومن جهتي، قررت، كتابة مسار حياة أفراد عائلتي خلال العشريات الأخيرة من القرن التاسع عشر والقسط الأكبر من القرن العشرين. وإذ أقدم على هذا العمل، فإنني أفي، عبره، بالتزام وعدت به والدي ووالدتي، كما قطعته على نفسي أمام أقرباء زودوني بالمعطيات المتضمنة في هذه المحكيات. إن المعلومات المحصل عليها من قبلي شفوية أساسا، لكنني قمت بالتحقق منها عبر المقارنة بينها، وبتمحيصها محتكما في ذلك للأحداث الموثقة من تاريخ المغرب. لقد تابعت مسيرة هذه العائلة، ساردا جوانب مختلفة من حياتها اليومية، مهنيا واجتماعيا، وخاصة حياة أبراهام ساسون، جدي من أبي الذي اشتغل خياطا لخمسة ملوك من الأسرة العلوية، وحياة خلفائه في القصر الملكي بالرباط، وهي مسيرة جد فريدة.

ألبير ساسون

عن المؤلف

ازددت في الرباط، سنة 1935. والدي، سالم - شارل ساسون، ووالدتي، غراسيا كوهن، ينحدران معا من فاس، مثلهما في ذلك مثل جل أفراد عائلتي، وهو ما يفسر تعلقي الكبير بهذه المدينة، العاصمة الروحية والثقافية للمغرب. كنت كثير التردد على هذه الحاضرة أثناء طفولتي ومراهقتي، لكن زياراتي لها صارت عرضية خلال حياتي المهنية، ولقد اغترفت منها، بكل تأكيد، كثيرا من مكونات ثقافتي الشخصية، الجماعية والوطنية.

ظللت أقطن في الحي اليهودي بالرباط، الملاح، إلى حين بداية دراساتي العليا، لما انتقلت عائلتي للسكن بأحياء مدينة الرباط الجديدة، مانحة إيانا ظروف عيش جد رغيدة. بعد المدرسة الابتدائية التابعة للرابطة الإسرائيلية العالمية (وهي شبكة من المؤسسات المدرسية المنتشرة عبر العالم والمهتمة بتلقين مقررات التعليم الأساسي للتلاميذ ذوي الديانة اليهودية)، تابعت دراستي الثانوية، ابتداء من سنة 1945، في الثانوية الوحيدة الموجودة حينذاك بالرباط، ثانوية غورو.

لا تحتفظ ذاكرتي بذكريات دقيقة حول الهول الذي مثلته الحرب العالمية الثانية بالنسبة للعالم ولليهود، باستثناء ما يحضرني بشكل إستعادي أو ما رواه لي والداي. وبالمقابل، فالانتقال نحو استقلال المغرب، ومنفى وعودة السلطان سيدي محمد بن يوسف، محمد الخامس لاحقا، أحداث منغرسة ما تزال في ذاكرتي. تلك كانت مرحلة دراساتي الجامعية في علوم الحياة والأرض، أولا في معهد الدراسات العلمية العليا بالرباط (الذي سيصبح أول كلية للعلوم في المغرب في 1958)، ثم في باريس، أثناء السنة الجامعية

1957-1958، بمدرسة المعلمين العليا قصد تهيئ شهادة التبريز في العلوم الطبيعية. كان الوالد يريد أن أدرس الطب، وهو ما تحقق مع أخي الأصغر، أما أنا، وبسبب ميولي وعدم رغبتي في الابتعاد عن الأسرة، فمكثت بالرباط لأتابع دراستي الجامعية التي كانت تجري وفق إيقاع توسع الكلية.

كنت أول مغربي ينال شهادة التبريز في العلوم الطبيعية، وعدت إلى كلية العلوم بالرباط للتدريس بها، وفي رحابها ابتدأت أبحاثي حول علم الأحياء المجهري للتربة قصد الحصول على دكتوراه الدولة في العلوم. لم يكن الأمر يسيرا، لكنه أثرى إلى حد بعيد تكويني المهني وثقافتي المواطنة، حيث كان الواجب يفرض، في الآن نفسه، التدريس، المساهمة في بناء صرح الجامعة المغربية العصرية الحديثة العهد والمشاركة في تشييد منظومة التربية الوطنية لبلد استرجع سيادته منذ مدة وجيزة، مع تعميق المعارف الشخصية عن طريق البحث العلمي. وعلى غرار مغاربة كثر آخرين، وخاصة يهود مغاربة، كان علي الاشتراك في بناء مغرب ما بعد الاستقلال عبر تحمل مسؤولية أول عميد لكلية العلوم بجامعة محمد الخامس بالرباط (1961-1969)، وذلك حتى قبل مناقشة أطروحتي لنيل الدكتوراه من السوربون في يوليوز 1967.

هذه الفترة التاريخية أثرت عميقا، هي وتقلباتها السياسية، في تطور حياتي المهنية (إذ كانت من بين أفضل سنوات مساري مهنيا)، في علاقاتي الاجتماعية ومشاركتي المواطنة. وفي نهاية ستينيات القرن الماضي كذلك، تولد لدي اهتمام كبير بتاريخ عائلتي، مع رغبة عارمة في تعميق الإلمام بأصولنا، بالمحطات الأساسية في مسار جدي وخلفائه في خدمة العديد من ملوك الأسرة العلوية وبالوسط الاجتماعي والثقافي الذي كانت العائلة تعيش في رحمه، وذلك بفضل حوارات طويلة مع عمتين اثنتين من بنات أبراهام ساسون.

وإلى حدود اليوم، يشهد رفاقي وزملائي في الجامعة والكلية عن العلاقات الممتازة المنسوجة في سنوات 1960، رغم المحن المفروضة بفعل الوضع الدولي والجهوي، ويشاطرهم ذات الرأي كل من ساهم مثلي في تشييد المغرب المستقل وإصلاح المنظومة التربوية والتعليم العالي والبحث العلمي.

شهدت الرباط في 20 يناير 1963، عرس عقد قراني على فلوري بنسيمون، الأستاذة هي الأخرى في كلية العلوم بالعاصمة من 1960 إلى 1973. وبالإضافة لما يجسده الزواج على المستوى العاطفي وعلى مستوى التضامن العائلي، فإن الحفل وفر فرصة لقاء استثنائي جمع الأهل والأصدقاء والزملاء في الجامعة المغربية، ومن ضمنهم رئيس جامعة محمد الخامس، محمد الفاسي، وعميدا كليتي الطب والآداب، عبد المالك فرج ومحمد عزيز لحبابي، الذين كانوا يحيطون بكبيري حاخامات المغرب: شاول دانان وميخائيل إنكاوا.

انطلقت المرحلة الثانية من حياتي المهنية، في 1973-1974، عقب التحاقي للعمل بمنظمة الأمم المتحدة للتربية والعلوم والثقافة (اليونسكو). في مقر هذه الأخيرة، بباريس، سأكرس جهدي لتنمية التعاون العلمي والتقني، ثم لبرمجة وتقييم مجموع أنشطة الهيئة، وأخيرا لمسؤولية المستشار الخاص للمدير العام للمنظمة. وفي نفس الوقت، حافظت على علائق وطيدة مع تطور مادة تخصصي (علم الأحياء المجهري العام والتطبيقي)، كما وفرت لي اليونسكو، وهي مرصد بارز للعالم، فرصة نشر عدة كتب علمية مفيدة على وجه الخصوص لمدرسي وباحثي الدول النامية.

امتد مجهودي في مجال التعاون الدولي إلى المغرب، إذ ساهمت خلال العشريات الثلاثة المنصرمة في تكوين مجموعات من الباحثين، إصلاح نظام البحث العلمي والتقني ونسج علاقات تعاون متينة مع إسبانيا وفرنسا ودول أخرى من أوربا وإفريقيا الشمالية.

أنشأ جلالة الملك الحسن الثاني في ماي 1990، المجلس الاستشاري لحقوق الإنسان، تحدوه في ذلك رغبة جلية في إطلاق مسلسل جديد وطويل لتطوير المملكة في اتجاه الدمقرطة، إنعاش وحماية حقوق الإنسان، بالإضافة إلى تدعيم دولة الحق والقانون. شكل هذا القرار، بدون شك، حدثا بارزا في تاريخ المغرب الحديث، حدث يشهد على الرؤية المستقبلية للعاهل، كما يشهد، في الآن ذاته، على واقعية سياسية هدفها ترقية البلاد إلى صف الأمم المحترمة للمعاهدات الدولية في مجال حقوق الإنسان.

عينني جلالة الملك الحسن الثاني عضوا في هذا المجلس، وقد ساهمت في

إطاره، بالإنصات لبقية الأعضاء، علاوة على تكوين حكمي الشخصي حول الحماية الضرورية لحقوق الإنسان وإلزامية تحققها، في التطور المتدرج، لكن المؤكد، في هذا الاتجاه. أجل، وعلى امتداد ست عشرة سنة، تحققت كثير من المنجزات، مثلما تبقى الانتظارات كثيرة من أجل إعمال القفزة الثقافية الضرورية الكفيلة بترسيخ القيم العالمية لحقوق الإنسان لدى الجميع. وفي إطار المجلس الاستشاري لحقوق الإنسان، كما في الجامعة آنفا، أسعدتني كثيرا علاقات الصداقة الصادقة والمتينة مع العديد من الزملاء، علاقات ترسخت ونحن ننجز مهام صعبة، أو نوجد في الخارج للدفاع، بتواضع و حزم، عن إنجازاتنا، مع الاعتراف كذلك بإخفاقاتنا. بعض هؤلاء الأصدقاء، الذين دأبت أحيانا على رواية مقتطفات من مسار عائلتي لهم، شجعوني بقوة على تدوين هذه المحكيات، مؤكدين على الجوانب الحميمية المتعددة التي تتضمنها.

سعادتي الآن كبيرة إذن وأنا أنتقل لفعل الكتابة، وافيا بوعود التزمت بها أمام والدي وأصدقائي، ولا يفوتني بالمناسبة التماس العذر من زملائي وناشري مؤلفاتي الذين سيتفهمون بدون شك توقفي النسبي عن إنتاج الكتب العلمية.

* * *

ولولا الحوارات الغنية والطويلة مع الوالدين، العمين أرمان وصامويل ساسون، العمتين مسعودة وعائشة، وأبناء عمومتي من آل ساسون وآل بوطبول، وخاصة روجي بوطبول، لما رأى هذا الكتيب النور. الكثيرون منهم غادرونا اليوم، فليجدوا في هذا المؤلف تحية وفاء متواضعة وودودة يستحقونها جميعا. وبدون شك، ستساهم هذه المحكيات بالنسبة لكل الآخرين المنتمين للجيلين الثالث والرابع من آل ساسون وبوطبول في تقييم أعمق لتاريخهم العائلي.

باريس، 2006

الحكاية التاريخية
لآل ساسون الشرق والغرب

اسمنا العائلي، ساسون SASSON، هو التدوين الفرنسي للكلمة العبرية "SASSON" التي تعني الفرح والحبور. ولم يعثر المختصون بأسماء الأعلام اليهود على اسم مثيل له في إسبانيا القرون الوسطى، ولا ضمن ألقاب العائلات اليهودية المبعدة منها في 1492 واللاجئة إلى المغرب، وذلك خلافا للاسم الأسري سوسان (SOUSSAN) المشتق من اللفظ العبري شوشان (CHOCHANE)، أي الوردة. واختار أفراد عائلتنا المقيمين بالدار البيضاء كتابة اسمهم العائلي على الشكل التالي: SASSOUN، وهي طريقة كتابة أقرب للنطق الإنجليزي للقب SASSOON.

في بغداد

يحيل اسم ساسون (SASSOON) على القصة التاريخية الشهيرة لعائلة يهودية تعود أصولها لبغداد، بل إن هذه المدينة كانت، على الأرجح، مهد تلك الأسرة منذ أواسط القرن الثامن عشر على الأقل، ويسرد كتاب ستانلي جاكسون "THE SASSOONS"، الصادر بلندن في طبعتين سنة 1968 عن منشورات "هينمان"، على نحو لافت هذه الحكاية التاريخية المتفردة على أكثر من صعيد. أجل، وإذا كانت سلالات يهودية كبرى أخرى، من قبيل روتشيلد، فاندربيلت أو أستور، قد راكمت ثروات أهم من ثروتها، ولعبت دورا ألمع من دورها في المجتمع الدولي، فإن لا واحدة من هذه الأسر كانت حاضرة في الشرق والغرب معا مثل آل ساسون، ولا خلفت، كما هو الأمر مع الأسرتين الأخيرتين، مواهب في مجالات جد مختلفة خارج القطاع التجاري.

وآل ساسون في ذروة سلطتهم المالية وصدارتهم الاجتماعية، جرت العادة بوسمهم بآل روتشيلد الشرق، وهو نعت ملائم لأن السلالتين تربعتا على رأس مجموعات يهودية مشهورة وأقامتا علاقات مصاهرة بينهما. وفي الواقع، فأصول عائلتي ساسون وروتشيلد جد مختلفة، كما هي مختلفة تقاليدهما الأسرية، طباعهما وطبيعة تجارتهما.

حل آل روتشيلد بقصر سان جيمس اللندني عقب رحيلهم من غيتو حي اليهود بفرانكفورت- سور- لو مان، الحي الذي اشتغلوا به أولا في مجال المسكوكات قبل إنشاء إمبراطورية مصرفية، وهكذا بقوا أوربيين حتى النخاع. أما آل ساسون، فهم وسطاء وتجار كبار منذ أصولهم الأولى، عائلتهم عاشت حياة مزدهرة في بغداد حيث دأب رب الأسرة على ارتداء أزياء مذهبة للذهاب إلى قصر الباشا وسط تحيات المارة والتجار المطبوعة بالاحترام. لكن هذا الغنى والأبهة سيؤولان للأفول إثر انحطاط العاصمة التاريخية للعباسيين مع وفاة الخليفة هارون الرشيد (785 - 809) والخليفة المأمون (813 - 833)، هذا الأخيرالذي بلغ نشاط "بيت الحكمة" الشهير ذروته في عهده، بل إن عائلة ساسون كادت تنقرض في نهاية القرن الثامن عشر.

شكلت بلاد الرافدين الموطن الثاني لليهود منذ تعرض جزء منهم للترحيل إلى بابل على يد نبوخذنصر الثاني حوالي سنة 568 قبل الميلاد، ولم تعد سوى أقلية من المهجرين إلى أرض الأسلاف إبان احتلال الجيوش الفارسية على المنطقة. وشكل وفود الإسلام، في القرن السابع بعد المسيح، منطلق مرحلة طويلة من السلم، ساد خلالها خلفاء يقدرون الطائفة اليهودية الممتثلة للقانون والمتاجرة مع أبناء ديانتها على امتداد الإمبراطورية العثمانية. ورغم استقرار جماعات يهودية صغيرة الحجم بالهند والصين في مراحل مبكرة، فإن بغداد بقيت القلب النابض لهذا الشتات بشكل غير قابل للشك، إذ فاق عدد اليهود المقيمين بها أربعين ألف نسمة في القرن الثاني عشر، القرن الذي ابتدأت عدة مصادر تتحدث، انطلاقا منه، عن علماء يهود وأطباء في خدمة ملوك الشرق الأوسط، بينما الأغلبية الساحقة من هذه الساكنة تمارس أنشطة تجارية. واعتاد الخلفاء ووزراؤهم التوجه إلى اليهود الميسورين كلما احتاجوا لقروض

قصد تغطية مصاريفهم الشخصية، مصاريف لم تكن لتنال يقينا موافقة الباب العالي بالقسطنطينية. وعلاوة على ذلك، كانت العادة تقضي بتكليف زعيم الطائفة اليهودية بمهمة المصرفي المركزي (صراف باشي)، وكذا بمسؤولية استخلاص الضرائب من أبناء ديانته، مع حمله للقب "ناسي"، أي أمير الأسر، والزعيم هذا كان أغنى وأشهر يهودي في بغداد. هذا الوضع شكل اتفاقا إيجابيا بالنسبة للجميع، إذ وفر للحاكم مستشارا نبيها يناديه "الأخ"، وبالمقابل سمح لليهود بالاعتماد على واحد منهم داخل البلاط يبلغ تظلماتهم وشكاياتهم لأولي الأمر كلما تجاوزت طلبات ممثل السلطة في الولايات العثمانية حدود المعقول.

يمكن اعتبار آل ساسون، رغم ندرة المصادر التاريخية، من ضمن اليهود الأوائل الذين أقاموا في بابل، وجدير بالذكر أن العالم والصوفي أبراهام ساسون كان يفتخر في البندقية، أثناء القرن السابع، بانحداره من شفطيا، الابن الخامس للملك داوود، أما أول فرد من العائلة تراكمت حوله معطيات تاريخية لا بأس بها، فهو ساسون بن صالح، المزداد في بغداد عام 1750. وسيرا على خطى بعض أسلافه، تولى هذا الأخير منصب " صراف باشي"، حاملا لقب "الشيخ" الشرفي، لكنه، هو"الناسي"، لم يتح له ارتداء الملابس المذهبة. أجل، ففي ذلك الأوان، عانت بغداد من سنوات عجاف بعد ماتوالت عليها الأهوال، منذ أن نهبها المغول والفرس أولا ليتلوهم الأتراك، مثلما أصبحت ملجأ لخصوم الباب العالي ومنفى للعمال المغضوب عليهم الذين كثيرا ما كانوا يتصرفون بقسوة ومزاج متقلب للتعويض عن تقاعدهم بدون مجد.

تقلد الشيخ ساسون منصب ناسي في 1778 وحافظ عليه طيلة 38 سنة، مستخلصا ضريبة عسكرية مرتفعة وجبايات أخرى مفروضة على طائفته التي كانت تقطن في جزء المدينة الشمالي الغربي غير الخاضع لنظام الغيتو. كان التجار اليهود يجوبون ربوع بلاد الرافدين بدون قيود، والعديد من الصائغين والصناع التقليديين المتجولين يصلون إلى دمشق وحلب والبصرة في الخليج العربي. كانت العربية لغة التواصل، والعبرية تلحم الطائفة باستعمالها في مجالات التعليم والشعائر الدينية، علما أن يهود بغداد كانوا يضعون ملابس تقليدية، وأطفال آل ساسون يتحدثون بطلاقة العبرية والتركية والعربية،

بالإضافة طبعا للفارسية، لغة المعاملات التجارية، ومن جانب آخر، تميزت الحياة الاجتماعية والثقافية بالكثافة، والطائفة باستضافة الحجاج المتوجهين إلى الأرض المقدسة، ومنهم حجاج قادمون من الصين.

مؤسس سلالة آل ساسون الحديثة هو داوود ابن الشيخ ساسون بن صالح (1750 - 1830)، الذي عاش بين 1792 و 1864، وقد صادف تاريخ ميلاده منعطفا حاسما في مصير العائلة والطائفة اليهودية ببغداد. آنذاك، دفعت مضايقات الباشاوات عدة أسر لمغادرة المدينة والفرار إلى الخليج، ومنه اللجوء إلى الهند ونيل حماية البريطانيين. انسحب الشيخ ساسون من الحياة العامة في 1817، عن عمر يقارب السبعين سنة، بعد أن أرهقته الدسائس المحاكة ضده، وضاع منه كل أمل في وراثة ابنه، داوود، لمنصب الناسي، وذلك إثر فرار والي بغداد، سليمان باشا، حين علمه بقرب قيام انقلاب ضده. حصل الوالي الجديد، داوود باشا، على مساندة الأخوين عزرا وإزكييل بن راحل، وهما مشهوران في الميدانين التجاري والمصرفي، لا يخفيان حسدهما للشيخ ساسون ويتآمران عليه، وقد غنم الأول منصب الناسي والصراف باشي وعُين أخوه أمينا لمال السلطان وحارسا للخاتم في القسطنطينية. ورغم حليفيه القويين، وسلطته التي وطد عراها إزكييل، حكم داوود باشا الولاية بقبضة من حديد، ممارسا ابتزازا غير مسبوق ومسددا سهامه ضد اليهود أساسا، ولم تفلت بجلدها ومالها من بطشه سوى قلة قليلة من الأرمن، ومعها بعض أغنياء العرب. لكن إخلاص الأخوين بن راحل في استخلاص الأموال لصالح سيدهما الذي أمسى نهما لدرجة لا تطاق، لم يسعفهما في الإفلات بجلدهما، ليكون مآل إزكييل الإعدام في القسطنطينية فيما ذاق أخوه عزرا مرارة السجن.

رفض داوود ساسون منصب الناسي المعروض عليه، مكتفيا بلعب دور الناطق شبه الرسمي باسم الطائفة اليهودية، معتمدا في ذلك على حظوة والده. وبقيت ثروة العائلة طائلة مع أنها بددت جزءا غير يسير منها في فنادق القوافل بآسيا، وهو ما كان يستحضره داوود باشا فيعتقل أعضاء الطائفة دوريا، مطالبا الميسورين من بني ديانتهم، ومنهم آل ساسون بالطبع، بدفع فدية مقابل الإفراج عنهم.

في الهند

مع بلوغه الثلاثين من العمر، ومتمتعا بقوة جسدية تفوق قدرات والده المسن، قرر داوود ساسون (1792 - 1864) المقاومة، واضعا نصب عينيه مستقبل ابنيه عبد الله وإلياس، المشرفين على بلوغ سن الرشد الديني، وابنتيه، إلا أن مصيرهم كان غير مضمون، إن هو لم يتخذ المبادرات اللازمة بسرعة، علما أنه فقد زوجته وعقد قرانه على بنت تاجر هاو للكتب هاجر من بغداد للاستقرار في مدينة كالكوتا الهندية. في سنة 1828، شهورا قليلة بعد زيجته الثانية، سيرتكب داوود ساسون حماقة غير محسوبة العواقب لما أحاط داوود باشا علما بالوضعية المزرية السائدة في عاصمة بلاد الرافدين، إذ انتهز الوالي الفرصة لإيداعه السجن والمطالبة بفدية كبيرة لإطلاق سراحه، مما نتج عنه مضيه إلى المنفى بالبصرة المحكومة، حينذاك، من طرف أحد أتباع سيد بغداد. وصل داوود المدينة، بعد سفر دام أسبوعا كاملا، على متن باخرة تسلل إليها ليلا، سفينة اكتراها والده بعد التيقن من وفاء ربانها. هناك، نمت إلى علمه أصداء تهديدات داوود باشا الراغب في اعتقاله مجددا وفرض فدية إضافية على والده، فلم يجد بدا من الالتحاق ببوشير (بندر بوشير)، الميناء الفارسي الصغير الواقع في الخليج.

انطلاقا من 1829، احتضنت بوشير، التي سبق للبرتغاليين إنشاء حصن ووكالة تجارية بها قبل تحولها إلى ميناء صيد، نهضة تجارية بطيئة، وفي رحاب المدينة الفارسية، توصل داوود ساسون، بفضل سمعة عائلته، برسائل معبرة عن حسن النية والاستعداد للتعاون بعثتها إليه الطوائف اليهودية في شيراز وحلب، وكذلك تفليس النائية (تبيليسي بجورجيا). في بوشير دائما، كسب داوود ساسون مؤازرة أحد أغنى تجار المدينة، صامويل زكريا، وهو منحدر من شيراز يعرف أغلبية التجار الفرس، ليستأنف ممارسة التجارة، مفضلا العمل كوسيط لصالح مهنيين من بومباي على المنافسة المباشرة مع التجار المحليين ذوي الإمكانيات الفائقة لإمكانياته. هذا الحذر سيطبع كل مسار داوود المهني اللاحق، مثلما سيميزه نفوره الدائم من المعاملات المشبوهة والمضاربات غير الحكيمة. وقد استهل أعماله الجديدة بتصدير

الخيول وجلود الغنم والتمر، مصحوبة بعلب صغيرة من اللؤلؤ، إلى الهند، مع الاكتفاء باستيراد شحنات بسيطة من الأنسجة الحريرية والبضائع المعدنية.

حزن داوود ساسون عميقا لما بلغه خبر إمكانية احتفال ابنه عبد الله ببلوغ سن الرشد الديني (بارمصواه) بعيدا عنه، لكن سرعان ما تبدد كربه عقب توصله بمعلومات تفيد وشوك قدوم والده الشيخ ساسون إلى بوشير. وهذا ما حدث بالفعل، ولم يعكر صفو سعادة اللقاء تخلي الأب عن قسط وفير من ثروته في بغداد، المدينة التي تركها منهكة بسبب ابتزاز داوود باشا من جهة، وموبوءة، من جهة ثانية، بطاعون يفتك يوميا بأربعة آلاف شخص ومدمرة جزئيا بفعل فيضانات نهر الفرات. وقد انتقل الشيخ ساسون إلى جوار ربه عن عمر يناهز الثمانين سنة في بداية 1830، قبيل احتفال حفيده عبد الله ببلوغ سن الرشد الديني في ربيعه الثالث عشر تبعا لما تنص عليه التقاليد الدينية. رحل داوود ساسون، في أعقاب ذلك، إلى بومباي، المدينة الموفرة لشروط تعليم أطفاله أفضل من بوشير، والتي سيستفيد من دورها المتنامي في مجال المبادلات التجارية بين الهند ومجموع موانئ الخليج، بالإضافة لإفريقيا الشرقية. أجل، كان تأسيسه في المدينة تلك لشركة للاستيراد والتصدير عين العقل.

عندما احتل البرتغاليون الجزر السبعة الواقعة قرب الساحل الغربي للهند، سنة 1534،أطلقوا عليها اسم BOM BAIA، أي الخليج الصغير الجيد، وهي التسمية التي ستتحول إلى بومباي BOMBAY. ووقعت المدينة تحت السيطرة البريطانية لما أدمجت ضمن مهر كاترين دو برانياك بمناسبة زواجها بالملك تشارلز الثاني (1630 - 1685) الذي سيفوتها لصالح شركة الهند الشرقية مقابل عشرة ليرات إسترلينية في العام. بومباي ستتوسع حول حصنها على امتداد مساحة فسيحة فوق أراضي منبسطة وموحلة، لتغدو شبيهة ببازار شاسع يتاجر فيه الفرس، المسلمون، اليهود والهنود في جو من السلم والأمان، وذلك في حقبة كانت مدن أخرى، مثل مدراس وكالكوتا، تكتوي خلالها بانعدام التعايش بين الملل والنحل المختلفة. استقبلت الطائفة اليهودية داوود ساسون بحفاوة، وخاصة عائلتا نيسيم وغباي، وفي المدينة وقف على القوة التجارية

للفرس المتعاملين مع ممثلي أهم المتاجر البريطانية المتوفرة على مخازن مصطفة على طول أرصفة الميناء. عاد داوود ساسون إلى بوشير لاستكشاف إمكانيات تسويق البضائع التي سيصدرها من بومباي (أنسجة حريرية، قطن ومعادن)، واختيار تلك التي سيستوردها من بلاد فارس، وقد أقنعه صديقه صامويل زكريا وابنه عبد الله بالاستقرار نهائيا في بومباي، حيث سيقطن في المنزل رقم 9 الكائن بحارة تامارايند، البيت الذي سيستغله أيضا كمخزن ومكتب.

تواصلت حكاية آل ساسون التاريخية إذن في الهند انطلاقا من 1832، وفي 1837، حضر داوود وابنيه عبد الله (1818 - 1896)، البالغ من العمر آنذاك 19 سنة، وإلياس (1820 - 1880)، الذي يصغر أخاه بعامين، تتويج الملكة فيكتوريا التي صارت كذلك إمبراطورة الهند. يومها، صدح الثلاثة بفخر النشيد الوطني البريطاني (يحفظ الله الملكة)، مثيرين، بدون شك، الانتباه نظرا لأزيائهم البغدادية المتقنة الحياكة. هذا الثلاثي هو من سيؤسس، ابتداء من 1852، شركة داوود ساسون وأبنائه، التي سيضطر باقي الأبناء إلى انتظار وفاة الوالد، في 1864، قبل الالتحاق بمجلس إدارتها بناء على معاييرالسن وحاجة المؤسسة إلى ضخ دماء جديدة في قمة هيكلها التدبيري.

شيدت الشركة قوتها بفضل تجارة القطن والأفيون، وذاع صيتها من نهر التايمز إلى الفرات وعبر أرجاء آسيا إلى حدود دلتا نهر بيژ- هو في شمال الصين. ومعلوم أن الهند تحتضن زراعة أشجار القطن منذ قرون، مع استعمال المنوال اليدوي لنسج اللفائف قصد الاستجابة للطلب المحلي. وبفعل التطور الهائل لطاقات الحياكة في منطقة لانكشير البريطانية، ارتفع الطلب على القطن الخام، المادة التي كانت تصل إلى بومباي محملة فوق عربات تجرها الثيران، وتنظف بتقنيات بدائية رغم استيراد شركة الهند الشرقية لآلات من الولايات المتحدة الأمريكية بهدف تحسين معالجتها. ومع تراكم تجربة آل ساسون في ميدان التبادل التجاري مع بلاد فارس، بزغ اهتمامهم ببورصة القطن، خاصة مع ارتفاع الطلب على القطن الهندي جراء تدني المحصول الأمريكي. وإثر معاناة معامل النسيج في لانكشير من أسعار مزارعي ولاية ألاباما الامريكية

الباهظة، تضاعف حجم استيرادها لقطن بومباي، وهو ما استشعر فيه داوود ساسون فرصة سانحة للمتاجرة في هذه المادة بغض النظر عن تقلبات الأثمان، مما سيساهم في تنمية ثروة العائلة البغدادية رغم مواجهتها لمنافسة التجار الفرس.

أما الأفيون، الذي ولج الصين على يد الأطباء العرب كدواء لإصابات المعدة والبرص، فبدأ كبار موظفي الإمبراطورية والأعيان الأغنياء يدخنونه في القرن السابع عشر، محاكين في ذلك البحارة البرتغاليين (الدخان الغريب). ونظرا للانتشار السريع للإدمان عليه، أصبح الأفيون أحد أهم البضائع التجارية المدرة للربح بالنسبة لشركة الهند الشرقية، بل تحول إلى أداة تسديد من قبلها حين رفعت حجم وارداتها من الشاي والأنسجة الحريرية من تجار مدينة كانتون، خاصة أمام عجز صادرات القطن من الهند إلى الصين على تحقيق التوازن في ميزان مبادلات السلع. وبعدما كانت المقاولة تقوم بتصفية الأفيون الخام لبيعه في المزاد العلني بكالكوتا، أقلعت عن نقل المخدر، لكنها لم تتوقف بالمقابل عن منح رخص تصديره، انطلاقا من بومباي، للتجار البريطانيين والفرس، علاوة على مؤسسات الاستيراد والتصدير الحديثة النشأة، ومنها شركة آل ساسون. وتضافرت عوامل صغر حجم الأفيون، عدم قابليته للتلف، الضمانات المحيطة بتسويقه والطلب المتزايد عليه، فجعلت منه مصدرا يجني منه التجار وشركة الهند الشرقية واقتصاد بومباي عموما أرباحا طائلة. وبموازاة هذا، تضاعفت معارضة إمبراطورية الصين لهذه التجارة، ولم تعد تتردد في حجز وإحراق الحمولة الكاملة للبواخر الناقلة للمخدر، أو إغراق المراكب الشراعية المهربة له في سواحل كانتون وهونغ كونغ. في سياق هذه الأحداث، ستتدخل البوارج الحربية البريطانية دفاعا عن تجارها وعما اعتبرته لندن مبدأ حرية التجارة العالمية، لتفرض هذه "الحرب" على الإمبراطور الصيني التفاوض مع بريطانيا وتوقيع اتفاقية نانجينغ معها في غشت 1842، الاتفاقية التي فتحت أبواب أربعة موانئ، إضافة إلى كانتون، في وجه الإنجليز ومحمييهم، مع تمتيع القوى الأجنبية بامتيازات جمركية في عدة مرافئ ومنحها وضع الدولة الأكثر رعاية. هكذا، ورغم الحظر

القانوني لتجارة الأفيون، استمر تهريبه إلى الإمبراطورية منتعشا، انطلاقا من هونغ كونغ التي تنازلت عنها الصين لصالح بريطانيا.

بعد الاستقرارفي بومباي، ارتفع عدد أفراد أسرة داوود ساسون فصارت تضم، بالإضافة إلى أطفال ربها من زواجه الأول مع حنا جوزيف، كلا من س.د. ساسون المزداد في 1832، أسابيع قليلة عقب السكن بالمدينة، والذي سيحمل لاحقا اسم ديفيد ساسون دو أشلي بارك نسبة إلى محل إقامته في أشلي بارك بمقاطعة ساري جنوب إنجلترا، علاوة على روبن المولود في 1835 وآرثر الذي جاء الوجود في 1850، وفي 1851، ستضع الزوجة الثانية، فرحة حييم، توأما. استلزم تكاثر نسل داوود ساسون إيجاد فضاء أفسح للمواليد الجدد، وهو ما كان يقتضيه كذلك استقباله للحجاج ورجال الدين وملتمسي الإعانات الذين كانوا يقطعون، أحيانا، مسافات طويلة للقاء راعيهم، وينتظرون منه حسن وكرم الضيافة. ولمجمل هذه الأسباب، وفي أعقاب الانتهاء من بناء إقامة صيفية في بونا (بيون) الواقعة على بعد مائتي كيلومتر جنوب-شرق بومباي، قرر رب الأسرة، على منوال أغنياء الفرس، تشييد بيت آخر وفق نمط بالاديو المعماري على مرتفعات تل مالابار، التل ذو الجو الصحي الأكثر صفاء ونقاوة من أحياء بومباي المعرضة باستمرار لاكتساح الحشرات كلما هبت الرياح الموسمية، منتقيا له اسم "الخالي من القلق".

لم يتخلف آل ساسون نظرا للالتزامهم بالشعائر الدينية والتقاليد اليهودية، على مساعدة أبناء ديانتهم يوما، وبصفة خاصة الخاضعون منهم للاضطهاد في بعض البلدان ولو كانت نائية، أو العاجزون على توفير مستلزمات عيش طوائفهم. أعمالهم الإحسانية شملت أيضا الهنود غير اليهود، ويوجد من ضمنها مستشفى ساسون العام في بونا المفتوح في وجه كل المرضى ومخيمات الفقراء المنشأة في نفس المدينة، ووهب داوود ساسون مقرا جديدا لمدرسة الصناعة في بومباي، المدشنة في 1850، متكلفا بتوفير ميزانية تسييرها، وهي المؤسسة التي سمحت لشباب منتسبين في أغلبيتهم لفئات معوزة بإتقان حرفة. وصارت "مؤسسة ساسون للتكوين الصناعي وإعادة التربية"، الفريدة من نوعها في الشرق، نموذجا اقتدت به العديد من مراكز التكوين المماثلة.

بايع داوود ساسون الملكة فيكتوريا في 1853 بواسطة توقيع شهادة تجنيسه المحررة بالعبرية، ورغم جهله حينذاك للغة الإنجليزية، فإن حبه وولاءه لوطنه الجديد لم يكونا بحاجة لبرهان، علما أن تلاميذ المدارس المدعومة من آل ساسون كانوا يتعلمون النشيد الوطني البريطاني باللغات الإنجليزية والعبرية والعربية. في سنته الثانية والستين، سيرزق داوود ساسون بآخر مواليده، بنت انتقى لها اسم موزيل، مما دفع بعض سكان بومباي للتعبير عن استغرابهم لأنه لم يختر تسميتها فيكتوريا. وفي الواقع، فسهام النقد هذه، كانت موجهة ضد ابنه البكر عبد الله نظرا لمداومته على حث أصدقائه في النادي وزملائه في غرفة التجارة على مناداته بإسم ألبير. ووالده مازال على قيد الحياة، لم يتجرأ عبد الله على تغيير اسمه رسميا، وبالمقابل، أطلق اسم إدوارد ألبير (1856 - 1912) على ابنه الثاني. أما س.د. ساسون (1832 - 1867)، فعبر بطريقته الخاصة عن ولائه للعرش البريطاني حيث كان أول فرد من الأسرة يرتدي الزي الأوربي، بينما استمر والده وفيا للباس الشرقي، ومعه باقي إخوانه الذين لم يكونوا يتخلون عن ملابسهم التقليدية إلا بمناسبة بعض الاستقبالات الرسمية. ومن بين المسوغات المعقولة التي ساقها س. د. ساسون لتبرير التغيير على مستوى الملبس، كونه سيشد الرحال إلى لندن لافتتاح ممثلية الشركة العائلية في إنجلترا، الأمر الذي تزامن مع هبوب رياح موقف يتسم بمحاباة أكبر إزاء اليهود على المملكة المتحدة. نعم، وقبيل هذا، أصبح البارون ليونيل دو روتشيلد عضوا بمجلس العموم، وانتخب أخوه ميير نائبا عن دائرة كنت، وهي المسؤولية التمثيلية التي سيتولاها لاحقا ابن عبد الله الذي سيحمل لقب السير إدوارد ألبير ساسون إثر حصوله، على غرار والده، على صفة نبيل.

أيام ثورة السباهيين، سنة 1857، أولئك الجنود الهنود الذين يؤطرهم ضباط بريطانيون، أي بعد مرور حوالي ربع قرن على إنشاء أول وكالة تجارية لشركة داوود ساسون وأبنائه في بومباي، تبوأت المؤسسة مكانة مرموقة ضمن أقوى شركات الشرق، مما دفع أحد المعاصرين للتعليق على الأمر قائلا بدون أدنى فظاظة: "الفضة والذهب، الأنسجة الحريرية، أنواع الصمغ والتوابل، الأفيون،

القطن، الصوف والقمح، إن نقل كل هذه السلع، برا أو بحرا، يحمل طابع شركة آل ساسون أو يشهد على تدخلهم في سياقه". وبالفعل، تضافرت للشركة في تلك الفترة عوامل النجاح : يد عاملة وفيرة بخسة التكلفة وضرائب منخفضة. ومن جانبها، أعطت التقنيات الصناعية الجديدة دفعة للمبادلات التجارية التي استفادت، كذلك، من تطور السكك الحديدية والنقل البحري والتلغراف. ورافق هذه الظروف الملائمة تمتع آل ساسون بامتيازات حاسمة: منافسوهم المندمجون مجتمعيا مثلهم يعدون على رؤوس الأصابع، وكذا المتوفرون من ضمن هؤلاء المنافسين على شبكة لاستقاء المعلومات ذات مصداقية مماثلة لمصداقية شبكتهم. لم ينخدع آل ساسون أبدا بسراب العمليات التجارية غير المضمونة النتائج، مفضلين شراء شركات تشكو من سوء التدبير أو على حافة الإفلاس لانعاشها بضبط تسييرها، ومتسلحين بالقدر ذاته من الحذر، لم يغامروا يوما بالسبق في مجال الاستثمار، وهو السلوك الذي حرص عليه داوود ساسون مكتفيا، في الهند، بسلك سبيل آل غاباي، عزرا وإزكييل، الذين عبدوا بداية طريق الاستثمار، كما أنه لم يبعث ابنه إلى الصين (شنغهاي) إلا بعد نجاح ثلة من الشركات الأخرى، من قبيل شركة جاردين، ماتهيسون وشركائهما، في إنشاء مراكز تجارية منتعشة بالموانئ المفتوحة في وجه التجارة الخارجية من طرف الصينيين بعد اتفاقية نانجينغ (1842) ومعاهدات 1860 الموقعة مع الغربيين. منذ أولى خطواته المهنية إذن، وبفعل حدسه ربما، التزم داوود ساسون بعدم توظيف أمواله أثناء الموجة الأولى للاستثمارات، بل انتظار الموجة الثانية.

توفي داوود ساسون في نونبر 1864 بإقامته في بونا، وهو يحرر تعليماته اليومية الموجهة إلى مكتبه في مومباي، ودفن بالقرب من بيعته، بعد إقامة جنازته وفق تقاليد اليهود البغداديين. وعلاوة على الصلوات المقامة في "الخالي من القلق"، شارك أطفاله في قداسات ببومباي، شنغهاي، هونغ كونغ، لندن وأينما حلوا وارتحلوا طوال شهور الحداد الاحدى عشر. وقد تمت الاستجابة بسرعة لمقترح نصب تمثال له داخل معهد ساسون الجديد للميكانيكا، هو التاجر والمحسن ذو الشهرة والسمعة الاستثنائيتين. ليس يهود بومباي والهند فحسب

هم من ساهموا في الاكتتاب العمومي الذي أطلقه عامل بومباي لهذا الغرض، بل شارك فيه أيضا الفرس وجميع طوائف إيران والصين اليهودية. من جهتها، أرسلت عائلات روتشيلد، مونتاغو وموكاطا دعما ماليا كريما من إنجلترا، ولم يتخلف عمال معامل النسيج بلانكشير في الحذو حذوها، كما بعث ويليام إوارت غلادستون (1868-1873)، رجل السياسة الليبرالي الذي سيصبح وزيرا أولا، المعروف بقناعاته الدينية والأخلاقية وبإيمانه الراسخ بانتصار إنجلترا عبر إعمال العدالة، شيكا بقيمة خمس وحدات من عملة غينيا الذهبية.

في الصين

حل أول سليل لآل ساسون بالصين في 1844، وهو الابن الثاني لداوود ساسون، إلياس (1820 - 1880)، مقتنعا أن شنغهاي وهونغ كونغ تضمنان أسنح الفرص لتجارة النسيج والأفيون. وسبق له، قبل ذلك، تسجيل حضوره في كانتون، محاكيا شركة جاردين، ماتهيسون وشركائهما البريطانية، عن طريق تمويل الشحن ومنح صغار التجار تسهيلات بنكية، مع الحرص على إرسال بضائعه الخاصة إلى أقصى نقطة ساحلية شمالا. استقر إلياس في شنغهاي ابتداء من 1850، وبها فضل شراء مخازن على اكترائها، وشرع في تنويع تجارته عبر استيراد المعادن، الأنسجة الموصلية والقطن، وتطوير تجارة التوابل المدرة للأرباح مع تقليص نصيب الأفيون في معاملاته، وكسب ثقة ربابنة البواخر التجارية الذين كانوا يفرغون حمولات المخدر قبل شحن سفنهم بالشاي والجلود والسلع الأخرى للعودة بها إلى الهند. ما كادت خمس سنوات تمضي، حتى وطد آل ساسون موطئ قدمهم تجاريا في الساحل الصيني، مثلما كانوا من ضمن الشركات السباقة لفتح ممثليات في اليابان في أعقاب التفاوض حول اتفاقية جديدة في 1858.

يستطيع زوار شنغهاي، حاليا، الوقوف على آثار هجرة الأغنياء البغداديين إلى المدينة، يهود الهند أو العراق، ومنهم آل ساسون، الذين استقروا منذ أواسط القرن التاسع عشر في قلب المناطق الخاضعة لنظام دولي شبه استعماري، والمحتضنة لفنادق ولمطاعم من الدرجة الأولى محظورة على الصينيين، ولنواد

مفتوحة في وجه من له هيئة جنتلمان بريطاني فحسب، ولمتاجر باذخة واقعة في الحي الفرنسي (فرنش تاون). وقد عثرت، بمناسبة زيارة نظمتها لفائدتي السلطات العلمية الصينية، على آثار هذا الحضور اليهودي وخصوصا حضور آل ساسون. مع مطلع القرن العشرين استقرت جماعتان يهوديتان إضافيتان في شنغهاي، أفلتت الأولى بجلدها من مذابح روسيا القيصرية وضمت الثانية الفارين من ثورة 1917 والحرب الأهلية التي أعقبتها. وفي 1937، لجأ عشرون ألف يهودي ألماني ونمساوي لشنغهاي، والمدينة حينها عبارة عن ميناء حر لا يحتاج دخوله إلى تأشيرة، وبعد سنتين سيلتحق أربعة آلاف يهودي من الاتحاد السوفييتي، ليتوانيا وبولندا بأبناء ديانتهم بالمدينة، وذلك قبل الشروع في التطبيق التام لسياسة الإبادة النازية. وفي نفس السنة، استولت القوات اليابانية على شنغهاي، وأجبرت الإدارة اللاجئين اليهود على الاستقرار في حي هونغ جكو (الذي من المفترض أن تنتهي أشغال تجديده الجارية حاليا في 2010، سنة احتضان شنغهاي للمعرض الدولي). تحول الحي إلى غيتو جديد، يقطنه عشرون ألف يهودي وسط مائة ألف صيني، ويتجاور الجميع فيه بدون مشاكل. اليهود البغداديون نظموا، بحس تضامني فائق، إقامة أبناء ديانتهم في منطقتهم الجديدة، لكن العلاقات بين الطوائف اتسمت بالمحدودية، نظرا أساسا للعائق اللغوي والخصوصيات الثقافية، وبسبب هيمنة التقاليد والعادات النمساوية على الحي، فقد صار يحمل اسم "فيينا الصغيرة".

انتهى الحضور اليهودي في شنغهاي مع الثورة الصينية في 1949، ليهاجر المدينة أكثر من عشرين ألف لاجئ، ومعهم غربيون كثيرون من سكانها، متوجهين إلى الولايات المتحدة الأمريكية، إسرائيل أو أستراليا. وقد هدمت اليوم المعابد اليهودية السبعة الموجودة في شنغهاي سنة 1949، ولم يبق منها سوى اثنين: كنيس أوحل موشيه وكنيس أوحل راشيل الفخم المدشن في 1920 والمخصص لليهود البغداديين.

العودة إلى إنجلترا

التحق س.د. ساسون بإنجلترا وسنة 1858 تشرف على الأفول، وقطن في

أشلي بارك بمقاطعة ساري، على بعد خمسة وعشرين كيلومترا من لندن، في بيت ذي معمار من عهد حكم أسرة تيودور، بيت يُحكى أن كروमويل أقام به أثناء محاكمة تشارلز الأول. ينتمي آل ساسون بفعل أصولهم، إلى اليهود السفارديم، أي مجموع اليهود الشرقيين ويهود إسبانيا والبرتغال اللاجئين إلى إنجلترا نتيجة محاكم التفتيش. هؤلاء كانوا أقل بكثير من اليهود الأشكناز الذين ينحدر جلهم، مثلما هو الحال بالنسبة لآل روتشيلد، من ألمانيا، ومعهم بعض الناجين من مذابح روسيا. تميز أفراد طائفة السفارديم بملابسهم الشرقية وضفائر شعرهم ، وكانوا أكثر غنى وأوسع ثقافة، نادرا ما يتزوجون من خارج عائلاتهم، يمارسون شعائر عبادة خاصة بهم وينطقون العبرية بشكل يصعب معه فهم حديثهم من طرف إخوانهم في الدين.

سبق لألبير (عبد الله) ساسون، الذي كان لا يكل عن العمل الدؤوب بغية تنمية أنشطته التجارية في الهند وبلاد فارس، أن منحته الملكة صفة نبيل في 1872 ، وقبلها وشحه الشاه بوسام فيلق الأسد والشمس. احتفل السير ألبير بهذا التشريف، وحل النائب الجديد للعرش في الهند، اللورد نورثبروك، ضيفا على حفل الاستقبال الرائع الذي جرى في إقامة "الخالي من القلق"، ولم تمض مدة طويلة حتى شد الرحال إلى إنجلترا. هناك حضر، بمعية آل روتشيلد، الحفل الراقص المنظم من طرف الملكة في قصر باكنغهام على شرف نصر الدين، شاه إيران (1873) ، وبالمناسبة، التقى بأمير بلاد الغال، العاهل إدوارد السابع لاحقا. هذا الأخير سيزور بومباي، في 1875 ، لوضع الحجر الأساسي لأرصفة جديدة لشحن السفن وتفريغها ، الأمر الذي بات ضروريا لمواجهة نمو أنشطة الميناء، ولتوسيع رصيف ساسون المُعاني من ضيق جنباته بالبواخر المتوجهة للرسو فيه. قبل الرجوع نهائيا إلى إنجلترا ، للالتحاق بأخويه من والده روبن وآرثر ، حضر عبد الله ساسون حفل زواج أخيه غير الشقيق سولومون (1841 - 1894) مع فلورا أبراهام (1859 - 1936) ، حفيدته التي رزقت بها ابنته عزيزة ساسون من زوجها إزكييل أبراهام.

ها هو ذا ألبير على رأس ثروة عملاقة، يعتز بوصفه نبيلا ، ومقاولته، شركة داوود ساسون وأبنائه، في قمة قوتها في آسيا والشرق. أرصفة ومخازن آل

ساسون في الصين، على امتداد مجموع الموانئ الخاضعة لمقتضيات الاتفاقية، تعج بالمنتوجات القطنية، بالأنسجة الحريرية، بالأفيون، بالتوابل، بالشاي وبالمعادن. وبينما ارتفع ريع عقاراتها، نجحت العائلة في التأقلم مع انخفاض قيمة الروبية الهندية بالمقارنة مع العملة البريطانية، مستفيدة من تصدير بضائعها إلى مناطق لم تتأثر بتقلبات السوق المالية سوى بنسبة أدنى. كان آل ساسون، كلما انخفض حجم مبيعات الأفيون، يحصلون على مداخيل تعويضية عن طريق الزيادة في مبيعات الفضة والسكر ومواد الصباغة. كانوا متحكمين، بنفس النجاح، في مجال الشحن على طول وعرض السواحل الصينية، في بحر الصين وفي السبل البحرية المؤدية إلى أوربا، ولذا غنموا الكثير، مستغلين تراجع تكلفة الشحن، كما تعاملوا مع افتتاح قناة السويس ببعد نظر إذ قرروا دعم كبريات شركات الملاحة البحرية.

نقل ألبير ساسون بتسليمه إدارة فرع بومباي للشركة العائلية لأخيه غير الشقيق سولومون، قلب المؤسسة النابض إلى لندن، لتُتخذ أهم القرارات والتوجيهات بمقرها في ليدنهول ستريت. انتقل مركز السلطة جغرافيا إذن ليستقر في الطرف الغربي من فضاء أنشطة المجموعة، وهو برج قيادة مثالي لإطلاق برنامج اجتماعي ممتاز، لكنه ناء عن مواقع القوة التقليدية للشركة في الهند والصين، ونتج عن ذلك، على أرض الواقع، تحول السير ألبير وأخويه غير الشقيقين إلى ملاك غائبين عن نواة أنشطتهم الصلبة. بالمقابل، تحرر الأخ الصغير، إلياس ساسون (1820-1880)، من الوصاية الأخوية في 1867، بعدما أقدم على إنشاء شركته الخاصة، أ.د. ساسون وشركاؤه، محافظا على موطئ قدم في بومباي التي تحولت إلى قاعدة لتزويد مؤسسته التجارية، المؤسسة المتعاملة مع الغرب والساعية أيضا إلى تلبية الطلب المتزايد لأسواق إنجلترا والشرق الأقصى.

اندمجت عائلة ساسون في أوساط الأرستقراطية التجارية والمصرفية بلندن، بسرعة، جنبا إلى جنب مع آل روتشيلد وأصحاب ثروات طائلة آخرين عاملين في مجالي الصناعة والمال، في حين انطبعت علاقاتها مع أمير بلاد الغال بالقرب والحفاوة والمجاملة. كان ولي عهد العرش البريطاني متعودا

على معاشرة آل روتشيلد باستمرار، يلقى منهم معاملة ملؤها التقدير والأريحية اللائقين بمكانته. بسهولة، ورغم انضباطهم للشكليات بشكل أكثر صرامة من أسرة روتشيلد ومحدودية انفتاحهم اجتماعيا على خلاف هذه الأخيرة، ظفر آل ساسون بالحظوة لدى العائلة المالكة، مستفيدين من هالة هيبة الغرائبية النابعة من دورهم في إمبراطورية الهند والموانئ الصينية المفتوحة للأجانب. وفي هذا السياق، تجدر الإشارة بشكل خاص إلى حفلات استقبال لويز ساسون، زوجة آرثر ساسون (1840- 1912)، شقيق روبن (1835-1905)، وهما معا أخوان غير شقيقين للسير ألبير (عبد الله) ساسون، تلك الحفلات المشهورة بأناقتها الفائقة، بأطباقها اللذيذة ذات الوصفات المجلوبة من الخارج، ولا سيما بالحضور المشع للمضيفة. اعتاد أمير بلاد الغال تلبية دعوات آل ساسون، وهكذا حضر، في 16 يناير 1881، عرس عقد قران ليوبولد دو روتشيلد مع ماري بيروجيا، الأخت الصغيرة للويز ساسون. لقد تخلف بنيامين ديزرائيلي، الوزير المفضل لدى الملكة وإمبراطورة الهند فيكتوريا، تخلف عن الحفل الديني المقام بالمناسبة، وهو الحفل الذي شرفه ولي العهد بحضوره، لكنه قدم تهانيه للعريسين خلال العرس، وشرب نخبا على شرف أمير بلاد الغال بالمناسبة. وجدير بالذكر أن بنيامين ديزرائيلي سيقضي نحبه خلال سنة الزفاف تلك، بعد ولاية ثانية كوزير أول محافظ وانتصاره على منافسه العمالي ويليام إوارت غلادستون.

ترسخت مصاهرة آل ساسون وآل روتشيلد عند زواج إدوارد ساسون (1856 - 1912)، ابن ووريث السير ألبير ساسون المزداد في بومباي، مع ألين دو روتشيلد، ثاني بنات البارون غوستاف دو روتشيلد. عقد العريسان قرانهما وهما يبلغان، على التوالي، ثلاثين وعشرين سنة، وبالرغم من صغر سنها، كانت ألين قد ألمت بالعوالم المتلألئة للمصرفيين ورجال الدولة في قصور فرنسا وصالوناتها، حيث التقت بنخبة من الفنانين والكتاب والملحنين الذائعي الصيت في أوربا، وهي عوالم متألقة وغير يهودية، ولذلك كان من المحتمل ارتباطها بزوج من غير ديانتها. لكن موجة معاداة السامية المستفحلة في فرنسا حالت دون تحقق هذا الاحتمال وأدت بآل روتشيلد إلى

رص صفوفهم، ومن مظاهر هذه الموجة، نشر بعض الجرائد الفرنسية الصباحية لرسوم كاريكاتورية تسخر من آل روتشيلد بتزامن مع دنو انفجار قضية دريفوس. وقد أبانت العائلة عن تعاطفها مع المستوطنات اليهودية الأولى في فلسطين وعن أبويتها العطوفة إزاء اللاجئين الفارين من قمع روسيا القيصرية. وأخبر السير ألبير ساسون بنفسه أمير بلاد الغال وشاه إيران بالزواج الذي أحياه كبير حاخامات فرنسا في معبد شارع لا فيكتوار بباريس. استضاف حفل الاستقبال الذي نظمه البارون غوستاف دو روتشيلد، في فندقه بشارع مارينيي، ما يفوق 1200 شخص، ولم تشهد العاصمة الفرنسية، منذ زفاف نابليون الثالث، حشدا من العربات الفاخرة يماثل عدد التي وفدت إلى العرس. قطن الزوجان بلندن، في 25، كنسينغتون غور، أي في البيت الذي تركه السير ألبير لقضاء آخر سنوات حياته في برايتون ذات المناخ المساعد له على مقاومة نوبات الربو والالتهاب المزمن للشعب الهوائية.

لمعت أليس دو روتشيلد بأناقتها ونباهتها، مثلها مثل عمتها لويز، شريكة حياة آرثر ساسون، لتجد، تدريجيا، بديلا عن الأنتلجنسيا الباريسية التي خالطتها قبل زواجها. تنامت العلاقات بين إدوارد وألين مع أمير بلاد الغال بفضل أصدقاء مشتركين، وقام ولي عهد العرش البريطاني بتعميد يخت تحت اسم ألين. لكن أقرب المقربين لإدوارد السابع لاحقا (1901 - 1910) كان هو روبن ساسون (1855 - 1905)، الأخ غير الشقيق للسير ألبير ساسون، حيث لم يكن الأمير يجد حرجا في إعلانه مستشارا مرتقبا للخزينة، أي وزيرا مكلفا بالمالية والخزينة العامة، وذلك خلال النقاشات الخاصة المتمحورة حول الحكومات المحتملة.

لقد منح السير ألبير ساسون أول لقب نبيل كأول بارون لمقاطعة كينستون غور، مدة قصيرة بعد ثاني زيارة دولة لشاه إيران في 1889، مكافأة له على حسن ضيافته لملك الملوك الذي استجاب لدعوة قضاء نهاية الأسبوع في إقامته ببرايتون، وكذلك على جهوده الرامية لنيل تدبير مفوض من طرفه، يدوم ستين سنة، غايته تمويل تأهيل الموارد المعدنية لإيران، المشروع المناوئ لمخططات روسيا في هذا البلد. وفي منتصف شهر أكتوبر 1896، وهو على مشارف الثمانينيات من

عمره، سيقوم السير ألبير بآخر رحلة مرتبطة بأعماله وأنشطته الاجتماعية إلى لندن، وبها سيزور السفير الصيني الذي سبق له استقباله مرارا في مسكنه. أياما بعدها، تعرض لسكتة قلبية في محل إقامته، وابنه إدوارد موجود في باريس برفقة زوجته ألين، لكن أخويه، آرثر وروبن، وبالرغم من وجودهما في برايتون يوم السكتة، سيصلان متأخرين عن ساعة احتضاره. دُفن المتوفى في ضريح مهيب تحيط به أسوار عالية من الآجر، قبته من النمط الإسلامي، سبق وبناه قيد حياته ليضم رفاته ورفات الأسرة. أغلقت كل مكاتب ومصانع الشركة أبوابها، هي وشركة أ. د. ساسون وشركاؤه، طوال يوم كامل، واقتدت بها العديد من متاجر الهند المملوكة من طرف اليهود أو الفرس، أما في شنغهاي، فنكست أعلام جميع البواخر التجارية. خلف إدوارد ألبير ساسون (1856 - 1912) والده فورث لقب البارونية ورئاسة الشركة وانتقل للسكن، مع زوجته ألين، في 25، لين بارك، في بيت استغرقت أشغال إعادة بنائه وتأثيثه كليا، بشكل يوافق ذوقهما، ثلاث سنوات.

في وقت سابق، وبالضبط في سنة 1894، عاش آل ساسون سلسلة من الأحزان. هكذا، مات في بومباي، فجأة، سولومون ساسون (1841 - 1894)، الأخ غير الشقيق ما قبل الأخير للسير ألبير، وبعد أسابيع قليلة، التحق به إلى دار البقاء خلفه المحتمل أ. م. غوباي، زوج راشل، أخت السير ألبير. تزامن الحدثان الحزينان، لسوء الحظ، مع حاجة الفرع الهندي للشركة لمدير صارم، وفي تطور أثار استغراب الأصهار وشبه هلع في أوساط تجار بومباي، حلت أرملة سولومون محل زوجها وعمرها خمسة وثلاثين عاما فحسب، وهي فلورا ساسون (1859 - 1936) سليلة عائلة أبراهام، التي كانت، قيد حياة الراحل، تساعده في إدارة الفرع مما جعلها ملمة بأعمال الشركة. وفي الواقع، فتجار ووسطاء بومباي سعدوا بالتعامل معها، بل قارنوها بداوود ساسون، مؤسس السلالة، الذي اعتمدت أسلوبه ونمط علاقاته مع باقي فروع وممثلي الشركة، وقد أعطت دفعة قوية للفرع الهندي المعاني، منذ أمد طويل، من هيمنة المقر المركزي في لندن. أعجب السير ألبير بفعالية المرأة فجدد ثقته فيها كمديرة مشاركة، ممتعا إياها بكل سلطات زوجها المتوفى، وبفعل نجاحها في تحقيق

نتائج باهرة، صار موكلو الشركة الآخرون يلزمون الحصافة حين تقديمهم النصائح لها. فردريك ساسون (1853 - 1917)، صهر فلورا وأصغر الإخوان ساسون سنا، أرسله إلى بومباي لمساعدتها، لكنه حرص باستمرار على تجنب كل تداخل بين مهمته وطريقتها الحازمة في التسيير، خاصة أمام مواجهتها لمنافسة شرسة من قبل الشركات اليابانية والألمانية المرخص لها حديثا بإنشاء مؤسسات صناعية في التراب الصيني.

أظهرت فلورا ساسون سلوكا لافتا في 1896، سنة وفاة السير ألبير في برايتون، بمناسبة ما خلفته موجة الرياح الموسمية القوية من خراب ومجاعة ووفيات في بومباي. انتشر الطاعون حقبتها، واضطر عشرات آلاف الفلاحين للهجرة بسبب محصول الحبوب المتدني، وتوقف النشاط التجاري تدريجيا، وبدأ مخزون البضائع الضخم يتلف في الميناء الخاضع للحجر الصحي، مثلما أغلقت العديد من مصانع القطن أبوابها. وعلاوة على الطاعون الدبيلي، أهلك وباء الكوليرا الجزء الأكبر من لاجئي المخيمات، لتعقد التساقطات المطرية الأحوال، مولدة استفحال حمى المستنقعات التي حصدت أرواح الساكنة الشاكية من سوء التغذية. أمام هذه الكارثة الإنسانية، أبانت فلورا ساسون عن عزم استثنائي عبر وضع نفسها في خدمة اللجنة المحدثة بهدف وضع حد للهلع وتحديد المصابين بالطاعون لعزلهم، وفي هذا الإطار، ساعدت مختصا يهوديا شابا في علم الجراثيم في استعمال لقاح مضاد للكوليرا من ابتكاره. كان فالديمار هافكين، تلميذ لويس باستور، يقطن بيتا من طابق واحد في مالابار هيل، وضعته الحكومة رهن إشارته، ليحول أحد أجنحته إلى مختبر. كان الطبيب الشاب إذن جارا لفلورا ساسون التي سارعت، بمعية أصدقائها في النادي، إلى نشر نصائحه في أوساط كل الطوائف، مساهمة في إفشال مساعي المتزمتين ومثيري الفتن من مختلف الأطياف، الزاعمين بأن التلقيح مناقض لديانتهم، وهم ذاتهم الذين سيضرمون نيران المواجهات الدموية بين المسلمين والهنود. وجدير بالذكر أن فلورا كانت من أوائل الملقحين.

في رحم المجاعات والأوبئة والقلاقل الطائفية، غدا استمرار مصانع النسيج في العمل مستعصيا، فتوقف بعضها ولم يعد البعض الآخر ينتج إلا

جزئيا. نمو المعاملات في مناطق الصين الداخلية شكل الملاذ الوحيد من سوء الأوضاع السائدة، وهو ما وعته فلورا التي واجهت الأزمة بهدوء وحزم، في الوقت الذي لم يتفضل خلاله المقر المركزي للشركة بإصدار أي رد فعل متعاطف مع مشاكلها، لكنها ظلت متجاهلة لمجريات الأحداث في أشلي بارك، مقر الإقامة الفاخر للرئيس الجديد للشركة، إدوارد ساسون، وزوجته ألين. أجل، لقد تغير موقف الإدارة المركزية منها عقب وفاة رب العائلة، السير ألبير ساسون، واقع لم يحجبه عنها استمرار إدوارد في التواصل معها باحترام ولطف، هو الذي أصبح شخصية بارزة يتردد خبر سعيه إلى نيل مقعد في مجلس العموم، مما كان سيُبعده أكثر عن مجال الأعمال. أما آرثر وزوجته لويز، فأمسيا مقربين من أمير بلاد الغال، بينما أخوه روبن منشغل بمعالجة نفسه من الإصابة بداء المفاصل في مارلبوروغ هاوس. شرع الأخوان المسؤولان المركزيان عن الشركة، المتعودان على البذخ، في التعبير عن عدم الرضا نظرا لتقلص مداخيلهما إثر الأزمة في الهند. وطفا على السطح ذلك الغيظ الشرقي بامتياز حيال المرأة المتحملة للمسؤولية، غيظ ظل متواريا طوال مرحلة الازدهار، لتضحي فلورا لقمة سائغة مع فترة الانكماش. من جهته، انخرط فردريك ساسون، الذي يشكل الطموح وارتباطه الوثيق بالعائلة قوته الأساسية، في جوقة المنتقدين، ضاما صوته إلى أصوات أكبر إخوانه.

في بومباي، خلفت فلورا ساسون (1859 - 1936)، صاحبة نمط اللباس الجدير بالأميرات، الأناقة التي يزيدها بهاء عقد شهير من اللؤلؤ وتاج من الماس، الأنوثة الفائقة والطبع القوي الذي جعلها تنال عضوية نادي اليخت بالمدينة المغلق في وجه النساء، خلفت صورة امرأة مثقفة، محترمة للتقاليد اليهودية، محسنة ومضيفة مرموقة. ويوم رحيلها من بومباي إلى إنجلترا، إثر مغادرتها لإدارة فرع الشركة الهندي، تقدمت نحوها شابة فارسية ووضعت حول عنقها إكليل زهر يحمل عبارة: "صاحبة الجلالة، ملكة بومباي وإمبراطورة مالابار هيل". ومن جانبها، ستلقبها طائفة اليهود السفارديم في لندن "الأم الصغيرة ليهود الشرق".

* * *

أحيى جميع آل ساسون اليوبيل الفضي للملكة فيكتوريا، وخاصة روبن، آرثر والسير إدوارد الذين استقبلوا العاهلة في هايد بارك كورنر إلى جانب اللورد روتشيلد، معبرين لها عن ولاء رعاياها اليهود العميق. الملك إدوارد السابع، وريث والدته على العرش والذي ساد عشرية من الزمن (1901 - 1910)، أبدى صداقة متينة لعائلة ساسون التي كان معجبا بحفلاتها ومقدرا للبراهين الكثيرة والودودة المؤكدة لتعلقها به. أما آخر مرة استقبل فيها آرثر ولويز ساسون العاهل في بيتهما، هما المقربان جدا منه، فتعود إلى يوم 10 فبراير 1910، وذلك قبل وفاته في 6 ماي من نفس السنة.

انقرض الجيل الثالث من آل ساسون، أي أطفال السير ألبير، قبيل الحرب العالمية الأولى. إدوارد ألبير (1856 - 1912)، ثاني بارونيت بعد والده وعضو مجلس العموم البريطاني، قضى نحبه في نفس سنة موت عمه آرثر (1840 - 1912)، في حين توفيت زوجة هذا الأخير، ألين، عام 1909، وسنها خمس وأربعون سنة، جراء الإصابة بالسرطان. لكن الأعمال الإحسانية، المنغرسة في تقاليد العائلة، تواصلت، وخصوصا الموجهة منها لفائدة الفقراء والمرضى. ومع الجيل اللاحق، اختتم مسلسل الاندماج التام في المجتمع البريطاني بالنسبة للأسرة الراسخة الارتباط بهذا البلد، ووصل الأمر حد الزواج من غير اليهود، وهو ما وقع لابنتي روبن، الأخ غير الشقيق للسير ألبير وشقيق آرثر، المتوفى سنة 1905، عن طريق عقد قرانهما، بعد رحيل الوالد، مع زوجين غير يهوديين: فلورا مع إرنست رفاييل، ولويز مع السير تشارلز بويل، العامل السابق على جزيرة موريس، مثلما تزوجت سيبيل، سليلة إدوارد ألبير وألين دو روتشيلد، بالمركيز شولوموندُلي في 6 غشت 1903.

تشكل جيل العائلة الرابع من ورثة إدوارد ألبير، إدوارد إلياس وديفيد ساسون دو أشلي بارك.

فيليب ساسون

فيليب ساسون، ثالث بارونيت من العائلة، ابن إدوارد ألبير وأخ سيبيل، تابع دراسته بمدرسة إيتن وجامعة أوكسفورد، ورث ثروة والديه مما جعل منه

مليونيرا وعمره لم يتجاوز بعد الثالثة والعشرين، وانتخب في مجلس العموم ليصبح أصغر أعضائه سنا، وطوال ولايته، رفض الحصول على تعويضاته كبرلماني. وبنفس السهولة التي حاز بها مقعده النيابي، صار سكرتيرا لدوغلاس هيج، القائد العام للقوات البريطانية في فرنسا (1905)، ورغم تمايز شخصيتيهما، تكامل الرجلان في عملهما بشكل ممتاز. لقد ساعد فيليب ساسون المشير البريطاني في علاقاته مع أصدقاء جد مقربين لعائلته، من قبيل آرثر جيمس بلفور، أول وزير بريطاني للبحرية، أو السير إدوارد غراي، وزير خارجية إنجلترا، كما تصرف بحذق للتخفيف من وقع هجمات الوزير الأول، ديفيد لويد جورج، ضد رئيسه الذي كان يكرهه، مدعوما في شعوره المناوئ هذا بونستون تشرشل. ورث فيليب ساسون عن والدته، ألين دو روتشيلد عشق اللغة الفرنسية وإتقان التحدث بها، وأظهر حنكة لا تقارن في مجال البروتوكول المعقد، مثلما اشتغل بدون هوادة للحفاظ على علاقات طيبة مع وزارة الخارجية والقيادة العسكرية العليا (جوفر، نيفل، ثم فوش) الفرنسيتين. وبعد أن وشحه القائد العام للقوات الفرنسية، ج. جوفر، بوسام جوقة الشرف قبل هجوم لاصوم (1916)، شرفته بلاده كذلك باقتراح من دوغلاس هيج، حين اختاره هذا الأخير لتلاوة الأمر اليومي الموجه للضباط في 19 أبريل 1918، حيث أهاب بهم بقوله : "المنافذ موصدة حولنا، مؤمنين بنبل قضيتنا، سيكون واجب كل واحد منا أن يحارب إلى آخر رمق".

بعد مغادرة فيليب الجيش في مارس 1919، سيحصل تقارب بينه وبين ديفيد لويد جورج، خليفة هربرت هنري آسكويث في الوزارة الأولى منذ 1916 والمعتبر أكبر منتصر في الحرب. لكن هذا التقارب لم يدفعه إلى التنكر لرئيسه السابق، دوغلاس هيج، فتسلح بكل ما أوتي من قدرة على الضغط للدفاع عنه حتى انتزع تشريفا ومعاشا محترما من الدولة لفائدته. ظل فيليب أعزب ومتذوقا يهوديا للجمال، خجولا بطبعه، متلهفا للتمتع بالحب، مبديا المقدار ذاته من الاحترام والازدراء، حريصا على صحته، ممارسا لعدة رياضات ومقدرا عافيته الجسدية حق قدرها، بالإضافة إلى وراثته عن والدته ألين دو روتشيلد، أيضا، للشغف بالروحانيات. ورغم عدم إفلاته من هجمات بعض المكونات السياسية،

فإنه كان يستطيع التباهي باكتسابه الثقة المطلقة للويد جورج، الوزير الأول المعروف بمناصرة السامية والذي ساند تصريح بلفور المتعهد بإنشاء "وطن قومي للشعب اليهودي في فلسطين" (2 نونبر 1917). السير فيليب كان يمتلك مؤهلات لغوي ملم بعدة ألسنة، وعمل لدى الوزير الأول كسكرتير ومفاوض، كما اشتهر بحسن الضيافة والمبادرة أثناء حفلاته لتقديم الخدمات لضيوفها قبل أن يطلبوها. ثروته، المتنامية باستمرار بفضل حصته من أرباح فرعي شركة داوود وأبنائه في الهند والشرق الأقصى، الشركة التي لم يهتم يوما بإدارتها والمسيرة بتبصر ونجاعة من قبل أبناء عمومته، وفرت له إمكانية صيانة ثلاث إقامات، فسيحة ورائعة، تحتضن ليس فحسب حفلات الاستقبال والعشاء والأعراس بحضور كبار السياسيين والفنانين، بل كذلك المفاوضات من أعلى المستويات. سيقتني السير فيليب في شتنبر 1919، طائرة خاصة سيداوم على قيادتها بنفسه لتسهيل تنقلاته بين هذه الإقامات. وقد استضاف شارلي شابلن، الذي ابتهج بضيافته الشرقية، لكنه لم يتمكن من فعل نفس الشيء مع مارسيل بروست بعد لقائهما في فندق ريتز بباريس، نظرا لوفاة هذا الأخير في 1922 قبل أن تتاح له فرصة السفر إلى إنجلترا.

برهن السير فيليب بامتياز عن مؤهلاته كمضيف خدوم وفعال في ماي 1920، بمناسبة احتضان إحدى إقاماته للقاء نهاية الأسبوع بين لويد جورج ورئيس الحكومة الفرنسية، إتيان ألكسندر ميلليران، المصحوب بوزراء وموظفين سامين. اللقاء هذا بين رئيسي الحكومتين انعقد قبل الجلسة العامة للجنة تعويضات الحرب التي تناولت قضايا مرتبطة بما بعد الحرب، وخصوصا مستقبل الإمبراطورية العثمانية.

عقب تعيينه عضوا في مجلس إدارة المتحف الوطني البريطاني، نظرا بدون شك لإلمامه الدقيق بالفنون ورعايته السخية لها، عاش السير فيليب هزيمة الحزب الليبرالي على يد المحافظين، هزيمة انتخابية اضطرت لويد جورج إلى الاستقالة في 1922. لكن السير فيليب سيعود مجددا إلى المشاركة في حكومة ستانلي بالدوين (1923) الذي أنشأ وزارة للطيران وعينه نائبا لكاتب الدولة فيها. وفي الحكومة نفسها، شغل ونستون تشرشل منصب وزير

الخزينة، علما أنه كان مواظبا على حضور حفلات السير فيليب.

سمحت المسؤولية الحكومية للسير فيليب بتلبية رغبته الجامحة في التنقل باستمرار، فزار كندا والولايات المتحدة الأمريكية للاضطلاع على تطور الطيران المدني والعسكري، والتقى في ديترويت بهنري فورد الذي طلب منه تجريب سيارة جديدة من صنع معامله قبل إهدائها له، ثم ذهب إلى روما للاجتماع بنظيره، وهناك استقبله البابا. بعدها، سيقوم بجولة على طول مسافة بلغت 25 ألف كيلومتر في الهند والشرق الأوسط، غايتها تفتيش المواقع النائية للقوات الجوية البريطانية، لكنه لم يستغل فرصة وجوده في بغداد والبصرة للمكوث طويلا في أرض أسلافه. وعلى الحدود بين أفغانستان والهند، تعرف على توماس إدوارد لورنس (لورنس العرب)، المدعوم من طرف ابن عمه سيغفريد ساسون والذي نشر منذ وقت قصير"أعمدة الحكمة السبعة"، وبقي وفيا لصداقته مع ت. إ. لورنس لما اتهم الأخير،إبان رجوعه إلى إنجلترا، بالتجسس وإشعال فتيل القلاقل في الشرق الأوسط، مستضيفا إياه باستمرار في بيته.

بعد فترة وجيزة بدون حقيبة وزارية، تسلم السير فيليب مرة أخرى منصب نائب كاتب دولة مكلف بالطيران في الحكومة العمالية لرامسي ماكدونالد، الوزير الأول المعين في 1929. وابتداء من عام 1933، ورغما عن تميزه بالترفع، سيمر السير ألبير بأوقات صعبة ومكدرة، إذ سيواجه على وجه الخصوص مناخا معاديا في مجلس العموم، المناهض لإعادة التسليح، فلم تفلح شروحه المتحمسة والمعطيات المستقاة من أرض الواقع في تغيير هذا التوجه. واستمر يستضيف، وإن بشكل أقل، رجال السياسة في إحدى إقاماته، ومنهم أنطوني إيدن، وزير الخارجية (1935)، الذي واجه أطماع موسوليني في إثيوبيا بصرامة ووقف ضد "سياسة التهدئة" لنيفيل تشامبرلين، على غرار ونستون تشرشل وفرانكلين ديلانو روزفلت، مما سيدفع أنطوني إيدن للاستقالة من منصبه في فبراير 1938، ليعود من جديد لوزارة الخارجية بين 1940 و 1945 في حكومة ونستون تشرشل. لم تؤثر الانشغالات الوزارية المتزايدة للسير فيليب على استعداده الدائم لاستضافة أفراد الأسرة المالكة، وفيا في ذلك للتقليد العائلي

الراسخ. وبالإضافة لاستضافة الملك جورج الخامس والملكة نهاية أسبوع لديه قبل وفاة العاهل في يناير 1936، واصل أمير بلاد الغال (إدوارد الثامن) وزوجته لاحقا، السيدة واليس سمبسون ، التردد على زيارته. تربع الأمير على العرش في 20 يناير 1936 وتنازل عنه في 11 دجنبر من نفس السنة، ليتزوج بالسيدة سمبسون في فرنسا في عام 1937، وعين تشرشل الملك السابق، الحاصل على لقب دوق وندسور والمتورط في ربط علاقات مع ألمانيا النازية، حاكما على جزر الباهاما بين 1940 و 1945. لم يقطع السير فيليب صداقته مع دوق ودوقة وندسور، مستمرا في استقبالهما بإقاماته وغير مكثرت بسهام النقد اللاذع المصوبة إليه بفعل ذلك.

غادر السير فيليب منصبه الوزاري ليصبح، في حكومة نيفيل تشامبرلين، مكلفا بالمباني التاريخية والممتلكات العمومية، المهمة التي راقته ودفعته إلى واجهة الأحداث، مخلصة إياه أيضا من تحمل وزر المساءلة عن السياسات غير الشعبية. خلال تلك الولاية، سيقوم بإصلاح مقر البرلمان، قصر هامبتون كورت، وزارة البحرية، جزء من وزارة الداخلية وإقامة الوزير الأول في 10، داوننج ستريت، وقد نال إبان مسؤوليته هذه الإعجاب والمديح والتقدير نظرا لذوقه الراقي، معرفته الدقيقة بالفنون والبساطة والتزيين وإتقانه لرسم الطبيعة.

استشعر السير ألبير، صيف سنة 1938، وشوك اندلاع الحرب فانتابه القلق لذلك، مدركا التوجسات الأمنية للمواطنين المفزوعين من الهجمات الجوية، وفي بحر السنة ذاتها، كتب وصيته وواصل تحمل مسؤوليته الجديدة بحرص شديد. وفي هذا السياق، سهر على أن لا تعكر أدنى مشكلة زيارة الدولة التي قام بها الرئيس الفرنسي ألبير لوبران (1932 - 1940) إلى إنجلترا في 1939.

سيزور السير فيليب الملك جورج السادس (أخ إدوارد الثامن وثاني أبناء جورج الخامس) والملكة ماري، في منتصف أبريل 1939، متحديا عدم الشفاء التام من نزلة زكام حادة، وذلك قبل ذهابهما إلى كندا والولايات المتحدة الأمريكية. وبعد عودته من رحلة وجيزة إلى فرنسا، ستختطفه يد المنون في 3 يونيو 1939، بفعل إصابة خطيرة في الحنجرة، وعمره خمسون سنة.

واستجابة لرغبته، لم يُقم له حفل جنائزي وبُدد رماد جثته، من على طائرة، فوق إقامته الواقعة بترنت بارك، على بعد 18 كيلومترا من لندن، حيث جرت العادة أن يستقبل، قيد حياته، أفراد العائلة الملكية ومشاهير الشخصيات، مثل ت. إ. لورنس وبرنارد شو. ورثت حنا غوباي، ابنة الخالة موزيل التي هي أصغر أخوات الوالد إدوارد ألبير، ممتلكات السير فيليب، لكنه كان قد أوصى بمنح هبات كبيرة للمستشفيات، وتعويضات لحوالي مائة مستخدم في إقاماته، مع تخصيص جائزة نصف سنوية لأفضل طيار حديث في صفوف القوات الجوية البريطانية وإهداء لوحات تشكيلية شهيرة للمتحف البريطاني والتات كَاليري.

لعل الشهادة التالية، الصادرة عن شخصية معاصرة للسير فيليب ساسون، تلخص بامتياز حياته: "لقد مثل النهاية، ليس فقط نهاية سلالة، بل ونهاية حقبة تاريخية، وعلى غرار كل ما يتعلق به، حلت وفاته في الوقت المناسب". أجل، إن موته في سن غير متقدم أنقذه، بدون شك، من ويلات الحرب العالمية الثانية، وبالمقابل وضع حدا لحياة تميزت بكثافة وتنوع استثنائيين، وبصمت المجتمع الإنجليزي في نهاية القرن التاسع عشر والعشريات الأربعة الأولى من القرن العشرين.

فيكتور ساسون

فيكتور ساسون (1881 - 1961) هو ابن إدوارد إلياس ساسون (1853 - 1924) وحفيد إلياس ساسون (1820 - 1880)، وهذا الأخير ليس سوى أخ السير ألبير وثاني بارونيت من فرع العائلة. أما عمه يعقوب ساسون، أول بارونيت من الفرع، فكان له ثلاثة إخوان هم: إدوارد إلياس (1853 - 1924)، مبير (1855 - 1924) وديفيد إلياس (1866 - 1938). درس فيكتور، أكبر أفراد الجيل الرابع من العائلة سنا، في هارو، المؤسسة التي لا تقل شهرة عن إيتن، وفي كامبريدج. وبقدر عشقه للخيول، كان مولعا بالطيران، ولذا انخرط في صفوف القوات الجوية للبحرية الملكية. في يوم 6 فبراير 1915، ستسقط طائرته في منطقة دوفر، لتجبره آثار الحادث على عدم ممارسة الرياضات الجسدية واستعمال عكاكيز، هو الذي لم يقبل إطلاقا الجلوس فوق كرسي

متحرك، ولا قبل التخلي عن وضع الزي العسكري بعد نقله إلى المصالح المركزية لوزارة البحرية، الوزارة التي رقي فيها إلى رتبة قائد طيران في 1917. وقد ورث لقب نبل والده فصار ثالث بارونيت من هذا الفرع للعائلة.

في مدة وجيزة، ستتوالى ثلاث وفيات في محيط فيكتور ساسون العائلي، مؤدية به إلى رئاسة مجموعة إ. د. ساسون وشركائه، المجموعة التي تحولت إلى شركة تجارية ومصرفية في فاتح يناير 1921 على يد أبناء إلياس ساسون المتبقين حينها على قيد الحياة (إدوارد إلياس، ميير وديفيد إلياس)، إذ انتقل رابعهم ، يعقوب، إلى دار البقاء في 1916. هكذا، فقد فيكتور فجأة أخاه هكتور في 1923، وفي السنة الموالية والده إدوارد إلياس المعاني من ضعف الشيخوخة مبكرا بسبب إصابات متتالية في الدماغ والشرايين، وأخيرا، في 1924 كذلك، عمه ميير. وكنتيجة مباشرة للحرب، طويت صفحة التنافس المستفحل منذ القدم بين شركة داوود ساسون وأبنائه مع مجموعة إ. د. ساسون وشركائه، فتكاثرت المراسلات الودية بين مقراتهما الموزعة بين لندن، باريس، بغداد، بومباي، شنغهاي وهونغ كونغ ، والرسائل الحاملة لأخبار العائلة السعيدة والتعيسة. كان فيكتور ساسون قد حل، قبيل وفاة والده وقريبيه، في بومباي، حيث برهن في وقت وجيز عن مؤهلاته كمسير مسلح بسلطة غير قابلة للجدل من طرف مساعديه المتعودين على التوصل بالتعليمات من لندن.

شكلت العزوبة قاسما مشتركا بين ابني العمومة السير فيليب ساسون والسير فيكتور، وربط الثاني علاقات عديدة مع النساء، محيطا إياها بكتمان كامل. أما الحاجة الماسة إلى تحمله التام لدوره كمدير فعال للمجموعة، فتكمن في تردي الأوضاع السياسية والاقتصادية بالهند أيامها. مؤتمنا، بمعية خالته موزيل، زوجة عمه ميير، على مجموع ممتلكات المجموعة، راكم فيكتور، وهو في عقده الرابع، تجربة لا يستهان بها في مجالات الحرب والسياسة والتجارة الخارجية. وحيث إنه السليل الوحيد لآل ساسون القاطن في بومباي، آلت إليه زعامة الطائفة اليهودية بها، خاصة والسير فيليب لا يزور المدينة إلا نادرا، بينما قطعت فلورا ساسون كل صلة بالحاضرة الهندية بعد

بيع إقامتها الشهيرة بها، "إيل بالاتزو"، في 1920. تلك الأيام صادفت الاعتراف بأرملة سولومون، في الديار الإنجليزية، كمرجع في مجمل القضايا المتعلقة بمذهب اليهود السفارديم وشعائرهم، هي التي استمرت في استقبال ضيوفها بسخاء وفق النمط الشرقي العريق وباحترام دقيق لطقوس الديانة اليهودية.

إثر حلوله ببومباي في 2 أبريل 1921، واجه نائب العرش البريطاني الجديد في الهند، اللورد ريدنج، مشاكل تتعلق بإعادة استتباب النظام (اعتقال غاندي) وبتخفيض عجز الميزانية. ولتحقيق هذا الهدف الثاني، اعتمد الوافد الجديد على أبرز رجال الأعمال، ومن ضمنهم السير فيكتور الذي عين عضوا في الجمعية التشريعية الجديدة (دلهي). لن ينصاع السير فيكتور، في رحاب الجمعية، للسياسة البريطانية بعماء، معبرا، بالخصوص، على تحفظاته الجدية إزاء الإجراءات الاقتصادية والمالية المزمع تطبيقها، لذا، فهو لم يشعر بالأسى حين مغادرته الهيئة نتيجة لهذه الخلافات، شادا الرحال إلى مكتبه في بومباي. ومرة أو مرتين في السنة، كان يذهب إلى شنغهاي التي عرفت نشاطا اقتصاديا واسعا في أواسط العشرينيات، رغم عدم الاستقرار السياسي. فعلا، لقد كان شيوعي شاب عاد حديثا من فرنسا، يحمل اسم تشو أن-لاي، ينظم المظاهرات العمالية والطلابية. من شنغهاي، ضاعف السير فيكتور الاستثمارات وبالضبط من مقر الشركة بجادة بوند، في ميادين العقار، ومصانع مواد البناء والهندسة المدنية، ليفضل، بعد ذاك، المدينة الصينية على بومباي التي كان من المفروض عليه قضاء سواد أيام السنة بها. وسيسترجع، في 1926، مع نهاية ولاية اللورد ريدنج، مقعده في الجمعية التشريعية بدلهي.

حول السير فيكتور ساسون شنغهاي إلى مقر مركزي لأنشطته بعد تدشينه على جادة بوند، في مارس 1930، لبناية فائقة الحداثة من عشر طوابق، سميت "ساسون هاوس" وتقع قرب إدارة الجمارك وبنك هونغ كونغ وشنغهاي. العمارة ضمت، من جهة أخرى، فندق كاثاي المصنف أيامها كأرقى نزل في الشرق الأقصى، مثلما جعل السير فيكتور من "ساسون هاوس" المركز المالي

والتدبيري، عن بعد، لمعامل بومباي، مقررا إعطاء الأولوية للاستثمارات العقارية. لكنه سيهجر المدينة في يوليوز 1931 ، مخلفا استغرابا عاما ، خاصة من طرف المؤمنين باستحالة ابتعاد أحد آل ساسون عن مدينة ذات مكانة محورية في تاريخ وثروة العائلة. سيشرح السير فيكتور لاحقا قرار رحيله، مبررا إياه أساسا بانعدام الأمن بالنسبة للمستثمرين وتصاعد العنصرية.

اشتهر السير فيكتور بكونه هاويا ، عارفا ونبيها ، لجمع المنتجات الفنية الصينية، وخاصة القطع العاجية النادرة، وشغوفا كبيرا بخيول السباق، وقد ذاع صيت إسطبلات ومرابط تربية خيله الأصيلة سواء في إنجلترا والهند (بونا) ، أو في الصين التي وظف بها مبالغ مالية طائلة في القطاع، متجاهلا الانتقادات الموجهة إلى استثماراته هذه. وإذا كان رواد حلبات السباقات متعودين على طلعته، واضعا نظارة لعين واحدة و المنظار حول عنقه، فإن جياده فازت، بعد مرور عشرين سنة، أربع مرات بديربي إبسوم في مدينة ساري جنوب إنجلترا ، معبدة له الطريق للانضمام إلى صفوف الأرستقراطية العاشقة لأحصنة السباق.

عقب اجتياح الجيش الياباني، في شتنبر 1931 ، لأراضي منطقة منشوريا ، صمد السير فيكتور دفاعا عن مصالحه. لقد جابه المحنة رغم آثار الشيخوخة البادية جليا عليه وهو في الخمسين من العمر ، والآلام المستفحلة جراء جراحه في الورك، والحزن الناتج عن فقدان رجينالد (1893 - 1933) ، ابن عمه مير ساسون الذي وافته المنية نتيجة سقوطه من على صهوة جواد ، كما أبلى بلاء حسنا في تعويض الخسائر المتولدة عن تقلبات العملة، سبيله إلى ذلك ارتفاع قيمة ممتلكاته العقارية واستثماراته الناجحة في أكثر من قطاع صناعي وخدماتي. سيشتري سنة 1937 ، إقامات ومكاتب شركة داوود ساسون وأبنائه في شنغهاي وباقي موانئ الصين حتى لا تؤول ملكيتها إلى أحد من خارج العائلة، وأدت نصائحه المستنيرة ومعارفه الواسعة في مجال الاقتصاد والتجارة بالكثيرين إلى تلقيبه بـ "ج. ب. مورغان"، مقارنة بجون بيربونت مورغان (1837 - 1913) إمبراطور الصناعة والبنوك والمواصلات والمحسن للكنيسة الأسقفية البروتستانتية بالولايات المتحدة. كان السير فيكتور يوزع

وقته بين مكاتبه وبيته ذي الطابق الواحد القريب من مسلك لرياضة الغولف وفندق كاثاي، فضاء حفلات استقباله الباذخة التي بصمت العشرية السابقة للحرب العالمية الثانية.

ستعلن اليابان الحرب على الصين، سنة 1937، بينما ستجبر النازية المئات من يهود أوربا الوسطى على الهجرة، ليلجئوا إلى شنغهاي. هناك، سيمد لهم السير فيكتور يد المساعدة، مبادرا إلى تشغيل الكثيرين منهم في مكاتبه بوازع إنساني صرف. ولم يكن، رغم عدم ارتداده عن دينه، مقيما للشعائر ولا ممتثلا للطقوس، كما صرح، حينذاك، أنه لا يرى مانعا في إقامة الصلاة على قبره احتراما لوالديه وأسلافه، مع التأكيد على أنه لا يطمع في أن يوارى جثمانه الثرى بالضرورة في مقبرة يهودية، معبرا، في سياق آخر، عن ارتيابه من الصهيونية كحل للمشكلة اليهودية.

احتدت الحرب الصينية - اليابانية في نواحي شنغهاي وفي المدينة نفسها، وتساقطت القنابل قرب "ساسون هاوس" وفندق كاثاي، إلا أنها لم تعرقل الحركة التجارية، إذ ظل الميناء مفتوحا. تشيانغ كاي شيك، القائد العام للقوات الصينية المتحالفة لمواجهة الغزاة اليابانيين، سيضطر إلى الانسحاب من مثلث شنغهاي، في حين استولى العدو على نانجينغ وارتكب فيها أفظع الأعمال وحشية.

سارع السير فيكتور متجاهلا قناعته الراسخة بانتصار القوات الوطنية الصينية حتميا، إلى جمع المال المتوفر لديه لتهريبه بعيدا عن الأخطار المهددة للصين والهند، وكذا درءا للسيطرة المحتملة لليابان على المنطقة. وتبعا لذلك، وعلاوة على العمليات المالية في الولايات المتحدة وأستراليا، تمكن، بجانب مؤسسات عملاقة أخرى مستقرة في الصين، من تحويل ملايين الدولارات إلى هونغ كونغ. وفي غمرة الاضطرابات تلك، باشر رحلة طويلة في مارس 1938، قادته من هونغ كونغ إلى مكسيكو، باناما، البيرو وبيونس آيرس، ليستكشف هناك إمكانيات توظيف أمواله والاستثمار في الميدان الصناعي. بعدها، راح إلى نيويورك ولأرخبيل الأنتيل ثم الباهاماص، حيث وقف على الامتيازات التي يمنحها هذا الفردوس الضريبي. أما في المدينة

الأمريكية الشمالية، فقد بذل جهدا جبارا لاستعراض الفرص المتاحة من أجل القيام بعمليات مالية واستثمارية تشرع أمامه أبواب نقل رأسماله وممتلكاته من الشرق الأقصى، ومع انشغالاته الجمة، لم يترك المتعة جانبا وشوهد مرارا وتكرارا برفقة نجوم السينما الأمريكية، لدرجة تردد معها احتمال اهتمامه بالاستثمار في هوليود.

لما عاد إلى الصين في 1939، عجز السير فيكتور عن مواصلة تصنع موقف محايد حيال المحتلين اليابانيين الطامعين في تعاون الشركات الأجنبية. لذا، ومع إعلان الحرب في أوربا، اتخذ عدة مبادرات لمساندة المملكة المتحدة، ومن مبادراته، على سبيل المثال لا الحصر، بيع مجوهرات في ملكية العائلة ووهب المبالغ المستخلصة للقوات الجوية البريطانية. وفي مواجهة الاتهامات المتواترة بمعاداة اليابان، كان يجيب، بلا كلل ولا ملل، أنه نصير فقط لآل ساسون وبريطانيا ! تصاعدت الأخطار المحدقة بمسؤولي المؤسسات الأجنبية، بل تعرض بعضهم لهجمات. في هذا المناخ، وتلو إنشائه لشركتين في جزر الباهاماص، إحداهما عاملة في إطار نشاطه لتربية وسباقات الخيول، وتوظيف رؤوس أموال ضخمة في الخارج، انصاع السير فيكتور ساسون لنصائح مستشاريه وشركائه، فاستقل، في ربيع 1941، طائرة في اتجاه سان فرانسيسكو انطلاقا من شنغهاي. بعد الهجوم المباغت للطيران الياباني على بيرل هاربور. في 7 دجنبر 1941، شاء حسن الحظ أن يوجد في بومباي، بعيدا عن شنغهاي التي صادرت فيها قوات الاحتلال الأبناك والمتاجر وشركات الملاحة الأجنبية.

خيم جو من الانهزامية على إحياء عيد الميلاد الستين للسير فيكتور ساسون، يوم 30 دجنبر 1941 ببومباي، وكيف لا، والأخبار الواردة سيئة: احتلال جيوش إمبراطورية الشمس المشرقة لسنغافورة وبورما بتزامن مع مطالبة غاندي بجلاء الجنود البريطانيين من الهند وحينما كان أب الاستقلال الهندي يسخر من السير ستافورد كريبس، عضو الجناح اليساري من الحزب العمالي، الواعد الهنود بالاستقلال بعد نهاية الحرب، مقارنا وعده بـ "شيك مؤخر التأريخ على ذمة إمبراطورية مفلسة"، بدا السير فيكتور ساسون منشغلا

بسيادة المشاعر المعادية لبريطانيا في الهند، منتقدا بشدة الحكومة القائمة، ولم يفته أيضا التفكير في مستقبل شركاته في بومباي. بالرغم من الوضع السياسي المرتبك، دارت رحى الإنتاج بالفروع الأربع عشر لشركة إ. د. ساسون وشركائه بدون هوادة، مضاعفة إنتاجها أربع مرات. ونظرا للحصار المفروض على النقل البحري في البحر الأبيض المتوسط، أضحت السلع الموجهة إلى أوربا تمر عبر ميناء دوربان بإفريقيا الجنوبية الذي أصبح أهم مخزن للشركة، وتبعا لذلك، استقر السير فيكتور في بومباي، بفندق تاج محل، جاعلا من المدينة الهندية منطلق رحلاته المضنية والمتكررة إلى إفريقيا الجنوبية، وإلى المملكة المتحدة والولايات المتحدة. لن يحول تحقيق معامله الهندية للنسيج لذروة مردوديتها دون تقريره بيعها، في نهاية 1943، ذلك أنه فقد الثقة في مستقبلها بعد انتهاء الحرب العالمية، وهي الصفقة التي أبرمها مع تجار ماروارين محنكين في مجال الوساطة. هكذا إذن، ونيران الحرب تخمد، ابتغى السير فيكتور ساسون، في الخامسة والستين من العمر، إنهاء منفاه الطويل، واستقلال الهند يلوح في الأفق.

وضع ممتلكات آل ساسون العقارية في شنغهاي 1946 الراضخة للاحتلال الياباني كارثي. الاستثمارات منكمشة إلى غاية نهاية 1948. لا زبون لاقتناء العقارات الواقعة في جادة بوند، في نواحي طريق نانجينغ أومنطقة النفوذ الفرنسي. القوات الشيوعية تتقدم وهزيمة تشيانغ كاي شيك مرتقبة. الأوضاع المنذرة باستحالة إنقاذ ما يمكن إنقاذه، خاصة مع التضخم المستفحل، تولد الذعر. كل هذه المعطيات تراكمت لتجبر السير فيكتور ساسون، مكتئبا، على مغادرة فضاء شيد، بمثابرة وصبر، في جغرافيته إحدى أغنى الإمبراطوريات العقارية في عالم ذلك الزمان، لتتم تصفية فرع بومباي للشركة إراديا مع متم 1948، وتسقط شنغهاي تحت سيطرة القوات الشيوعية في أبريل 1949. كان السير فيكتور، المراهن على القارة الأمريكية بعد عزمه الاستقرار في ناساو بجزر الباهاماص، موجودا عند محاميه في نيويورك لما وصله نبأ سقوط شنغهاي. أغمض عينيه، علت محياه ابتسامة خفيفة ثم قال ملاحظا: "حسنا، ها نحن بلغنا النهاية. لقد تخليت عن الهند، وها هي الصين تهملني".

سيعلن ماو زيدونغ في فاتح أكتوبر 1949، قيام جمهورية الصين الشعبية، لتندلع شرارة ركام من المشاكل بالنسبة لمساعدي وشركاء السير فيكتور الذين بقوا في شنغهاي لتصفية آخر الممتلكات والتفاوض حول الضرائب وتعويضات العمال الصينيين. بهذه النيران سيكتوي، مثلا، لوسيان أوفاديا، ابن خالة السير والإسباني الجنسية، الذي تلقى تكوينه في فرنسا واشتغل لصالح آل ساسون في مانشستر سنة 1921، ثم تحمل، منذ مطلع الثلاثينيات، وظيفة المستشار الأول للشركة في الشرق الأقصى، مكلفا خصوصا بالأقسام المالية. لقد طرده الصينيون في 1952، مع اختتام سلسلة مفاوضات منهكة، فقدم استقالته من الشركة في بحر السنة تلك واستقر في فرنسا ليسهر على حساباته الشخصية لدى المصرف، غير راغب في الذهاب إلى ناساو للالتحاق بالسير فيكتور الذي صارت شركته الجديدة، بنك أ. د. ساسون وشركاؤه، تدير أعمالا مهمة في حقلي التأمين والعقار انطلاقا من لندن وجزر الباهاماص.

في سنته السبعين، سيشرع السير فيكتور، المستعمل أكثر فأكثر لكرسي متحرك، في تخصيص الجزء الأوفر من وقته لتوسيع مرابط خيوله، محققا بذلك حلما طالما راوده، حلم تربية أجود الأحصنة الأصيلة. المشروع كان يستلزم إمكانيات مادية هائلة بقدرة الجوائز المترتبة عن سباقات الخيل المساهمة في توفيرها. هنا يكمن بالضبط سر اهتمام السير فيكتور بديربي إبسوم، أشهر سباق سنوي في انجلترا تتواجه في مضماره أسرع الجياد وأجود الفرسان تحت يافطة مالكي الخيل. أصبح السير فيكتور ملما بخبايا تربية الخيل، خبيرا في مجال سلالاتها الحائزة على انتصارات مذهلة، ومقتنيا مداوما لها من الأسواق السنوية المخصصة لبيع وشراء الأمهار الأصيلة، هو الذي فاز أحد أحصنته لأول مرة بديربي إبسوم في سنة 1953 .

شغل السير فيكتور لديه إيفلين بارنز، الممرضة الوفية المنحدرة من دالاس بالتكساس، لمساعدته على تجاوز متاعبه الصحية. السيدة ذات الثلاثين سنة برهنت عن صبرها واهتمامها الودود به، كما ارتقت معارفها تدريجيا إلى درجة بلوغ نفس إلمام مشغلها بتعقيدات انتقاء الخيول الأصيلة، وأضحت تنتظر مثله على أحر من الجمر موعد السفر السنوي إلى إنجلترا. في 1957، سيحصد

السير جائزة الديربي ثانية، لكنه سيصاب بأزمة قلبية بعدها ويعالج في باريس، قبل الرجوع إلى لندن للمكوث فيها. في عاصمة الضباب، سيمنعه الأطباء من ارتياد حلبات السباق، غير أنه سيواصل الإشراف على تزاوج خيله وشراء أخرى لمرابطه. انضافت إصابة السير فيكتور القلبية إلى صعوبات تنقله، وتوطدت علاقات المحبة بينه وبين إيفلين بارنز، الساهرة بصرامة على احترامه للوصفات الطبية. الإقامة في سنة 1958 بإنجلترا لم تخل من المكابدة، بيد أن العودة إلى ناساو بعثت مجددا لدى السير فيكتور متعتي السباحة وتعريض الجسم لأشعة الشمس، مع استئناف أنشطته المهنية، فتابع استثماراته المربحة في ميداني العقار وبناء المركبات السكنية الفاخرة، دون التخلي عن استضافة العديد من الشخصيات ومن بينهم فرسان أمهاره الشهيرين.

صار السير فيكتور في أواخر الخمسينات وافر الغنى والثراء، لكن دون تفاخر ولا تعاظم، وفر سابقا لوالدته، المتوفاة في 1955، نمط عيش موسر، وعينه ساهرة بحرص على رفاهية أختيه وبنات عمومته. مساعدته لكثير من اللاجئين، اليهود وغير اليهود، الفارين من الصين وألمانيا للاستقرار في الولايات المتحدة وأمريكا اللاتينية، وذلك انطلاقا من رغبة سمتها الكرم. دعمه للمستشفيات والمنظمات الإنسانية لا ينضب. في ظل هذه الظروف المحيطة، قرر السير فيكتور، وهو في الثامنة والسبعين من العمر، الزواج بإيفلين بارنز. خلفية هذا القرار ليست خفية وتميط اللثام عن إرادته جعل زوجته، البالغة ثمانية وثلاثين عاما، وريثة لمجموع ثروته ومؤتمنة على مواصلة أعماله الخيرية بعد أن صارت ملمة بكل تفاصيلها. بعد شهر عسل وجيز في ميامي، ذهب الزوجان إلى إبسوم، ثم ريفييرا وأخيرا نيوماركت بإنجلترا لحضور بيع جياد أصيلة. في مارس 1960، سيحوز السير ملكية مربط إضافي، موسعا بذلك دائرة مرابطه المحتوية على بعض أجمل الخيول الأصيلة عبر العالم: ثمانون أنثى ولودة وحوالي ستين مهرا في طور التدريب. في بحر السنة ذاتها، سيفوز بالديربي، محققا رابع انتصار له في السباق المرموق، ومتمنيا الظفر بمسابقة خامسة لتحطيم الرقم القياسي

لصديقه الأغا خان. وطوال تلك الفترة، انهالت عليه نصائح أطبائه الموصية بالابتعاد عن الإثارة التي يحدثها سباق إبسوم.

بعدها، عقد السير فيكتور وليدي ساسون العزم على طواف العالم في أربعة أشهر، لكن نوبة قلبية ثانية، أخطر من الأولى، أوقفت الرحلة في محطتها الأولى، سان فرانسيسكو، خلال شهر يناير 1961. نجا السير فيكتور مرة أخرى من الموت بفضل نقله سريعا إلى المستشفى من طرف زوجته. بعد علاج دام ستة أسابيع، سافر الزوجان إلى دالاس جوا، وهناك ابتهج السير حين بلغته نتائج استفتاء للجمهور البريطاني وضع أحد خيوله على رأس المرشحين للفوز بالديربي. في منتصف ماي 1961، سيعود السير فيكتور إلى ناساو، لكن تفاؤله وبشاشته لن يحجبا عن زوجته، ومعها طبيب القلب المعالج له في دالاس، خطورة حالته الصحية، وبالفعل، سيقضي نحبه في 17 غشت 1961 دون أن يفقد وعيه ولا واقعيته، هو الذي نظم حفل عشاء ساهر على شرف حاكم جزر الباهاماص أسبوعا فقط قبل انتقاله إلى جوار ربه.

سيغفريد ساسون

سيغفريد ساسون (1886 - 1967) هو ابن حفيد داوود ساسون، السلف المؤسس لفرع العائلة، وحفيد ديفيد ساسون دو أشلي بارك (1832 - 1867) الذي هو أول أخ غير شقيق للسير ألبير ساسون. كجندي، حارب سيغفريد ببسالة خلال الحرب العالمية الأولى، أصيب بجراح ووشح بوسام نظرا لشجاعته، لكنه اتخذ موقفا منددا بمواصلة المواجهات. هذا الموقف جعل وينستون تشرشل، وزير الإمدادات العسكرية، يوجه إليه توبيخا شديد اللهجة، علما أنه كان معجبا بأشعاره ويحفظ جلها عن ظهر قلب.

بعد نهاية الحرب، استمر عطاء العقيد سيغفريد ساسون في مجال الأدب، ممارسا الكتابة الصحفية أيضا، وفي ربيع 1920، سافر إلى الولايات المتحدة الأمريكية، وفيها تم منحه صفة "الوزير الأول للشعراء الإنجليز الأحياء". الإقامة في ما وراء المحيط الأطلسي دامت سنة، ومثلت نجاحا باهرا بالنسبة لسيغفريد، الأقل ثروة ضمن أبناء عمومته، الذي فضل الشعر والأدب على

السياسة (فيليب) والأعمال (فيكتور). متطلبات عيشه كانت بسيطة، ونمط حياته متواضعا، وقد وظف الجزء الذي ناله من إرث عمته، المتوفاة عام 1927، لتحسين ظروفه المعيشية والسفر، خاصة إلى بيروت. النقد اللاذع للفوارق الاجتماعية حاضر بقوة في أشعاره الساخرة، ومع مطلع الثلاثينيات، حاز شهرة كبيرة بعد عشرة سنوات تقريبا من الكتابة في شبه الظل. وعقب نشر كتابيه النثريين : "مذكرات ضابط مشاة" و"مذكرات صياد ثعالب"، ذاع صيته أكثر، أما في مجموعته الشعرية "الطريق إلى الخراب"، الصادرة سنة 1933، فتنبأ بنشوب حرب عالمية أوسع تدميرا من السالفة.

لبى سيغفريد ساسون الدعوة التي وجهها إليه ابن عمه السير فيليب، راغبا في التعرف عن قرب على رجل يحبه البعض بقدر ما يكرهه الآخرون، فتأثر بالحزن المخيم على أيام هذا الأخير وكآبتها المحجوبة خلف أقنعة بريق وإثارة الحياة الاجتماعية. وبالمقابل، لم يجد بدا من احترام إنسان يصرف أموالا طائلة لمساعدة الفقراء في عز تلك الحقبة الصعبة.

سيتزوج سيغفريد في دجنبر 1933 من هيستر غاتي، المنتمية لعائلة تشمل قانونيين بارزين ضمن أفرادها، التي ستخلف له ابنا، جورج، في 1936. إبانها، امتزجت فرحة الوالد بقلق الشاعر في رحم عالم على حافة اندلاع كارثة كونية، فازداد اكتئابا واستغراقا في التأمل. وإذا كان زواجه قد انتهى إلى فراق ودي، فإن أبيات شعره الموجهة إلى ابنه زخرت بحنو لم يسبق له مثيل في كتاباته.

سيعتنق سيغفريد ساسون الكاثوليكية سنة 1957، ويؤلف أشعارا ملؤها النسك ستنشر ضمن طبعات محدودة النسخ. إيمانه سيهبه الطمأنينة من دون أن يؤدي به إلى الاعتكاف، هكذا، وهو في سنته الواحدة والثمانين، أي قبيل وفاته في شتنبر 1967، لن يفقد الشاعر قوامه الفارع والرياضي إلى حد ما، ممارسا لعبة الكركت بين الفينة والأخرى. وفي مكتبته بهيتسبوري هاوس، يشعر المرء بالمسافة الفاصلة بين رفوف الكتب والسفن الشراعية السريعة القاصدة شنغهاي محملة بالأفيون، أو معامل النسيج المرتجة مصدر ثروة آل ساسون في بومباي. ومع ذلك، لم يكن الشاعر يتردد في عرض صور الجد الأول، داوود ساسون، على أنظار الزوار، موضحا أنه أهم شخصية في العائلة.

لعل هذا الحكم لا يخلو من قسوة إزاء باقي السلالة، لكن إصداره كانت هي الطريقة التي اختارها الشاعر لإبراز مدى مثالية وإنسانية سلفه.

مع وفاة السير فيكتور ساسون، غاب آخر بارونيت وانتهى تدبير الأسرة مباشرة لشركاتها بواسطة أبنائها الذكور. الليدي ساسون، وريثته، تمسكت بقضاء عدة شهور في ناساو، وبقية السنة في دالاس وأوربا، مسافرة بين الفينة والأخرى إلى أمريكا الجنوبية والهند لمتابعة مصالحها الاقتصادية وأنشطتها الإحسانية. كما واصلت، على مستوى آخر، الاعتناء بمرابط وإسطبلات خيول السباق في إنجلترا وأستراليا، وبالمقابل، لم تفلح في تحطيم رقم الأغا خان القياسي في ديربي إبسوم رغم بعض النجاحات المحدودة لجيادها في أسكوت. وتكريما لذكرى زوجها، أنشأت وسهرت على تسيير مؤسسة السير فيكتور ساسون للقلب، وفي هذا الإطار، رعت علاج الشبان المرضى في مصحة للأمراض القلبية بناساو بتنسيق وطيد مع مستشفى الأطفال بميامي.

وإذا ما استثنينا أوساطا معدودة على رؤوس الأصابع يشدها الحنين إلى الماضي، فإن اسم السير فيليب ساسون صار، في نهاية الستينيات أو بداية السبعينيات، معروفا أقل بكثير من اسم فيدال ساسون، مجمل الوجوه والحلاق العامل في بفيرلي هيلز قرب لوس أنجلس، علما أن هذا الأخير لم يدع قط الانتماء للسلالة البغدادية. وبالفعل، فوالده ازداد في تركيا التي لجأ إليها العديد من اليهود السفارديم بعد قيام محاكم التفتيش في إسبانيا.

شاءت الصدف المثيرة للاستغراب ألا يبقى على قيد الحياة من أفراد السلالة، بعد وفاة السير فيكتور ساسون، غير معتنق للكاثوليكية، سيغفريد ساسون، وحاخام، سولومون ساسون، حفيد فلورا ساسون القاطن في حديقة مدينة ليتشوورث (مقاطعة هيرتفوردشاير) قرب لندن، ولا واحد من الاثنين معا كان باستطاعته التماهي مع السلطة المالية الواسعة لأسلافه، ولا مع أعمالهم الاجتماعية. وبينما تخصص جورج، ابن سيغفريد، في البحث العلمي في حقل الهندسة الإلكترونية، ابتغى سولومون، الرجل المؤمن والعالم المخلص لبني ديانته العائدين من بومباي وكالكوتا إلى إنجلترا، لابنيه العمل في الحقل الديني.

* * *

على غرار فيدال ساسون، لا أزعم أن عائلتنا المغربية ذات علاقة قرابة مع السلالة البغدادية الأصل، وبالمقابل، يمكنني تأكيد شيوع اسمنا العائلي في الشرق الأوسط، من العراق إلى مصر والشرق الأدنى. وقد سبق لي التحقق من انعدام أية عائلة تحمله في الجزائر، ومن ندرته في تونس وكونه من أصل ليبي أو مصري.

وحسب عمي، مثلما روى لي ذلك والدي، فجذور عائلتنا تعود إلى تافيلالت، حوض المنطقة الشبه صحراوية للمغرب التي تشرف عليها سلسلة الأطلس الصغير غربا والأطلس الكبير شمالا. وأتذكر أنه خلال زياراتي لفاس، أيام الطفولة، كان والد جدتي من أمي يوبخني قائلا: "تعالى إلى هنا أيها الفيلالي". لقد كان يعرف، بكل تأكيد، الأصول الجغرافية لعائلة أبي.

أثناء نقاش مع الملك الحسن الثاني في شتنبر 1994، في قصره الصيفي بالصخيرات (على بعد عشرين كيلومترا من الرباط)، وأنا أسلمه رسالة من فيديريكو مايور، المدير العام لمنظمة اليونسكو، وأحيطه علما، في ذات المناسبة وأنا برفقة سيرج بيردوغو، وزير السياحة حينها والكاتب العام لمجلس الطوائف اليهودية بالمغرب، بزواج ابنتي مع ابن هذا الأخير (في أكتوبر 1994). أشار العاهل إلى تافيلالت، مهد الأسرة العلوية. حينها، قصصت عليه الحكاية المستقاة من صباي والكاشفة لجذوري، فأنعم علي، هو الذي كان يعرف عائلتي ويتذكر جيدا عمتي العاملة طويلا لدى جدته في قصر فاس، بتصريح ورد فيه: "ساسون، إنك من العائلة". يمكننا إذن احتمال قدوم أسلافي من الشرق الأوسط إلى هذه الجهة شبه الصحراوية من المغرب، واستقرارهم فيها قبل الهجرة إلى مراكش، فاس وأخيرا الرباط، مع التأكيد على أن ترحالهم، ابتداء من القرن التاسع عشر، ظل مرتبطا بتنقلات سلاطين الأسرة العلوية المالكة.

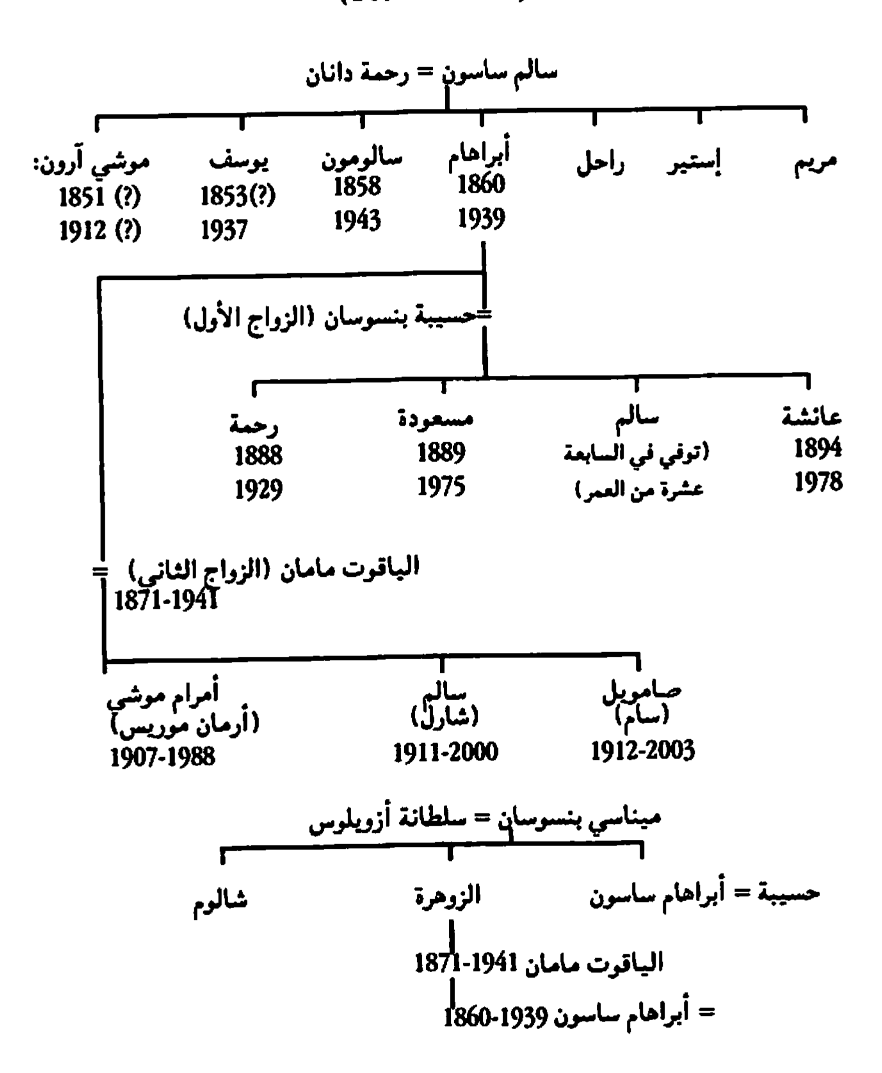
لماذا كل هذا الفصل الطويل الخاص بآل ساسون الشرق والغرب؟ ثمة، بصرف النظر عن القرب المتولد عن تطابق الاسم العائلي، الشعور برمزية مسار

هذه الأسرة، مما دفعني إلى تقديم ملخص له في هذه المحكيات. وفى نفس الوقت، استنبطت، من تاريخ آل ساسون هؤلاء، بعض نقط الشبه القائمة تقريبا، رغم وجود الفارق، مع مسارات بعض أفراد عائلتنا، والتي سيحكم القارئ على مدى تطابقها مع الواقع من خلال الفصول التالية.

الفصل الأول

الحسن الأول يوظف أبراهام ساسون في خدمته

(1894 - 1877)



انتقل السلطان محمد الرابع إلى جوار ربه بمدينة مراكش سنة 1873، لتتم بيعة ابنه مولاي الحسن سلطانا على المغرب من طرف أقوى أعضاء المخزن تأثيرا. فرضت الأوضاع على المولى الحسن (الحسن الأول)، الذي حكم البلاد من 1873 إلى 1894، مواصلة إنجازات أبيه، أي الدفاع عن الوحدة الترابية للوطن ضد أطماع القوى الأوربية، المحافظة على النظام العام والقيام بإصلاحات عميقة للمجتمع المغربي. كانت المهمة صعبة المنال، وثمة عائق جعل تحقيقها أكثر صعوبة هو ضعف المغرب المتجلي في هزيمة جيشه، أولا، في 14 غشت 1844 أمام عساكر الجنرال بيجو في إسلي، قرب الحدود مع الجزائر، وذلك خلال عهد المولى عبد الرحمان، ثم ثانيا، في 23 مارس 1860، أمام الإسبانيين في وادي الراس، قرب تطوان. إثرها، وجد المخزن نفسه مجبرا على أداء غرامة مرتفعة القيمة لإسبانيا، مما سيثقل كاهل خزينة الدولة.

وعلى مستوى آخر، وبحثا عن صيانة استقلال بلاده، جنح العاهل نحو تشكيل جيش عصري. لذا، ومحافظة على التوازن بين القوى العظمى، توجه إلى بريطانيا قصد عصرنة المشاة، ثم إلى فرنسا لتحديث سلاح المدفعية، بالإضافة إلى تكوين ضباط شبان في بلجيكا وألمانيا. هكذا، وبفضل هيئة المهندسين الموروثة عن والده كذلك، تمكن الحسن الأول من التوفر، ابتداء من 1880، على جيش قادر على الحفاظ على النظام داخليا، وعلى مساعدته لتدعيم مواقع المملكة في الشمال، الشمال الشرقي والجنوب. وفي سياق هذا المسعى الأخير أيضا، قام بالسفر إلى وجدة (1867)، سوس (1882 و1886) وتافيلالت (1893).

بذل الحسن الأول قصارى جهده لتحديث الإدارة، وذلك عن طريق إرسال بعثات إلى الشرق الإسلامي وأوربا بين 1874 و 1888، وقد تسلح، وهو يسلك هذا المسلك، بالحيطة والحذر تفاديا لإثارة غضب رجال المخزن المتشبثين بالمحافظة على نهج تدبير أمورهم، أو العلماء الساهرين على التقاليد الدينية. وبعد إنشاء معمل للسلاح (مكينة) في فاس، عين السلطان للعمل به بعض التقنيين العشرين الذين خضعوا للتكوين في تورينو، بينما ألحقت بقيتهم بأوراش تحصين مينائي العرائش والرباط.

أما الإصلاح الضريبي، فاعترضت تطبيقه عقبات جمة، بسبب المصاريف المتزايدة للمخزن، وخاصة جراء تعويض الحرب المدفوع لإسبانيا، وشح المداخيل. وإذا كان تشجيع التجارة الخارجية، كمصدر للمداخيل الجمركية، يستجيب بكل تأكيد لضغوطات القوى الأجنبية، فإنه لم يخدم مصالح التجار المحليين المكتوين بنيران المنافسة. وابتداء من سنة 1856، عقب الاتفاق الإنجليزي- المغربي حول التجارة والملاحة، ارتفع عدد التجار الأوربيين في المغرب بشكل كبير، ومعه حجم مساعديهم اليهود والمسلمين غير الخاضعين للترسانة الجبائية المخزنية نظرا لاستفادتهم من الحماية القنصلية الأجنبية، وكان هؤلاء يحملون لقب السماسرة. وقد تمثل الهدف الأساس لمؤتمر مدريد الدولي لسنة 1880، الذي ضم 13 دولة، في حل الإشكالية المستعصية المتعلقة بمنح الحماية القنصلية لرعايا مغاربة من طرف قوى خارجية. وبينما اعتبر الحسن الأول تسوية هذه المشكلة شرطا أوليا لانفتاح بلاده على التجارة الخارجية، فإن مؤتمر مدريد لم يستجب إطلاقا لرغبات السلطان، رغم ما تلاه من تراجع نسبة المتمتعين بهذا الامتياز القنصلي مقارنة مع الفترة السابقة لسنة 1880.

وفي المجال النقدي، أقدم الحسن الأول، في 1881، على سك عملة جديدة في باريس، الريال الحسني الذي كان يساوي خمسة فرنكات فرنسية، لكن التضخم المالي المستفحل قبل إصدار العملة الجديدة لم يتراجع البتة، وذلك نظرا لعدم سحب النقود التي تعرضت قيمتها للتخفيض من التداول. وإجمالا، ورغم الصعوبات المالية المستمرة، استطاع الحسن الأول دفع ديون الدولة، ووقف في وجه ممثلي القوى الأوربية (القناصل) ومحمييهم، وقاوم مطالبهم المتجسدة في مزيد من الامتيازات الضريبية ومن التسهيلات لمبادلاتهم التجارية. ورغم علم السلطان المسبق بمدى ما ستواجهه إصلاحاته من جيوب المقاومة داخليا، فقد سعى إلى تطبيقها بمنهجية وصبر، إذ لم تكن البيعة تسمح له قط بتقمص دور المستبد المستنير، وسبق لدروموند هاي، سفير بريطانيا الذي عمر نصف قرن من الزمن في المغرب، والمدافع المتحمس عن الإصلاحات والانفتاح، أن نصح محمد الرابع بأن يحذو حذو بطرس الأول، إمبراطور روسيا (بطرس الأكبر، 1672/ 1725).

مشاعر الحسن الأول إزاء رعاياه اليهود، كان ملؤها العطف والحرص على مصيرهم، مثلما كان الأمر عليه مع العديد من أسلافه من الأسرة العلوية، وخاصة والده. في سنة 1863، استجاب محمد الرابع (1859/ 1873) لمسعى المحسن الإنجليزي، السير موسيس (موسى) مونتفيور، الذي كان يقوم بحملة دولية قصد تحسين أوضاع أبناء ديانته عبر العالم، فأصدر ظهيرا ملزما بالتعامل المنصف والعادل مع رعاياه اليهود، معلنا مساواتهم مع الرعايا الآخرين أمام القانون وحاثا نوابه على الأقاليم على معاملتهم معاملة حسنة وفق الشرع والعادة. قام اليهود المغاربة باستنساخ آلاف النسخ من الظهير ووزعوه على كل معتنقي ديانتهم في أوربا، ورغم جدل بعض الفقهاء المتزمتين، فقد أثر هذا النص في موقف السلطات حيال اليهود، بل إن شكاياتهم غدت تجد آذانا صاغية في حالة حدوث تجاوزات. وحوالي عام 1883، في رسالة بمناسبة حلول القرن الهجري الرابع عشر، حظر الحسن الأول تعرض اليهود للشطط، معتبرا أنهم تحت حمايته وحماية الإسلام، داعيا إلى احترامهم واحترام أرواحهم وأرزاقهم. وفي الواقع، وحسب عدة روايات، فإن السلطان المولى الحسن كان يتدخل شخصيا حين حصول خلافات بين رعاياه اليهود والمسلمين، ويبدي حلما خاصا إزاء الأوائل وهو يبث في قضايا من هذا القبيل.

مثله مثل أسلافه، كان الحسن الأول يتوفر على خدام يهود يعملون داخل القصر نفسه. هكذا، خلف والد جدي، سالم ساسون، أباه كخياط تقليدي في قصر فاس، متوليا كذلك مهمة حياكة ملابس الوزراء وأعيان المدينة. كان لسالم شريكان هما يهودا أزويلوس وشالوم بنسوسان، وهذا الأخير ليس سوى ابن ميناسه بنسوسان وسلطانة أزويلوس. وبعد وفاة سالم ساسون، تساءل السلطان إن كان للمتوفى أبناء من بينهم واحد أهل ليحل محله في الخدمة بالبلاط، ليعلم أن سالم خلف ثلاثة أولاد، أولهم حبر وثانيهم موثق،أما ثالثهم، فلم يكن يتجاوز سبعة عشر ربيعا من العمر بعد، وهو لا يزال يتعلم فنون الخياطة ولايتقن الحرفة تماما. سلطانة أزويلوس، والدة شالوم بنسوسان وأخت يهودا أزويلوس، التي كانت ترتب لزواج ابنتها حسيبة مع الخياط المتمرن

أبراهام، لم تتقبل أن يفلت المنصب من هذا الأخير، لذا توجهت ذات جمعة، يوم الصلاة، لتقديم ملتمسها للسلطان. لم تعترض المرأة أدنى مشكلة لولوج البلاط والمثول بين يدي الحسن الأول، هي التي كانت تقدم خدمات لزوجاته. أكدت للسلطان أن أبراهام خياط كفء ومتقن لمهنته، ليكلل مسعاها بالنجاح، إذ لم يكد يمر يومان اثنان على اللقاء حتى استدعى العاهل الشريكين، يهودا أزويلوس وشالوم بنسوسان، ليأمرهما بتوظيف أبراهام ساسون في المنصب الشاغر عقب وفاة أبيه، بعد اختباره بالطبع.

إثرها، كلف الخياط الشاب بإنجاز مظلة كبيرة لوقاية الملك من حرارة الشمس حين ذهابه إلى المسجد، أو إبان مثول أعضاء الحكومة وأعيان المدينة بين يديه خلال مراسيم تقديم التهاني بمناسبة الأعياد. نالت المظلة الموشاة إعجاب السلطان فأصدر أوامره للخياطين الشريكين بدفع ثلث الأرباح التي جنوها منذ وفاة سالم لأبراهام ساسون. تلك كانت بداية مأمورية أبراهام في خدمة الحسن الأول، خدمة دامت سبع عشرة سنة على قدم المساواة مع يهودا أزويلوس وشالوم بنسوسان. وعقد أبراهام قرانه على حسيبة بنسوسان وفق ما خططت له سلطانة أزويلوس، وعاش في فاس إلى حدود نهاية سنة 1912، في منزل يعود تاريخ اقتنائه ربما إلى 1877. وكان يتوفر على مخيط في هذا البيت، وكذلك على محل خياطة آخر داخل القصر. يقع المنزل هذا في ملاح فاس (فاس البالي)، ويحمل رقم 248 بالدرب الفوقي الموازي لشارع الملاح الرئيسي والمرتبط به عبر مجموعة من الأزقة الموجهة نحو باب الملاح وباب زيات. كان البيت فسيحا وعلى مستوى واحد، به ساحة وسطى تحيط بها أربع غرف، بالإضافة إلى غرفتين صغيرتين بالطابق الأول مخصصتين لإقامة أخوات أبراهام، وقد ظل في ملكية العائلة إلى حدود 1934، سنة بيعه لإلياهو إسرائيل، والد ابنة أخت حاييم بوطبول (صهر أبراهام ساسون).

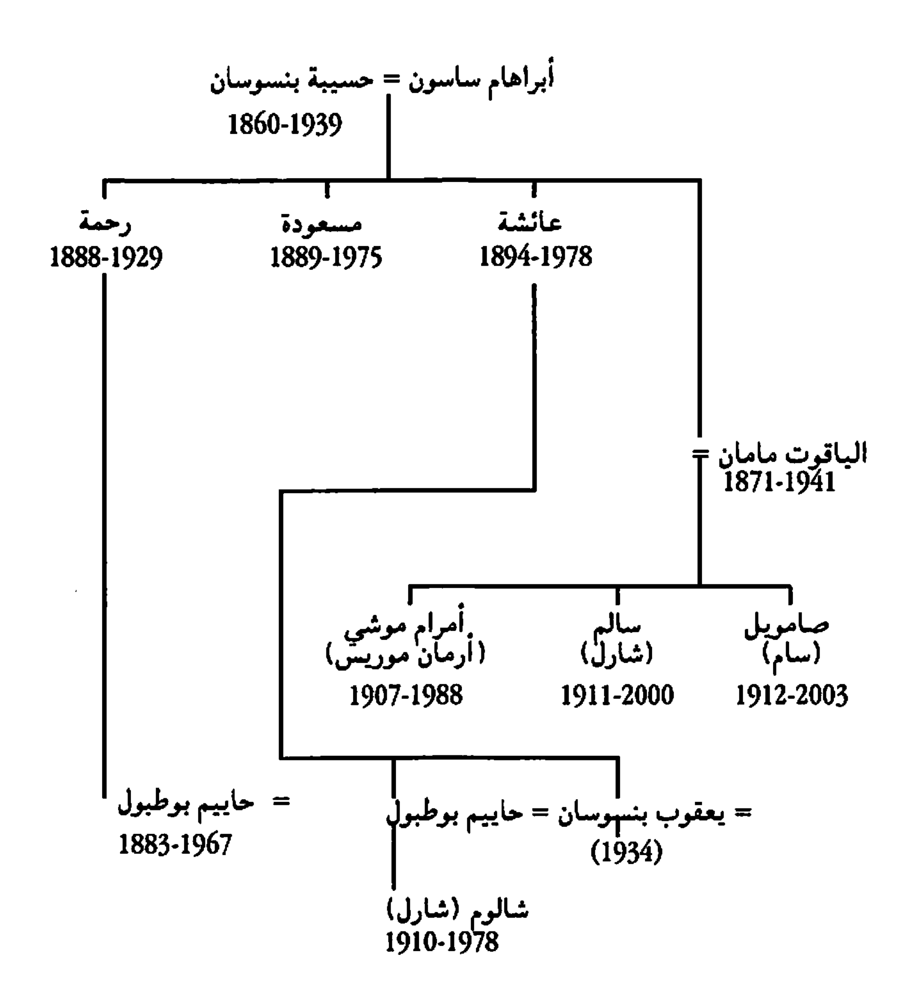
رزق أبراهام وحسيبة بثلاث بنات: رحمة، مسعودة وعائشة، وبابن واحد، سالم، لكنه توفي وعمره 17 سنة جراء إصابته بالتهاب في القصبات والرئة. وباستثناء يوم السبت المقدس (شبات)، كان الزوجان يذهبان يوميا إلى القصر، حيث تقوم المرأة بخدمة زوجات وحريم السلطان، وينهمك الرجل في

أشغال الخياطة على أن يواصلها بمشغله في البيت.

ملبس الأمراء يندرج أيضا ضمن مأمورية أبراهام، ومن ضمنهم المولى عبد العزيز، الابن المفضل للحسن الأول. وذات يوم، أمره السلطان بخياطة زي أبهة كامل للأمير، مماثل للذي يضعه هو نفسه بمناسبة صلاة الجمعة. أذهل الطلب أبراهام، لكنه لم يستطع مناقشة الموضوع مع السلطان، فلجأ للصدر الأعظم في الغد معبرا له عن تخوفه من أن تكون هذه المبادرة فأل شؤم. فكان الجواب هو الامتثال للرغبة السلطانية بصرامة، فأنجز الخياط لباس الأمير الشاب، ليضعه هذا الأخير يوم الجمعة، وهو يتوجه إلى المسجد رفقة والده، ممتطيا صهوة جواد مسرج بإتقان، شبيه بجواد الأب، تحت ظلال المظلات المستعملة في مثل هذه المناسبات. أجل، لم يكن من تقاليد المملكة إقدام عاهل البلاد، وهو على قيد الحياة، على إجراء يمكن أن يُؤول كإشارة لانتقال الحكم. وشهوراً بعد ذلك، سيقضي الحسن الأول نحبه، ليخلفه على العرش مولاي عبد العزيز، الذي ليس ابنه البكر، والذي سيظل تحت وصاية باحماد، حاجب والده القوي، طيلة ست سنوات (1894-1900)، مدة سيواصل أثناءها الحاجب سياسة العاهل الراحل.

الفصل الثاني
من مولاي عبد العزيز إلى مولاي يوسف

(1894 - 1877)



سيحكم مولاي عبد العزيز فعليا البلاد من 1900 إلى 1908، قبل اللجوء للإقامة بطنجة في بحر هذه السنة الأخيرة، لما خلفه أخوه غير الشقيق مولاي حفيظ على العرش. وطوال حقبة وصاية با حماد التي دامت ستة أعوام، بقي الأمير الشاب يتمتع بملذات قصره الجديد في مراكش، محاطا بخدمه وحاشيته، وكذا بزوجاته وحريمه. وبعد تبوئه دفة الحكم، كان يوصف، عموما، بكونه عديم التجربة، له مستشارون وجلساء دون المستوى، وبأنه مسرف يحب الأشياء المستحدثة ومغرم بالابتكارات التقنية الغربية (آلات التصوير، علب الموسيقى، الدراجات الهوائية والسيارات). في فبراير 2002، صرحت ابنته، الأميرة لالة فاطمة الزهراء، المزدادة عام 1927 والتي كانت تعيش في طنجة، لصحفية بيومية "لوموند" الفرنسية أن مولاي عبد العزيز كان يعلم نفسه مطوقا بثقة والده الكاملة الذي ظل ينصحه باستمرار منذ نعومة أظافره: "كن يقظا. لقد استطاع المغرب، المعرض لشتى الأطماع، المقاومة دائما، حتى في وجه العثمانيين. من واجبك الحفاظ عليه مستقلا".

هيمن ما سمي بالأزمة أو المسألة المغربية على حكم هذا العاهل، أي كيفية إصلاح شؤون البلاد الداخلية مع الصمود، في نفس الآن، أمام الضغط المتزايد لدول أوربا الكبرى، المستعدة لاحتلال أجزاء واسعة من التراب الوطني في أفق بسط حمايتها على البلد برمته (وهو ما حصل في 1912، مع توقيع المولى حفيظ على معاهدة الحماية الفرنسية على المغرب).

كانت المسألة المغربية تجسد، من جهة أخرى، ميزان القوى بين الأقطاب الأوربية. وبعد "الحلف الودي" المعلن من قبل إدوارد السابع، خليفة الملكة فيكتوريا، والمرسخ للتقارب بين فرنسا وإنجلترا، اتفقت الدولتان الاستعماريتان، في سنة 1904، على إفساح المجال للندن كي تتحرك بحرية في مصر، مع ترك باريس ومدريد توزعان مناطق نفوذهما بينهما ووفق أهوائهما. هكذا، تميزت سياسة العاصمتين إزاء المغرب بالتنسيق الثنائي، وذلك على حساب ألمانيا التي كانت تزعم الدفاع عن استقلال المغرب ووحدة ترابه، مؤكدة أنه ليس ممكنا مباشرة الإصلاحات في المملكة بدون مشاركة المغاربة. وفي هذا السياق، طرحت فكرة عقد مؤتمر دولي للتداول حول الأزمة

المغربية. ورغم ضغوط الحكومة الفرنسية المدفوعة من قبل اللوبي الاستعماري و"لجنة المغرب"، والمدعومة باحتلال الجيش الفرنسي لبركنت وفيكيك في المغرب الشرقي، رغم هذه الضغوط رد مولاي عبد العزيز والمخزن، في 27 ماي 1905، أنه يجب أن تشارك الدول الـ 12 المساهمة في مؤتمر مدريد لسنة 1880 في إعداد الإصلاحات والشروع في تطبيقها. ومن جهته، كان الإمبراطور الألماني غيوم الثاني قد دعا في وقت سابق (31 مارس 1905)، أثناء توقفه في طنجة، بمناسبة تجوله في البحر المتوسط، إلى عقد مؤتمر دولي بهذه المدينة. ومع أن فرنسا وإنجلترا وإسبانيا تحفظت على هذا الاقتراح، فقد قبلت في نهاية الأمر مبدأ المؤتمر، لكن مع التئامه في الخزيرات، على الضفة الأخرى لمضيق جبل طارق، عوض عاصمة البوغاز. وحضر مندوبو ثلاثة عشر دولة للمؤتمر الذي انطلقت أشغاله في 15 يناير 1906، واختتمت في 7 أبريل من نفس السنة.

قيادة الوفد المغربي الممثل للعاهل آلت للحاج محمد بن العربي الطريس، مندوب السلطان لدى الأجناس، البالغ من العمر حوالي ثمانين سنة والذي سيمتنع عن التوقيع على مقررات المؤتمر الختامية. يساعده في مهمته الحاج محمد بن عبد السلام المقري وزير المالية، والحاج محمد الصفار وعبد الرحمان بنيس من كتاب المخزن. وإذا تضمنت المقررات إقرار المبادئ الثلاث القاضية بسيادة واستقلال السلطان ووحدة مملكته الترابية، فإنها، في الواقع وبفعل الوفاق بين الأقطاب الممثلة في الخزيرات، كانت تمهد للحماية الفرنسية والإسبانية على المغرب، مرفقة بمراقبة دولية غير محددة المعالم، مما سيعرض حدود المملكة للاحتلال كلها تقريبا. وبعد تدخل ملك إيطاليا، فيكتور-عمانويل الثالث، قبل مولاي عبد العزيز توقيع المعاهدة في 18 يونيو 1906، لكن مع التذكير مجددا بالمبادئ الثلاث المنصوص عليها في الوثيقة النهائية للمؤتمر. بعدها، تأكد بالملموس أن مقتضيات هذه الوثيقة غير قابلة للتطبيق، إذ، وبدل استتباب الأمن في المملكة، اتسعت رقعة التمرد بقدر اتساع مساحة المناطق المحتلة من طرف الفرنسيين والإسبانيين. أصبحت سلطة السلطان تضعف بسبب ضغط مطالب الأوربيين وتحفظ وامتناع الرعية.

وفي 29 مارس 1907، ستحتل القوات الفرنسية وجدة، وتتعرض الدار البيضاء للقصف في 5 غشت من قبل بارجة حربية فرنسية، قبل إرسال ألفي جندي من الجزائر إلى المغرب. استعمار المغرب انطلق إذن، وبدأت المقاومة المغربية تنظم نفسها، وخاصة في الجنوب بزعامة قياد هذه المنطقة من البلاد ومولاي حفيظ، الأخ غير الشقيق لمولاي عبد العزيز وخليفته على مراكش، لتتم بيعة هذا الأخير سلطانا يوم 6 غشت 1907.

صار على رأس المغرب عاهلان، الأول في الجنوب بمراكش والثاني في الشمال بفاس، وهي تفرقة تخدم مصالح فرنسا وإسبانيا اللتين وجدتا فيها أسباب ومبررات التدخل المباشر في الشؤون المغربية. هكذا، حثتا مولاي عبد العزيز، في مرحلة أولى، على مقاومة طموحات أخيه، مطالبتان إياه بالتصديق على مقررات الخزيرات بدون تحفظ، وهو ما أدى به إلى الإعلان عن الانضمام للمعاهدة في دجنبر 1907، والإعلام بذلك في مساجد كل المناطق التابعة لنفوذه، لكنه عجز عن التصدي لتقدم قوات مولاي حفيظ التي استطاعت ولوج فاس بينما لجأ هو إلى طنجة.

وفي مرحلة ثانية، قامت فرنسا وإسبانيا بتذكير العاهل الجديد بشروطهما: الاعتراف بالديون المتراكمة من طرف مولاي عبد العزيز والتوقيع بدون تحفظ على "شروط الخزيرات". وبسبب تعرضه للحصار في فاس، خضع مولاي حفيظ ووقع، في 30 مارس 1912، معاهدة الحماية مع فرنسا التي سبق لها الحصول على تنازل من ألمانيا في 1911، سبع سنوات بعد تنازل إنجلترا. لم يكن جلاء مجموع الجيوش الأجنبية واردا على الإطلاق، بل إن فرنسا حصلت كذلك، بفعل المعاهدة الجديدة، على تفويض للسلطة قصد الشروع في إعمال الإصلاحات التي ظلت غير مطبقة، سواء من قبل المخزن أو من طرف القوى الأجنبية. وإذا كان نصيب إسبانيا من عقد الحماية قد اتفق عليه في معاهدة 27 نونبر 1912، فإنه لم ينتج عن هذه الأخيرة إلغاء مقررات مؤتمر الخزيرات: المبادئ الثلاث المتعلقة بالسيادة والاستقلال والوحدة الترابية للمغرب التي أشار إليها مولاي عبد العزيز في مذكرة قبوله لنتائج المؤتمر، في 18 يونيو 1906. وكانت المبادئ تلك تحافظ على الوضع القائم في

المغرب، حيث تم احترام نظام البلاد السياسي، وخاصة الملكية، رغم ممارسة السلطة من طرف القوتين المحتلتين.

* * *

بقي أبراهام ساسون الخياط الرسمي لمولاي عبد العزيز طوال مدة حكمه بفاس التي دامت سبع سنوات، بل أصبح محاوره الوحيد في شؤون الملبس بعد وفاة شريكيه، خاصة وهو يعرفه منذ كان أميرا شابا وكان يخيط له ملابسه حينها. وفي تلك الحقبة، أي قبل تخلي المولى عبد العزيز عن العرش، فقد أبراهام زوجته حسيبة، لكن حزنه العميق على فقدانها لم يمنعه من عقد قرانه على قريبتها ياقوت مامان، بنت الزوهرة بنسوسان التي هي أكبر بنات ميناسي بنسوسان وسلطانة أزويلوس. كانت ياقوت تساعد زوجها كثيرا في أعماله، وعلى وجه الخصوص تلك المنجزة في مشغله بقصر فاس الذي كانت دائمة التردد عليه لتقديم خدماتها لزوجات وحريم السلطان، مثلها في ذلك مثل زوجة الخياط الأولى. وفي كثير من الأحيان، كانت ترافقها للبلاط رحمة ساسون، البنت البكر لأبراهام، التي كانت شديدة الشبه بوالدتها المتوفاة حسيبة.

كان كرم أبراهام ساسون، ذلك الرجل التقي إلى أقصى درجة، بلا حدود إزاء المعوزين من اليهود، كما لم يكن يتردد في التدخل لفائدة أبناء ديانته لدى السلطات كلما احتاجوا ذلك. أما بيت أبراهام، وهو لقب شهرة منزله بالدرب الفوقي بملاح فاس، فمفتوح دائما في وجه الوافدين من كل جهات المغرب ومن الخارج. هكذا، حل ماني، حاخام فلسطين، ضيفا على خياط مولاي عبد العزيز خلال زيارته للمغرب قصد جمع التبرعات لمدرسته التلمودية، وبالإضافة للأب، قدم أبراهام للسلطان ابن الحاخام، الدكتور ماني، الذي أنهى دراسته في ألمانيا ويرغب في الاستقرار بالمغرب. وسيصبح ماني الإبن الطبيب الشخصي لمولاي عبد العزيز ويرافقه إلى طنجة حين لجوئه إليها في عام 1907، وتجدر الإشارة إلى أنه خلف ولدا تخصص في الطب هو الآخر وصار عميد كلية الطب بجامعة تل أبيب في سنوات 1980، وقد تعرفت عليه

في باريس بمناسبة ندوة دولية حول الطائفة اليهودية المغربية، انعقدت من 18 إلى 21 دجنبر 1978.

يجسد أحد تدخلات أبراهام لفائدة اليهود المغاربة لدى السلطان مباشرة، عربونا آخر على مدى تضامنه مع هذه الطائفة وإحسانه لها. أجل، ومولاي عبد العزيز مضطر لمواجهة الجيوش الحفيظية، أمسى اليهود مهددين بالابتزاز على يد الجنود النظاميين أو المنتفضين. انتشرت الإشاعات مثل النار في الهشيم، لكن، وبفضل حسه الاستباقي وبعد الحصول على موافقة السلطان، أدخل أبراهام مئات اليهود داخل أسوار البلاط لحمايتهم وإنقاذهم من أي مكروه قد يحل بهم لو مكثوا بالملاح. كان هذا الحي قريبا من القصر، وكان يمكنه التعرض للهجوم من قبل حرس السلطان العصاة أو من طرف قوات مسلحة أخرى. وحسنا فعل أبراهام حينها، إذ في 1912، بعد توقيع معاهدة الحماية، شهدت فاس أحداثا خطيرة يتذكرها اليهود المغاربة جيدا، وهي الأحداث التي تسمها ذاكرتهم بـ "التريتيل" (الزلزال لغويا). آنذاك، وإثر انتفاضة الجنود المغاربة ضد ضباطهم الفرنسيين، استغل نهابون وافدون من القبائل المجاورة جو غياب السلطة، فانتشروا في المدينة واقترفوا شتى أنواع السلب والابتزاز في الملاح، قبل أن يسترجع الجيش الفرنسي السيطرة على الأوضاع.

بنفس الوفاء والاحترام، استمر أبراهام في خدمة المولى عبد الحفيظ، وكان السلطان الجديد يقدر، هو الآخر، خياطه، والحكاية التالية التي رواها سالم (شارل) ابن أبراهام تؤكد طبيعة العلاقة بينهما. زوال ذات يوم جمعة، لاحظ مولاي حفيظ أن ياقوت، الزوجة الثانية لخياطه، ترتب محتويات مشغلها بالقصر للعودة بسرعة للبيت، فسألها:

- لماذا توقفت عن العمل؟

فردت عليه:

- جلالة الملك، إنه يوم الجمعة وقريبا سيحل موعد راحة السبت المقدس (شبات) الذي من المفروض علينا احترامها نحن اليهود.

- لكن تعاليمكم تقول، أضاف السلطان، إن أوامر الملوك تحظى بقوة

القانون (بالعبرية: دينا د الملخوطة، دينا).

- أجل سيدي، قالت ياقوت، لو كان الانتهاء من خياطة القفطان الذي أفصله مستعجلا، نظرا لضرورة ارتدائه بمناسبة عيد أو احتفال، لما توقفنا عن العمل. لكنك، جلالة الملك، تتوفر علي كل ما تحتاجه الآن بفضل الله.

حينها، أبدى السلطان رضاه مبتسما وقال للمرأة:

- ياقوت، حان وقت انصرافك لبيتك!

تؤكد هذه الحكاية، ومعها حكايات أخرى أثثت المسار المهني لأبراهام ساسون وخلفائه في خدمة السلاطين العلويين، نوعا من العناية والود المميز للعلاقات المفردة بين ملوك هذه الدولة ورعاياهم اليهود، وهي سمة لم تكن تؤثر على التراتب بين السلطان وخياطيه.

تلا قيام نظام الحماية تعيين أول مقيم عام للجمهورية الفرنسية في المغرب، الجنرال لويس هوبير غونزالف ليوطي (1854 - 1934). كان هذا الأخير قد أمضى الجزء الكبير من خدمته العسكرية في المستعمرات الفرنسية: في جنوب الجزائر وفي الهند الصينية كرئيس لأركان الجنرال غاليني الذي سيرافقه لاحقا إلى مدغشقر. وإذا كان ليوطي قد احتل وجدة سنة 1907 قبل تعيينه مقيما عاما، فإنه كان مؤمنا ومنجذبا للكاثوليكية الاجتماعية، كما سعى إلى تهدئة الأوضاع عقب أحداث فاس. غادر البلاد من دجنبر 1916 إلى أبريل 1917، وهي الفترة التي تولى خلالها وزارة الحرب في حكومة أريستيد بريان، قبل العودة للمغرب والمكوث فيه إلى حدود 1925، إبان حرب الريف. سياسته، التي عانت من سوء الفهم أيامها، كانت تتجنب الاستيعاب وتحترم التطور الثقافي للمغرب ونظامه السياسي. وخلال لقاء كان قد جمعه بمولاي حفيظ، اعتبر هذا الأخير أن الجيوش الفرنسية أنهت مهمتها في التهدئة وأن الوقت حان لعودتها لفرنسا، فأكد له الجنرال أن الأوضاع هذه مؤقتة، ليجيبه السلطان: " حين خلق الله الكون، كان ذلك الخلق مؤقتا، لكن الكون مستمر إلى اليوم وسيدوم إلى ما لانهاية". كانت الحماية الفرنسية حينذاك قد حطت الرحال في المغرب لتستمر عقودا أخرى. وبدون شك، كان الجنرال ليوطي أحد المقيمين العامين الذين احترموا أكثر من غيرهم الثقافة

والمؤسسات التاريخية للمغرب.

أما مولاي عبد العزيز، اللاجئ إلى طنجة، فكان عليه إقامة بلاطه فيها بسرعة. وبما أن التجارب صقلته وأنضجته، فقد انكب على تربية ابنته الوحيدة، لالة فاطمة الزهراء، تربية عصرية منفتحة على العالم ومتشبعة بالتسامح وحب الحرية، وهي التربية التي وجدت في المدينة الخاضعة لنظام دولي والمحتضنة لتعدد الثقافات واللغات، المناخ الملائم والمساعد. وبمعية فتيات يتيمات أو معوزات آواهن والدها، تابعت الأميرة دراستها في المدرسة الإيطالية، ثم في الثانوية الفرنسية، وذلك تحت المراقبة الصارمة للأب الذي كان جد حريص، بالخصوص، على إنجاز التمارين المدرسية. وحين بلوغها السابعة من العمر، قضت لالة فاطمة الزهراء عطلتها في باريس برفقة والديها، وفي سنتها السادسة عشرة، تم إعلان خطوبتها رسميا للأمير مولاي الحسن، ابن العمومة المفضل لدى مولاي عبد العزيز وخليفة السلطان على تطوان. توفي السلطان السابق في سنة 1943 وسنه 63 عاما، وذلك قبل عرس الزواج الباذخ المقام سنة 1947 . الأميرة، التي قطنت في تطوان ثم في نواحي طنجة، بالحي المعروف بالجبل القديم، رافقت زوجها إلى بريطانيا وبعدها إلى إيطاليا حيث عين سفيرا بعد استقلال المغرب. وحين عودتها إلى البلاد، في 1969، اقترح عليها الملك الحسن الثاني، الذي كان على علم بشغفها بحقوق المرأة ونضالها من أجلها ، تأسيس "الاتحاد الوطني النسوي". وقد جعلت من تحرير المرأة المغربية أفقا لكفاحها وعملها الدؤوب، بكل رصانة وفعالية، وخصصت سليلة السلطان كل حياتها لخدمة نساء بلدها، وخاصة أكثرهن تواضعا، اللواتي كانت تذهب للقائهن ولمساعدتهن في أقصى أرجاء المملكة.

غادر أبراهام ساسون مدينة فاس مع نهاية سنة 1912، للاستقرار في الرباط، مرفوقا ببناته الثلاثة وابنيه: أمرام موشي (أرمان موريس) وسالم (شارل)، المولودين تباعا في 16 دجنبر 1907 و 16 مارس 1911 بفاس، من زوجته الثانية ياقوت مامان. هذا، وفي 1907 كذلك، وبالضبط أربعين يوما قبل ولادة أرمان، وضعت رحمة ساسون، ابنة أبراهام من زوجته الأولى ورفيقة حياة حاييم بوطبول، ابنها رافائيل. هكذا إذن، كان الأخوال (أبناء أبراهام ساسون وياقوت

مامان) من نفس جيل وفي نفس سن أبناء الأخت (أطفال حاييم بوطبول)، وذلك بسبب زواج اليهوديات مبكرا ومنحى اختيار القريبات كزوجات.

ومن جهتهما، مكث الأخوان الأكبر سنا لأبراهام ساسون، سالومون ويوسف، مستقرين في فاس إلى أن فارقا الحياة.

كان سالومون، المزداد سنة 1858 والمتوفى يوم 25 نونبر 1943، موثقا وحبرا لبيعة صابة، ومتميزا بهيبة كبيرة، لطيفا ووقورا، ولم يسع أبدا لامتهان عمل مذر للربح. وكان، على الخصوص، يرعى أطفاله بعناية فائقة، مثلما كان جد مقرب من أخيه أبراهام ويزوره في الرباط كل صيف. واليوم، فحفدته وأطفالهم هم أبناء عمومتنا المستقرين في أمريكا الشمالية.

أما يوسف، المتوفى في 1937 عن عمر يناهز 82 سنة، فكان يشتغل حبرا ومعلما في بيعة صغيرة بملاح فاس. قطن ابنه سالم في الدار البيضاء، ليكون الفرع الوحيد من العائلة الذي استقر بهذه المدينة، وقد حمل هذا الفرع لقب (SASSOUN) العائلي بدل (SASSON). ويعيش ابنه جورج اليوم في ولاية نيو جيرزي، بينما تستقر إحدى بناته، صوفي (فورتيني) لوفور في جوهانسبورغ.

وفي الرباط التي صارت عاصمة البلاد، خلف مولاي يوسف، الابن الآخر للحسن الأول، أخاه غير الشقيق مولاي حفيظ على العرش بعيد توقيع معاهدة الحماية. وإذا كان السلطان الجديد سيحكم المغرب إلى حين وفاته في سنة 1927، فإن أبراهام ساسون وآله ظلوا يرافقونه أثناء زياراته لأهم مدن المملكة رغم إقامتهم رسميا في الرباط. وحسب ما حكاه لي شخصيا، فوالدي شارل يتذكر، وهو في الخامسة من العمر، أن أبويه كانا يذهبان يوميا إلى القصر الملكي بالرباط، حيث يوجد محل عملهما، باستثناء أيام السبت المقدس (شبات)، مرافقين بخادمين اثنين. في البداية، كان الزوجان يتوجهان إلى القصر ممتطيين بغلين، لأن ركوب الجياد كان مقتصرا حينها على أعيان المسلمين. بعدها، غدا استعمال العربات للتنقل من العادات المغربية، فصارا يركبان إحداها للذهاب إلى القصر في الصباح الباكر والعودة منه مع حلول المساء.

ووصلت شهرة خياط الملك كل أوساط تجار الرباط، ولذا كانوا يرددون كلما مر قريبهم: "هاهو خياط سيدنا! ". وقد أشار جيروم وجان طارو، في مؤلفهما "الرباط واللقالق المغربية"، إلى مشغل خياطة أبراهام ساسون داخل القصر الملكي بالرباط.

ازداد صامويل (سام) ساسون يوم 15 دجنبر 1912 بالدار البيضاء، خلال إقامة السلطان بالمدينة. كما رافقت العائلة مولاي يوسف إلى مراكش في عام 1924، لتمكث هناك برفقته طوال سنة تقريبا. وبمناسبة أحد الأعياد، مثل الحاج التهامي الكلاوي، قائد الجنوب المغربي وباشا مراكش، مصحوبا بكل أعيان المدينة، بين يدي السلطان لتحيته، مقدما له شابة جد جميلة منحدرة من المنطقة تدعى عائشة. أصبحت هذه الأخيرة محظية العاهل وحملت لقب لالة عائشة، وقد كلف مولاي يوسف ياقوت ساسون بالسهر شخصيا على ملبسها، وفي نونبر 1924 عاد الجميع إلى الرباط.

مع حلول كل عيد، كانت لالة عائشة تدلل وتختار ثوب ملابسها قبل الأخريات. كانت تبدي ودا كبيرا لياقوت، بينما كانت هذه الأخيرة تجد جمالها استثنائيا وتدلعها عبر جعلها تذوق أفضل أطباق المطبخ اليهودي. وتوطدت العلاقة بينهما لدرجة غدت معها لالة عائشة تنادي خياطتها المؤتمنة على أسرارها "آموي (أمي) ياقوت". وذات يوم، أسرت لالة عائشة لياقوت برغبتها، على غرار نسوة أخريات، في إنجاب سليل للسلطان. نصحت الخياطة سيدتها بإثارة الموضوع مع العاهل قبل استشارة الدكتور ماني الذي رافق المولى عبد العزيز إلى طنجة. وافق مولاي يوسف على الطلب وحضر الطبيب إلى قصر الرباط حيث فحص لالة عائشة ووصف لها أدوية لمدة ثلاثة أشهر، طالبا من ياقوت السهر شخصيا على احترام مواعيد وكميات الدواء وإخباره بالحالة الصحية للالة عائشة بعد انصرام المدة المحددة. بعد هذه الفترة، زف النبأ السعيد، إذ أخبرت لالة عائشة خياطتها أنها حبلى. غمرت سعادة جمة السلطان حين علم بالخبر الذي انتشر في القصر مخلفا الفرح والاحتفالات. كان اسم لالة عائشة على كل الشفاه، هي التي كانت تفضل اسم عويشة البسيط نظرا لتواضعها الكبير. وطوال فترة الحمل، كانت ياقوت تزور

يوميا سيدتها المراقبة صحيا عن بعد من طرف الدكتور ماني. وللأسف، لم يعمر الفرح طويلا، إذ كف الجنين عن الحركة في شهره السابع، كما شعرت بذلك لالة عائشة. أخبر الدكتور ماني بالأمر، فوصف دواء لمدة شهر لها، لكن وضعها الصحي فرض عليه التدخل كي تضع الجنين، ميتا، قبل الأوان. حسرة الأم والأب كانت غير قابلة للوصف، وبما أن السلطان كان جد متعلق بحبها، ورغم المصاب الجلل، فقد عقد قرانه عليها لتطوي صفحة وضعيتها كمحظية، مضفيا عليها بصفة "أم سيدي عويشة"، كما لو أنها والدة أمير! لم ينتج عن هذه الواقعة المؤثرة والمؤلمة توطيد علاقات الثقة والمودة بين أم سيدي عويشة وياقوت فحسب، بل كذلك العلائق التي سيتم نسجها بين أفراد العائلة الملكية وخياطيها الشخصيين.

هكذا، كان أرمان ساسون، وهو مراهق، كثيرا ما يرافق والده إلى القصر الملكي بالرباط، وذات مرة، منعه الحارس باعيسى من ولوج السور الداخلي للقصر. انتابت الشاب نوبة بكاء من جراء شعوره بالاستياء وخيبة الأمل، وعندئذ، قدم مولاي يوسف وسأله عن سبب بكائه، ثم شرح له أنه تجاوز سن الطفولة وأنه ليس من حق الرجال التجول بحرية داخل البلاط. رد المراهق: "ولكنك رجل وتتمتع بهذا الحق!". اعتبر السلطان جواب أرمان هذا عربونا على عدم تجاوزه بعد مرحلة الطفولة، فأصدر أوامره بتركه يدخل للالتحاق بوالديه.

كان آل ساسون يعودون إلى فاس لإحياء المناسبات العائلية المهمة، ولم شمل كل الأقرباء تقريبا، كيفما كانت درجة القرابة التي تربطهم بهم. وفي سنة 1916، احتضنت المدينة الاحتفاء ببلوغ أرمان سن الرشد الديني (بارمصواه). وبالإضافة لأهمية هذا الحدث في النمو الروحي لليافع الصغير، فإن المناسبة اكتست صبغة استثنائية لأنها تتعلق بالابن البكر لياقوت التي عجزت عن الإنجاب طيلة سبعة عشر سنة. ولهذا السبب، حمل هذا المولود اسم أمرام (اسم سيصبح لاحقا أرمان في سجلات الحالة المدنية الفرنسية)، وذلك تكريما للقديس الربي أمرام بنديوان الذي استمر التضرع إليه إلى حين حصول هذه الولادة الناتجة عن العناية الإلهية.

عاد آل ساسون إلى فاس في 1921 لإحياء بلوغ الرشد الديني (بارمصواه) لسالم (شارل) هذه المرة، الابن الثاني لأبراهام وياقوت، الذي كان يبلغ من العمر عشر سنوات. حمل سالم هذا الاسم لتأكيد وضعه كمنقذ وكعربون على البقاء على قيد الحياة. أجل، سبق ورزق أبراهام ساسون بابن ذكر آخر من زوجته الأولى حسيبة بنسوسان انتقى له اسم سالم، لكنه توفي خلال مراهقته، لقد أطلق نفس الاسم على المولود الذي تلاه فعاش سالم الثاني في ظروف صحية أحسن مما جعله يستطيع البقاء حيا. كانت نسبة وفيات الأطفال مرتفعة حينها، وذلك حتى في أوساط بعض العائلات الميسورة، وحتى لا يظهر لهذه النسبة أي تأثير، فقد كانت النساء يكثرن من الحمل أثناء مرحلة خصوبتهن، وكانت بعض الأسماء الشخصية، مثل سالم بالنسبة للذكور، وعائشة بالنسبة للإناث، انعكاسا واقعيا لاستفحال هذه الظاهرة.

كانت العادة تقضي بالاحتفاء، بشكل مشترك، ببلوغ سن الرشد الديني من قبل يافعين اثنين، قريبين لبعضهما البعض ولهما نفس السن، مع إستفادة شبان آخرين منحدرين من أوساط شعبية من المناسبة. وهذا ما حدث مع سالم، الذي شاركه الحدث شارل بنسوسان (وعمره أكثر قليلا من عشر سنوات)، الابن الوحيد لعائشة ساسون (1894- 1978) التي هي البنت الثالثة لأبراهام والتي تزوجت، بعد طلاقها، بحاييم بوطبول في 1934، واستفاد من المناسبة كذلك يعقوب بنسوسان. أقيم هذا الحفل الديني، حيث يرتل المتقربون أثناءه مقطعا من التوراة ويتوجهون للبالغين وقد صاروا جزءا منهم، في بيعة الحبر سالومون دادان الذي أجلس أبراهام إلى جانبه. وهذا الحبر هو أخ إسحاق دانان الذي كان يدير المدرسة الدينية حيث درس أبراهام ساسون ومعه أحد أبناء المعلم، الحاخام (الحبر والعالم) دانان. وإسحاق هو كذلك عم صول دانان، كبير حاخامات المغرب خلال سنوات 1960- 1970، ووالد جد بنيامين دانان الذي نذر نفسه، من مقر إقامته بباريس، لترميم كنيس أسلافه وفق معماره الأصلي، وذلك بمساهمة اليونسكو في إطار إعادة الاعتبار لمدينة فاس العتيقة المسجلة ضمن التراث الثقافي العالمي. وقد حضر افتتاح البيعة المرممة ممثل عن المدير العام لليونسكو والسلطات المغربية. وشكل الحفل،

الذي جرت فعالياته داخل البيعة وحولها، لحظة مؤثرةبالنسبة لي، ليس فقط بسبب ذكرى والدي الذي تخيلته في أفضل الأوضاع داخل المعبد، ولكن كذلك لأن سكان الحي، الذي تركه اليهود منذ مدة طويلة، عبروا عن امتنانهم للحفاظ على فضاء جسد التعايش الناجح بين المغاربة من الديانتين.

تم حمل كل من سالم ساسون وشارل بنسوسان، الجالسين على كرسيين، فوق ظهور الرجال طوال الشارع الرئيسي للملاح قبل الوصول إلى باب البيعة، يتبعهما موكب الأهل والأصدقاء وجوقة موسيقية. دعا المتقربان كل زملائهم في الدراسة إلى المدرسة الدينية إيم حابانيم، الواقعة أيضا داخل الملاح، ويوم الاثنين الموالي للحفل الديني، أقيم احتفال كبير في منزل أبراهام ساسون، ضم مسؤولي مدارس فاس التلمودية والجمعيات الثقافية، وأفراد العائلة وضيوفهم، كما تم إشراك خدم البيت في حميمية الاحتفالات التي استمرت طوال شهر.

تلقن سالم (شارل) تربية دينية بالرباط، وفي ربيعه الثاني عشر التحق بالمدرسة الفرنسية. نفس المسار سلكه أخواه أرمان وصامويل. ولم يكن أبراهام ساسون، المتشبث باحترام السبت المقدس (شبات)، يرسل أبناءه إلى المدرسة في ذلك اليوم، لكنه كان يوفر لهما دروسا استدراكية أيام الآحاد.

في الرباط كذلك، كان منزل أبراهام يقع داخل الملاح، ويشرف على مصب نهر أبي رقراق وشواطئ الرباط وسلا، المدينة التوأم للعاصمة. شخصيا، قطنت هذا البيت إلى حدود سنة 1955، حيث كنا نقيم في الطابق الأول، بينما تسكن الطابق السفلي أربع أسر. المسكن ظل في ملكية أبراهام إلى ما بعد تاريخ وفاته في دجنبر 1939، وخلال حكم مولاي يوسف، كانت الكثافة السكانية جد مرتفعة في الملاح، مثلما كان الكثير من اليهود يعانون من الفقر ويعتمدون على تضامن ومساعدة أبناء ديانتهم الميسورين. هكذا كانت ياقوت ساسون تزود حوالي عشرة أسر فقيرة من الجيران بكل ما تحتاجه لإحياء الأعياد الدينية السنوية الثلاثة الأساسية: بوريم أو عيد المساخر (ذكرى إنقاذ اليهود المهددين بالإبادة من طرف أسويروس - كزيركزيس الأول بطلب من زوجته إستير)، بيساه أو عيد الفصح (ذكرى خروج بني إسرائيل من مصر حيث

تعرضوا للعبودية وروش هشناه (مطلع السنة اليهودية). وكانت ياقوت، من جهة ثانية، تستقبل في بيتها، بعد نهاية عملها في القصر، المصابين بمرض في العيون وتهيئ لهم قطرات للعلاج وفق وصفة ورثتها عن جدتها، وصفة ذات فعالية استثنائية، مثلما كان الناس يقولون إن يديها تمتلكان قدرات علاجية خارقة، وربما كان هذا الاعتقاد عنصرا مساعدا على علاج بعض المرضى. وحين زار الدكتور أرنو، طبيب السلطان وأفراد الأسرة الملكية، منزل العائلة لفحص أبراهام المصاب بوعكة صحية، حضر مجريات جلسة لعلاج العيون من قبل ياقوت وحصل منها على وصفة القطرات، فأكد صلاحيتها لعلاج رمد العيون بعد اطلاعه على مكوناتها.

كانت سمعة ياقوت وزوجها جيدة للغاية في أوساط الطائفة اليهودية التي لم تكن تكف عن التنويه بكرمهما وباستعدادهما الدائم لتقديم يد المساعدة. وفي هذا الصدد، ورغم تدينه وحظوته في القصر، مما كان يمنحه مكانة مرموقة في أوساط الطائفة بفاس أولا ثم بالرباط، لم يطمح أبراهام للحصول على صفة تمثيلية داخل تنظيمات الطائفة، بل ظل يفضل الابتعاد عن خلافاتها الداخلية وحرب المواقع بين أفرادها. والدي، شارل ساسون، أسر لي أنه نصحه بالحذو حذوه، وهو ما فعله، بخلاف صامويل ساسون الذي تقلد مهمة أمانة مجلس الطائفة اليهودية بالرباط طوال سنوات عديدة. وشخصيا، سلكت نفس مسلك عمي صامويل لما تحملت مسؤولية نيابة رئاسة المجلس ذاته في حقبة الستينيات. لكن، وإذا كان الواجب يفرض تكريس البعض أنفسهم لخدمة الشأن العام، فإنني لمست عدم خلو نصيحة جدي من أسباب وجيهة.

حوالي نهاية حكم مولاي يوسف، ازدادت شهرة أبراهام ساسون الذي أصبح رواد القصر وحرفيو الرباط يلقبونه بالمعلم ابراهيم، مثلما ارتفعت الطلبات على خدماته، إذ لم يكن يخيط ملابس السلطان والأمراء فقط، بل كذلك ملابس الصدر الأعظم والحاجب الملكي وأفراد المخزن والعديد من أعيان الرباط وفاس.

وكثيرا ما كانت الفرصة تتاح لأبناء مولاي يوسف (مولاي إدريس، مولاي

الحسن الذي كانت تتم المناداة عليه: سيدي بابي، لأنه يحمل اسم جده الحسن الأول، وسيدي محمد، ابن لالة الياقوت المزداد سنة 1909، والذي سيخلف والده على العرش في عام 1927) للقاء أبناء أبراهام ساسون، وخاصة أرمان وشارل، اللذين كانا يرافقان أحيانا والديهما إلى القصر ويقضيان به النهار. المؤاكلة كانت حاضرة في رحاب البلاط، ومع الاحترام الواجب للمراسيم والبروتوكول، كان الجميع يشعر بانتمائه لنفس العائلة الكبيرة، ومن جهتها، استمرت العلاقات مع سيدي محمد كذلك متواترة وودية. وكان كل هذا يتجلى، على سبيل المثال، في إهداء أسرة ساسون للسلطان وآله شتى أطباق المطبخ اليهودي المغربي بمناسبة عيد الفصح، بما في ذلك طبق أدفينا أو السخينة التقليدي الخاص بيوم السبت (شبت). وكان ما يسمى بالفرحة السنوية فرصة مفضلة لتوطيد العلاقات بين السلطان وخدامه اليهود، وقد بقي معمولا بها خلال عهدي محمد الخامس والحسن الثاني.

وبالإضافة للأمراء، كان مولاي يوسف شديد الاهتمام بابن حاجبه اعبابو الذي كان معلما له أيضا، وكلما أمر أبراهام بخياطة ملابس للأمراء، إلا وحصل ابن الحاجب على أزياء شبيهة. الأمر نفسه ينطبق على الهدايا، وقد روى لي والدي أنه رأى، وهو في السادسة من العمر، الأمراء وابن اعبابو يركبون سويا دراجات نارية حمراء اللون مستوردة.

وفي نفس الحقبة ، تبوأ محمد المعمري مكانة مهمة في البلاط، الذي كان معلما لمولاي يوسف حيث درسه اللغة الفرنسية، وحريصا على العناية الدائمة به، وقد مكث في خدمته طويلا كمسؤول عن التشريفات.

في 1927، توفي مولاي يوسف في فاس بغتة، وعمره 48 سنة، بعد حكم دام 15 عاما، وذلك سنة تقريبا بعد نهاية حرب الريف (1921 - 1926). ومعلوم أن الريف سلسلة جبلية بشمال المغرب تمتد بمحاذاة ساحل البحر الأبيض المتوسط على شكل قوس واسع، من مضيق جبل طارق غربا حتى مصب نهر ملوية شرقا، مطلة في الجنوب الغربي على سهول الغرب وفي الجنوب الشرقي على ممر تازة. وتتميز المنطقة بشح الموارد وبتضاريسها الوعرة، ومع ذلك فكثافتها السكانية من بين الأكبر بالمغرب. ويفسر هذا

المعطي تقاليد الهجرة لدى الساكنة الريفية إلى الجزائر سابقا، وإلى أوربا الغربية حاضرا. وبالمقابل، عرف الساحل الريفي نشاطا اقتصاديا مهما بفعل سيطرة المغرب على غرب البحر المتوسط حيث كانت موانئ هذا الساحل محطات عبور إلزامية للمبادلات التجارية بين أوربا وإفريقيا. وقد أدت محاصرة الدول الأوربية، وخاصة الأيبيرية، للسواحل، ومعها الضعف العام للمغرب، إلى تراجع الساحل الريفي. لكن الريف وسكانه يتمتعون بوعي حاد بالخطر الاستعماري، وذلك منذ القرن الخامس عشر (احتلال إسبانيا لمليلية في 1497، وجزيرتي باديس في 1564 ونكور في 1673). وقد نظمت المقاومة نفسها لمكافحة تقدم الجيوش الأجنبية وإقامة السلطة الاستعمارية، سواء في السواحل أو داخل أراضي المنطقة. وبناء عليه، فالساكنة الريفية راكمت تقاليد عريقة في مجال الدفاع عن أراضيها، تقاليد مؤسسة على ممارسة حرب العصابات بشكل خاص.

إثر التوقيع على معاهدة فاس في 30 مارس 1912، أصبح المغرب خاضعا لحماية فرنسا، لكن إسبانيا ظلت ترغب في حصتها من التراب المغربي، وذلك منذ مؤتمر الخزيرات، مستندة في مطلبها إلى استعمارها لعدة مناطق مغربية سابقا قي القرنين الخامس والسابع عشر. فاوضت إسبانيا إذن للحصول على منطقة نفوذ في بلاد جبالة والريف، وهو ما تأتى لها بموجب اتفاقيتها الموقعة مع فرنسا في 27 نونبر 1912، لتضم محميتها مساحة 20 ألف كيلومتر مربع، أي نسبة 1/25 تقريبا من التراب المغربي. هكذا نالت إسبانيا، المدعومة من إنجلترا الساعية إلى حماية جبل طارق، مبتغاها، مما شكل بالنسبة لها تعويضا عن هزيمتها أمام الولايات المتحدة الأمريكية في كوبا في 1898، وهو ما كان قد أدى إلى استقلال الجزيرة الكاريبية في 1901.

ونظرا لهجمات وكمائن الزعماء المحليين، صادفت القوات الإسبانية صعوبات لا تطاق في عملياتها لاحتلال الريف، سواء انطلاقا من الغرب في اتجاه العرائش وتطوان، أو من الشرق انطلاقا من مليلية. وإلى حدود 1920، كانت مناطق شاسعة من الريف منفلتة من السيطرة الإسبانية رغم محاولات هذه الأخيرة المتعددة لعقد تحالفات سياسية مع الأعيان، مثلما كان يفعل الجنرال

ليوطي في المنطقة الفرنسية. وأحد هؤلاء الأعيان هو عبد الكريم الخطابي، من قبيلة بني ورياغل، وبصفته قاضيا معينا من طرف الحسن الأول وممثلا للمخزن، فقد كان يرغب في مراعاة جانب الإسبانيين والبحث عن اتفاق معهم، معتقدا أن تصرفه هذا سيفسح له المجال للقيام بإصلاحات عميقة قمينة بتطوير البلاد. وبعد وفاته في 1920، خلفه ابنه محمد (أو محند باللهجة الريفية) بن عبد الكريم، المولود سنة 1883، على رأس العائلة، وهو الذي ذاع صيته إبان حرب الريف.

منجذبا للحداثة ومعجبا بالتقدم التقني الجاري في الغرب، اعتقد بن عبد الكريم، أو عبد الكريم، أن التعاون مع إسبانيا سيخلص بلاده من التخلف. لكن ظنه خاب، فانخرط في محاربة الدولة الاستعمارية التي صارت إستراتيجيتها خاضعة، أكثر فأكثر، لاستعمال القوة واحتقار الريفيين. وابتداء من 7 غشت 1920، تاريخ وفاة والده، تزعم محمد ابن عبد الكريم الانتفاضة والمقاومة. وقد نجح في جعل أفراد قبيلته والقبائل المجاورة يستعيدون معنوياتهم المهزوزة بعد انتصارات الجيش الإسباني السابقة. وبعد مبايعة مواطنيه له في جبل القامة (بيعة القامة) في 10 ماي 1921، استرجع عدة مواقع محصنة وعدة مناطق، وتوج أول حملة عسكرية كبيرة له بالانتصار في معركة أنوال في 23 يوليوز 1921، المعركة التي مثلت كارثة فعلية بالنسبة للقوات الإسبانية، حيث تكبدت فيها 15 ألف قتيل وجريح و 700 أسير، بالإضافة لخسائر جسيمة في مختلف أصناف العتاد والسلاح. ورغم وصول قواته أسوار مليلية، فإنه قرر عدم توسيع هجومه إليها، متقدما بشكل مبهر في الريف الشرقي.

حينها، قام محمد ابن عبد الكريم بتنظيم الريف سياسيا عبر إنشاء مؤسسات تمثيلية للسكان، وجمعية وطنية ذات اختصاصات تشريعية وتنفيذية، وبويع أميرا، وكان يترأس مجلس الوزراء المنتخبين من الجمعية الوطنية، مثلما أرسل وفودا دبلوماسية إلى فرنسا وبريطانيا.

شغلت هذه التطورات عميقا بال الدولتين الاستعماريتين، خاصة مع احتمال انتقال نموذج ثورة الريف إلى مناطق أخرى، فوحدتا قواتهما للقضاء

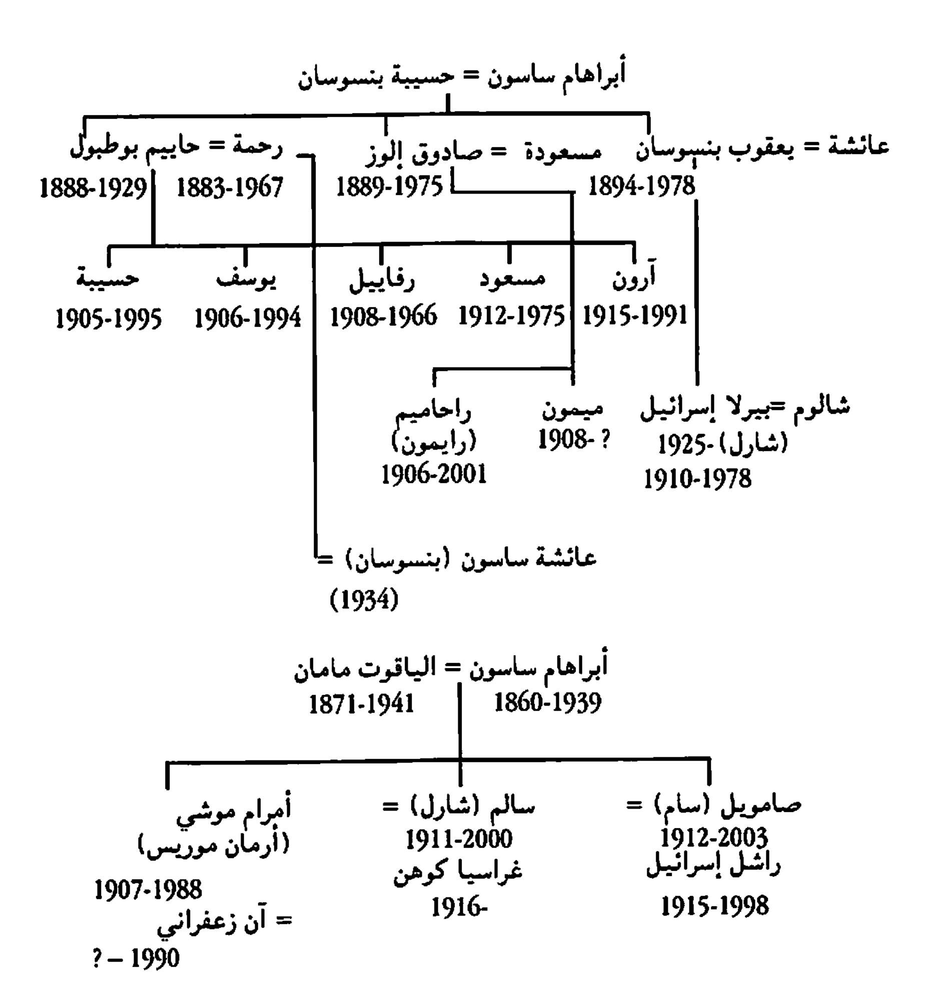
على محمد ابن عبد الكريم. من الجانب الإسباني، وشبه القارة الأيبيرية تعاني من انعدام الاستقرار سياسيا والقلاقل جهويا بعد تجرع ذل الهزيمة في أنوال، التحق الجنرال ميغيل بريمو دي ريبيرا إي أوربانيخا ، المعين قبطانا عاما على كاطالونيا في 1922 ، بتطوان لشغل منصب المفوض السامي، ولما كان يعول على فرنسا لهزم محمد ابن عبد الكريم، فقد قام بعدة خطوات في هذا الاتجاه في 1923، السنة التي سيعلن فيها عن تعليق العمل بالدستور وتأسيس مجلس عسكري للحكم، وهو ما سيخنع له الملك ألفونس الثالث عشر. وفي 8 يوليوز 1925 ، سيتم توقيع معاهدة التعاون الفرنسي-الإسباني، وذلك بعد هجوم محمد ابن عبد الكريم على مواقع عسكرية فرنسية وتخريبها في شهر أبريل، ودنوه من فاس. وإذا كان الجنرالان لوي هوبير ليوطي وشارل نوغيس (الذي سيعين مقيما عاما لفرنسا في المغرب سنة 1936) قد شاركا في هذه الجولة النهائية لحرب الريف، فإن الماريشال بيتان كلف، على رأس مئات الآلاف من الجنود ، في 1925 ، بإعادة النظام إلى الريف، وفرض الاستسلام على محمد ابن عبد الكريم بدون قيد ولا شرط، وإدماج الجهة في نطاق الحماية المفروضة على المغرب منذ 1912. أما من الجانب الإسباني، فقد قدم الجنرال بريمو دي ريبيرا وقواته التي رست في الحسيمة، ومعها الجنرال فرانسيسكو فرانكو باهاموند (القائد العام مستقبلا وزعيم الحكومة الوطنية في 1936) الدعم اللازم للجيوش الفرنسية للحصول، في النهاية، على استسلام محمد ابن عبد الكريم يوم 27 ماي 1926. وبعد نفيه أولا إلى جزيرة لا رينيون بمعية كل أفراد أسرته أكثر من عشرين سنة، تم نقل الأمير إلى فرنسا سنة 1947 حيث استغل مروره على مصر للافلات من قبضة حراسه والالتجاء للأراضي المصرية. وهناك، في القاهرة، زاره محمد الخامس ودعاه للعودة إلى بلاده. وقد توفي محمد ابن عبد الكريم في العاصمة المصرية يوم 14 نونبر 1962.

الفصل الثالث

سيدي محمد بن يوسف، عهد القطائع

(1872 - 1847)

حاييم بوطبول وأبناؤه يخلفون أبراهام ساسون



خلافا لسيناريو 1894، حيث خلف الابن المفضل للحسن الأول، مولاي عبد العزيز، والده على العرش، ففي عام 1927، عقب وفاة مولاي يوسف، لم ينتقل التاج إلى مولاي إدريس ولا إلى مولاي الحسن، بل إلى سيدي محمد وعمره حينذاك 18 سنة. قامت السلطات الفرنسية، أو بالأحرى مهندسو سياسة حماية فرنسا على المغرب، بهذا الاختيار، معتقدين ربما أن هذا السلطان الشاب سيخدم مشاريعهم أفضل من أخويه غير الشقيقين، ليعين مولاي إدريس خليفة للسلطان في مراكش ومولاي الحسن خليفة في مكناس.

وسيكشف تاريخ حكم سيدي محمد بن يوسف (1927 - 1961)، محمد الخامس ابتداء من 1956، أنه لن يتنازل قيد أنملة عن استقلال البلاد وسيادتها ووحدتها الترابية، المبادئ الثلاث التي تتضمنها المقررات الختامية لمؤتمر الخزيرات. وبحذر وقوة عزيمة، وبالرغم من محن المنفى في غشت 1953 والأزمة المفتوحة مع الإقامة العامة في المغرب، فسيعرف سيدي محمد كيفية قيادة بلاده إلى بر الاستقلال والسيادة. وفي خضم الحرب العالمية الثانية، أظهر السلطان الحزم ذاته دفاعا عن العدالة والحق والقانون. ليس ثمة إذن مجال للشك في أن السلطان قام بإعمال سلسلة من القطائع أثرت بعمق في مجرى تاريخ المغرب، وذلك من 1927 إلى 1947، سنة خطاب طنجة التاريخي.

* * *

استقبل أبراهام وياقوت ساسون تتويج السلطان الجديد (العاهل الرابع من الأسرة العلوية التي يخدمونها منذ 1877) بفرح عارم، هما اللذان نسجا معه علاقات ثقة متينة إبان طفولته وشبابه. وستتقوى أواصر هذه العلائق طيلة عهده، ليس مع السلطان بنفسه فقط، بل مع والدته كذلك، أم سيدي الياقوت، التي استمرت تقطن قصر فاس.

يقضي عرف قديم أنه، كلما اعتلى سلطان جديد العرش، إلا واجتمع كل المستخدمين والخدم في رحاب القصر، ومعهم كل النساء القاطنات فيه،

لتقديم متمنياتهم بالرفاهة للعاهل. وهذا ما حدث مع عودة سيدي محمد إلى قصر الرباط، وقد أعلن جلالته، مثله مثل أسلافه، أنه يأذن لكل من يريد مغادرة القصر للالتحاق بأسرته بفعل ذلك، مثلما يسمح للراغبين في المكوث بذلك.

وحسب رواية ياقوت ساسون، فإن أم سيدي عويشة أخبرت سيدي محمد، وهي تقدم له متمنياتها، أنها لم تعرف والديها، معلنة عن رغبتها في الاستمرار في العيش في القصر إذا سمح لها السلطان بذلك. وبعدها، وضعت بين يديه كل المجوهرات التي أهداها إياها مولاي يوسف، مؤكدة عدم حاجتها لها بعد وفاة هذا الأخير. أجابها سيدي محمد بضرورة الاحتفاظ بمجوهراتها وبالبقاء في القصر طالما شاءت ذلك، مضيفا أن الاحترام الواجب إزاءها سيظل مثلما كان في عهد والده. لم تعمر أم سيدي عويشة طويلا بعد رحيل مولاي يوسف، وفارقت الحياة بعد إصابتها بمرض وولوجها المستشفى، وطوال تلك المدة، كانت عائلة ساسون تعودها باستمرار لتأكيد مشاعر الود إزاءها.

في الفترة تلك، ونظرا لتقدمه في السن وصعوبة قيامه بالأعمال الكثيرة المطلوبة منه، طلب أبراهام ساسون المساعدة من حاييم بوطبول، زوج أكبر بناته، رحمة، للعمل بجانبه في خياطة ملابس القصر بالرباط. وترك هذا الأخير عمله بقصر فاس للالتحاق بصهره، لتبدأ المرحلة الانتقالية التي ستقوده إلى خلافة أبراهام ساسون في منصب خياط السلطان والأسرة الملكية.

بدأ ميمون بوطبول، ابن عم حاييم بوطبول (والداهما بالتوالي أبراهام وسمول شقيقان) يقدم يد المساعدة في المخيط. وكان قد شرع في العمل بقصر فاس في عهد مولاي يوسف، قبل الالتحاق بقصر الرباط في سنة 1927، وإذا كانت الخياطة مهنته الأولى، فإنه سبق له الاستقرار في مراكش، كما نوع مجالات تجارته لاحقا لتطال بيع الأواني الفضية المستوردة من مانشستر البريطانية أو المصنعة في الدار البيضاء، ومعها الأثواب المطرزة بالذهب (الصقلي، اختصاص الحرفيين اليهود وقتها). كان ميمون بوطبول يرافق آل ساسون يوميا لقصر الرباط، وأصبح يتكلف بمفرده بالمخيط العائلي حين تنتاب أبراهام وعكة صحية أو تكون ياقوت منشغلة مع نساء البلاط. وانتهى

به الأمر بافتتاح متجر صغير قرب محل خياطة آل ساسون، يبيع فيه مواد البقالة والسكر والشاي، مثلما يتاجر فيه بشتى أنواع الحلويات التي كان الأمراء الشبان شغوفين بها، ومنهم سيدي محمد. ميمون بوطبول، الذي سيضطر إلى طي صفحة علاقاته المهنية مع ابن عمه حاييم في سنة 1936، خضع لعملية جراحية، بسبب إصابته بالتهاب حاد سد تدفق الدم في الشرايين، أدى إلى بتر أحد ساقيه من طرف الدكتور ديبوا - روكبير، الطبيب الجراح لسيدي محمد بن يوسف، لتنطلق زوجته حنا (أزولاي) في مساعدته في أداء مهامه ابتداء من 1940.

احتضنت الرباط عرس يوم 9 يناير 1935، زواج سالم (شارل) ساسون، ثاني أبناء أبراهام، وغارسيا كوهين، سليلة إحدى عائلات فاس العريقة التي تعود أصولها لتافيلالت على الأرجح. وبهذه المناسبة، تم تهييئ فرحة للسلطان ونساء القصر، حضرتها أم سيدي عويشة، مقدمة تهانيها لياقوت بمناسبة الحدث السعيد ومهدية العروس بلغة مطرزة ووشاحا. ونظمت فرحة أخرى في إقامة الحاج عمر التازي، وزير الأملاك المخزنية، الذي استدعى كل أفراد عائلة ساسون إلى قصره لتناول الشاي. يومها، طلبت زوجة الحاج عمر التازي من ياقوت أداء مهمة لصالحها، لتعود هذه الأخيرة، أسبوعا بعد ذلك، لإخبار المرأة بمآل المأمورية، مستغلة الفرصة للسؤال عن الوضع الصحي للوزير المصاب بداء السكري وعيادته. تأثر الحاج عمر التازي بزيارة ياقوت وأجهد نفسه لمرافقتها إلى نافذة تطل على حديقة قصره، طالبا منها التمعن في بستاني في خدمته أنهى عمله وتناول وجبة غذاء شهية قبل أن يستسلم لقيلولة عميقة، مقارنا حالته الصحية المتدهورة، هو الوزير القاطن في هذا القصر الباذخ، مع استغراق ذلك الرجل البسيط في النوم!

وساوس السقم ذاتها ظلت تؤرق ياقوت أيامها بسبب تدهور صحة زوجها أبراهام. وفي يوم 15 نونبر 1939، فُجعت بخبر انتقاله إلى جوار ربه بالرباط وهو يبلغ من العمر 79 سنة.

حيث إنني أول ابن لشارل، ازددت يوم 4 نونبر 1935 بالرباط وأحمل اسم ألبير (في الواقع أبراهام خلال حياة جدي)، فقد عرفت الجد أبراهام، أو على

الأقل ما زلت أحتفظ في خزان ذاكرتي الطفولية بصورته كرجل ذي لحية سنجابية وهيبة صبوحة رغم تقدمه في السن. وقد توفي، ربما، جراء الإصابة بالتهاب في القصبات والرئة، بالرغم من تلقيه العلاج على يد الدكتور أرنو، الذي تأسف كثيراً على عدم تسويق البنسيلين المنقذة في المغرب إلى ذلك الحين.

ووري جثمان أبراهام ساسون الثرى في مقبرة الرباط، ورافقه إلى مثواه الأخير كل أفراد العائلة وأعيان الطائفة اليهودية (وخاصة الحاخام الأكبر كوتييل، صديقه الوفي) وممثلو السلطات. سالومون، أخ الفقيد الذي سيفارق الحياة من جهته في 1943، صاغ بالعبرية النعي الذي نقش على شاهدة القبر:

" كان يخاف الله،
محسنا وفي خدمة المستضعفين،
متواضعا وزاهدا كان، لكنه
كان يعاشر الملك يوميا".

ووفق رأي والدي شارل، فهذه الكلمات المنقوشة على شاهد قبر أبراهام، المبدعة من طرف عالم من عيار سالومون ساسون، تجمل جيدا سلوك وخصال المعلم ابراهيم.

ووفق ما تقتضيه الأعراف، انطلق الحداد بزيارة ياقوت وأبنائها الثلاثة (أرمان، شارل وصامويل) للقصر قصد تقديم التعازي إلى السلطان سيدي محمد بن يوسف في وفاة خياطه. وأكد العاهل للمعزين عطفه، معبرا لهم عن حزنه إثر غياب خادمه الوفي والأمين، بل إنه وجه لأرمان، ابن أبراهام البكر، ملاحظة لا تخلو من مودة.

مدة طويلة بعد غيابه، ظل تجار وحرفيو زنقة القناصل الرباطية يتذكرون المعلم ابراهيم، وهو ما تأكدت منه بنفسي عدة مرات وأنا أرافق والدي، في سنتي الثانية عشرة أو الثالثة عشرة، عند أحد أصدقائه في الحي المذكور: المعطي غنام، وهو تاجر للشاي والسكر يكن مودة عميقة لأبي، علمه القراءة والكتابة باللغة العربية ويسأله باستمرار عن مساري الدراسي. وبما أن التعليم كان يمثل، في اعتقاده الراسخ، الشرط الأساسي للارتقاء الشخصي

والاجتماعي، فقد ظل دائم الاهتمام بنتائجي المدرسية، مذكرا إياي بحملي اسم رجل فاضل، خياط السلطان الذي عرفه والذي يحظي لديه بالاحترام والتوقير. وكان على علم، من جهة أخرى، أن زميلي المغربي الثاني في القسم، محمد الغربي، هو أحد أبناء صديق له يتاجر في الزرابي، وأنه كان تلميذا ممتازا أتنافس معه حول الرتبة الأولى في عدة مواد. كان جد فخور بكون مغربيين يتفوقان في دراستهما، ولذا بقي يحثني على المزيد من الاجتهاد والمثابرة. وطوال سنوات، ظل الوالد يحيطه علما بمستجدات مساري المهني في سلك التعليم العالي ويخبرني بمدى اعتزازه بكون حفيد المعلم ابراهيم امتهن التدريس الجامعي.

نظرا لكون لا أحد من أبناء أبراهام الثلاث تكون على يد والده لتعلم مهنة الخياطة وخلافته بعد وفاته، سمح السلطان لحاييم بوطبول بتولي المهمة تلك. أما ياقوت، فاستمرت تزور البلاط إلى حين وفاتها بعد مرور عامين تقريباً على موت زوجها، في سنة 1941. وقبل ذلك، قامت بتقديم مسعودة، البنت الثانية لأبراهام من زواجه الأول، للسلطان الذي كان يبحث عن ممرضة ومرافقة لوالدته أم سيدي الياقوت. لم تكن صحة هذه الأخيرة على ما يرام، مما كان يتطلب مراقبة شبه دائمة لحميتها الغذائية ولتناولها للأدوية. هذا، وتفاوضت مسعودة مباشرة مع السلطان حول عقد عملها، كما حكت ذلك بنفسها مرارا، ليتفقا على أنها ستشتغل ستة أيام في الأسبوع مع احترام راحة يوم السبت (شبت)، وعلى راتب شهري وكيس دقيق يسلم شهريا إلى منزلها الكائن في بو الخصيصات، بين فاس البالي وفاس الجديد، المتاخم للملاح. وفي الواقع، فإن السلطان كان كريما جدا مع مسعودة التي خلفت مرافقة يهودية أخرى لوالدة السلطان، هي سيمحة سوسان، والتي قامت بخدمة أم سيدي الياقوت بكثير من التفاني، مما جعل صحتها تتحسن بشكل ملموس. وفي الحقبة ذاتها، استجاب السلطان لملتمسات والدته ومسعودة، فمنح لأبناء هذه الأخيرة عدة مساعدات للاستقرار في مراكش والدار البيضاء، مثلما وهبها هي رخصة محل لبيع الدخان وأخرى لسيارة أجرة. وظلت مسعودة ساهرة حريصة على صحة أم السلطان، بتنسيق تام مع طبيبها المعالج، الدكتور سوكري المستقر بفاس،

ومراقبة دائمة لضغطها الشرياني ولنمط تغذيتها، مع السعي على جعلها تفقد بعضا من وزنها. كانت أم سيدي الياقوت جد متعلقة بمسعودة المتوفرة على جاذبية استثنائية والمسلية لها بامتياز، بل إنها كانت تخشى حلول يوم العطلة الأسبوعية لمرافقتها حيث يفرض عليها البقاء وحيدة مع خادماتها. وأيام الأحد، بعد مرافقة خدم قصر فاس لمسعودة إلى مقرعملها، كثيرا ما كانت هذه الأخيرة تلاحظ تدهور صحة أم سيدي الياقوت، فتمسك الأمور مجددا بيد من حديد وتفرض حمية غذائية صارمة باتفاق مع الدكتور سوكري. هكذا مكثت مسعودة إلى جانب أم السلطان إلى حين لفظها أنفاسها الأخيرة، وذلك خلال نفي محمد الخامس والأسرة الملكية إلى مدغشقر.

لقد كنت شديد المعرفة بعمتي مسعودة، كما أنصت لها مرارا وتكرارا وهي تروي عن حياتها وعن علاقاتها مع سلطان المغرب، سواء إبان خدمتها لوالدته أو بعد وفاتها، كل هذا أكد لي بما لا يدع مجالا للشك أن العلاقات هذه تميزت بالقرب وطبعت بود حقيقي. وسيعبر لها العاهل، في عدة مناسبات، عن عرفانه واحترامه مثلما سنستعرض ذلك لاحقا.

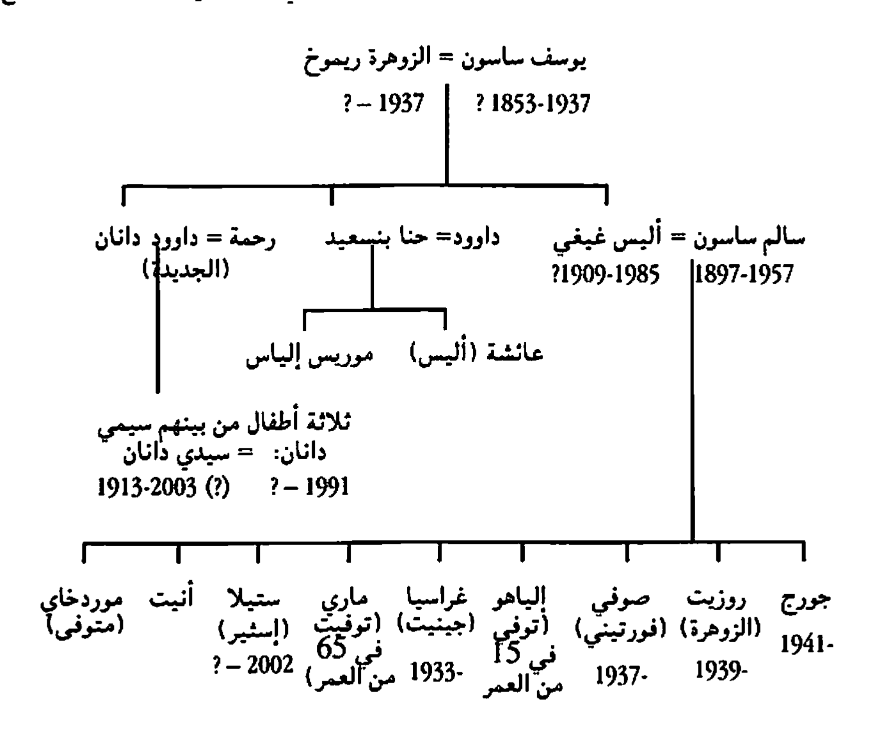
* * *

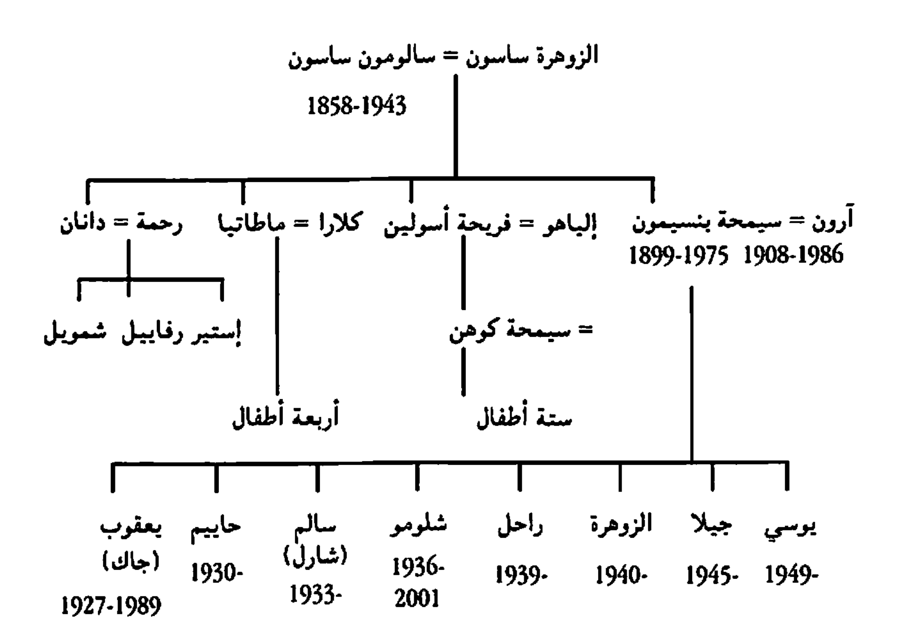
توفي يوسف ساسون في فاس سنة 1937، سنتين قبل وفاة أخيه أبراهام. وكان أطفاله وحفدته يكتبون اسمهم العائلي (SASSOUN)، خلافا لنا، وهو شكل كتابة أقرب إلى النطق الإنجليزي. موت يوسف شكل حدثا غير قابل للنسيان. أجل، غادر والدي وأخواه الرباط متوجهين إلى فاس قصد حضور جنازة عمهم، وبسبب وصولهم متأخرين، مما حرمهم من الذهاب إلى منزل الراحل أولا، لمحوا عربة نقل الموتى متوجهة إلى المقبرة فساروا خلفها. وكم كان وقع المفاجأة صادما حين علموا أنهم يحضرون مراسيم دفن عمتهم الزوهرة وليس عمهم يوسف! لقد باغتت وفاة هذا الأخير الجميع نظرا لتمتعه بصحة جيدة، بينما الزوهرة كانت تشكو من المرض ولم تقدر على الصمود قيد الحياة إلا ساعات معدودة بعد رحيل زوجها. استغرق حداد العائلة سبعة أيام على

الزوجين معا إذن، وتتذكر جينيت ساسون، المقيمة حاليا في استراسبورغ، أنها ذهبت إلى مدرسة الرابطة اليهودية العالمية بفاس واضعة وزرة سوداء ذات طوق رقبة أبيض بخط أحمر، وهو الزي المميز لأطفال العائلات في حالة حداد.

عرفت جيدا أحد أبناء يوسف، سالم ساسون (الحامل لنفس اسم أبي الشخصي الذي هو ابن عمه)، حيث كان يتردد على منزلنا بالرباط كثيرا. تزوج سالم بأليس غيغي، ابنة روبن غيغي المزداد عام 1890 والذي اشتغل صائغا لدى مولاي يوسف. وقد وظف روبن، من جهة أخرى، معارفه المعمارية في ملاح فاس، إذ شيد فيه أولى شرفات منازل هذا الحي. وعاش سالم ساسون بفاس، في نفس بيت والده يوسف، وإذا كان قد ابتدأ حياته المهنية مستخدما في بنك، فإنه غير مجراها مع اندلاع الحرب العالمية الثانية ليصبح تاجرا للفواكه الجافة، مما كان يفرض عليه الغياب عن بيته شهرين أو ثلاثة أشهر بمناسبة كل سفر. كان يجوب ضيعات المعمرين والأسواق المحلية التقليدية، بالإضافة إلى تمويل بعض متاجر الفواكه الجافة في ملاح فاس، وقد فرض انهيار مدا خيله على ابنتيه الأكبر سنا خلافته لتأمين مستلزمات الأسرة. هذه الأخيرة استقرت في الدار البيضاء في 1945، ليفارق سالم ساسون الحياة في 1957 وتهاجر زوجته، أليس، سنتين بعد ذلك، من المغرب وتقضي نحبها في إسرائيل سنة 1958.

استقر أبناء عمومتنا (SASSOUN)، أي أطفال سالم وأليس، في فرنسا (جينيت في استراسبورغ منذ 1965) وإسرائيل والولايات المتحدة الأمريكية، بل وإفريقيا الجنوبية كذلك، وهي حالة صوفي (فورتيني) لوفور، المزدادة بفاس في 1937، التي تعيش الآن في جوهانسبورغ. أما أخوها جورج ساسون، المولود سنة 1941 في فاس، فهو اليوم مقاول في مجال الهندسة الكهربائية بولاية نيو جيرزي. إنه، مع أخته روزيت-الزوهرة، الحفيدان الوحيدان ليوسف ساسون المستقران في القارة الأمريكية، مثلهما في ذلك مثل أبناء عمومتهم، حفدة سالومون ساسون أخ يوسف وأبراهام.


يوسف ساسون = الزوهرة ريموخ
? – 1937
? 1853-1937
رحمة = داوود دانان
(الجديدة)
داوود= حنا بنسعيد
سالم ساسون = أليس غيغي
?1909-1985
1897-1957
موريس إلياس
عائشة (أليس)
ثلاثة أطفال من بينهم سيمي
دانان: = سيدي دانان
1913-2003 (?)
? – 1991
موردخاي
(متوفى)
أنيت
ستيلا
(إستير)
? – 2002
ماري
(توفيت
في 65
من العمر)
غراسيا
(جينيت)
1933-
إلياهو
(توفي
في 15
من العمر
صوفي
(فورتيني)
1937-
روزيت
(الزوهرة)
1939-
جورج
1941-


الزوهرة ساسون = سالومون ساسون
1858-1943
رحمة = دانان
كلارا = ماطاتيا
إلياهو = فريحة أسولين
آرون = سيمحة بنسيمون
1899-1975
1908-1986
إستير رفاييل شمويل
= سيمحة كوهن
أربعة أطفال
ستة أطفال
يعقوب
(جاك)
1927-1989
حاييم
1930-
سالم
(شارل)
1933-
شلومو
1936-
2001
راحل
1939-
الزوهرة
1940-
جيلا
1945-
يوسي
1949-

امتحان الحرب العالمية الثانية

سيحل ثيودور اسطيغ محل الجنرال ليوطي على رأس الإقامة العامة لفرنسا بالمغرب سنة 1925، الذي تحوم شكوك حول تدخله في اختيار سيدي محمد ليصبح السلطان الجديد بعد وفاة مولاي يوسف في 1927. وقد خلفه في هذا المنصب كل من لوسيان سان، هنري بونسو (المعتبر ليبراليا)، مارسيل بييروطون (ذي السلوك الفاشي والذي كان وزير الداخلية في حكومة فيشي) ثم الجنرال شارل نوغيس (1876 - 1971) سنة 1936. عمل هذا الأخير ملحقا بديوان الجنرال ليوطي في 1912، وعاد إلى المغرب بعد الحرب العالمية الأولى وشارك في حرب الريف (1924 - 1926). كان كذلك قائدا عاما للعمليات العسكرية في شمال إفريقيا (1939)، وأعلن مساندته لمواصلة الحرب في يونيو 1940 ليلتحق بعدها بسرعة بالمارشال بيتان ويعتقل البرلمانيين الفرنسيين الذين جاؤوا إلى المغرب على متن الباخرة "ماسيليا".

وحسب بعض المؤرخين، فالعلاقات بين سيدي محمد والجنرال نوغيس كانت مطبوعة بكثير من الود، ذلك أن المقيم العام اتخذ إزاء المغرب موقفا قريبا من موقف الجنرال ليوطي ومخالفا لمواقف المقيمين السابقين له مباشرة. ومع ذلك، فالوطنيون المغاربة نددوا بالرجل الذي قمع بشراسة المظاهرات والاحتجاجات ضد الظهير البربري (1930)، الظهير الرامي إلى تفريق المغاربة إلى فريقين مناهضين لبعضهما البعض، العرب والأمازيغ، وإلى إخراج هؤلاء الأخيرين من دائرة الشرع الإسلامي وحصرهم في العرف ابتدائيا وإحالتهم على المحاكم الفرنسية استئنافيا. حينها، كان شارل نوغيس مديرا للشؤون الأهلية ورئيسا عسكريا لديوان المقيم العام لوسيان سان، وكانت مشاركته في إخماد ثورة الريف بقيادة عبد الكريم محط انتقاد كبير هي الأخرى.

وعلى كل حال، وابتداء من 3 ماي 1939، وفي الخطاب الذي ألقاه بمناسبة عيد المولد النبوي، قال السلطان وهو يتلقى تهاني الجنرال نوغيس إن كل رعاياه يقفون إلى جانب فرنسا، وأن الشعب المغربي برمته متضامن معها في كل الأحوال، في حالة السلم مثلما في حالة الحرب.

حين أعلنت بريطانيا وفرنسا الحرب على ألمانيا يوم 3 شتنبر 1939، ختم العاهل رسالة ملكية للشعب المغربي تمت تلاوتها في كل مساجد المملكة بقوله: "... وهذه فرنسا الصديقة التي لم تأل جهدا في المحافظة على السلم قد اتخذت اليوم أهبتها للدفاع عن شرفنا وشرفها وعن مجدها ومجدنا وعن مستقبلها ومستقبلنا جميعا فيجب علينا أن نقوم بواجبات محافظة العهد المتين ولا يحافظ على العهود مثل عباد الله المؤمنين ولنقوم بشرف عنصرنا المجيد وتاريخنا الزاهر ومبادئ ديننا الزكي الطاهر فمن هذا اليوم الذي اتقدت فيه نيران الحرب والعدوان إلى اليوم الذي يرجع فيه أعداؤنا بالذل والخسران يتعين علينا أن نبذل لها الإعانة الكاملة ونعضها بكل ما لدينا من الوسائل غير محاسبين ولا باخلين فقد كنا معاهدين لفرنسا ومشاركيها في ساعة الرخاء ومن الإنصاف أن نشاركها اليوم في ساعة الشدة والبأساء حتى يكلل النصر أعمالها ويزهر سرور النجاح أيامها والله ولي النصر والتوفيق".

لأول مرة منذ اعتلائه العرش، واجه السلطان أزمة عالمية كبرى وجابه إقامة عامة همها التحكم في كل شيء، بمعاونة الصدر الأعظم الحاج محمد المقري المعمر في مهمته منذ الحسن الأول. لقد شكل موقفه قطيعة، وخاصة بالمقارنة مع مواقف بعض ساسة الشرق الأوسط الذين تخندقوا في صف ألمانيا، وبرز منحى القطيعة لديه أيضا حين تعلق الأمر بالدفاع عن رعاياه معتنقي الديانة اليهودية، لما حارب بكل ما أوتي من قوة تطبيق قوانين نظام فيشي العنصرية والمعادية للسامية، المعتمدة ابتداء من 1940.

في نونبر 1942، رام الجنرال نوغيس مقاومة الإنزال الشاطئي لقوات الحلفاء في إفريقيا الشمالية، امتثالا لأوامر حكومة فيشي. لم يذعن السلطان لتعليمات المقيم العام الراغب في نقله مع المخزن إلى مكناس، وأكد: "الحلفاء أصدقاؤنا، وسأمكث هنا لاستقبالهم"، وتحول المغرب إلى إحدى قواعد الحملة الهجومية ضد قوات المحور في أوربا، وإلى فاعل مهم في نجاح الإنزال الشاطئي في إيطاليا وكورسيكا ومقاطعة بروفانس الفرنسية. وشارك الجنود المغاربة في اختراق غاريغليانو وتحرير روما، وفي حملة فرنسا كذلك. وقد شكل الجنرال لوكلير دو هوتكلوك، الذي كان مدربا في المدرسة العسكرية

بالدار البيضاء، جزءا من الفرقة المصفحة الثانية في المغرب. ومن جهته، اعترف الرئيس فرانكلين روزفلت بدور المغرب خلال مؤتمر أنفا، في يناير 1942. أما نوغيس، المنضم لدارلان ثم للجنرال دوغول، فأجبر على مغادرة منصبه مع وصول دوغول للجزائر والذهاب للمنفى في البرتغال.

بعد استسلام ألمانيا في رانس ثم برلين في 8 ماي 1945، زار سيدي محمد فرنسا، متوجها إليها على متن الطرادة "غلوار"، وأجرى مباحثات مع الجنرال دوغول حول مستقبل العلاقات بين المغرب وفرنسا. توجه السلطان للجنرال قائلا: "إن مثل الحرية والمساواة والتقدم والعدالة والحضارة الحقة التي ما فتئت تذكي فرنسا مراحل تاريخها المجيد لهي أكبر ضمانة لنجاح العمل الذي نواصل القيام به جميعا "، ليرد عليه دوغول: "أمام المغرب وفرنسا اللذين توطدت العلاقة بينهما مجددا بفعل الدم المشترك المسكوب في ساحة الحرب، تنفتح أفاق مشرقة ". ويوم 18 يونيو 1945، بمناسبة إحياء الذكرى الخامسة لنداء لندن، وبعد الاستعراض العسكري للقوات المنتصرة، وشح الجنرال دوغول السلطان بوسام صليب التحرير فغدا رفيقا للتحرير. وفي مذكراته (الجزء الثاني)، يلخص رجل الدولة الفرنسي علاقاته مع العاهل كاتبا "نسجت مع السلطان محمد بن يوسف روابط صداقة شخصية. لكننا عقدنا كذلك نوعا من الاتفاق للتفاهم والعمل المشترك لم يخرقه أي واحد منا أبدا، وذلك طيلة المدة التي كنت شخصيا أتحدث إليه باسم فرنسا". أجل، فانسحاب الجنرال دوغول من الحياة السياسية في 1946، أعاق فتح حوار من شأنه أن يؤدي إلى إلغاء نظام الحماية، وفق المطالب المعبر عنها من قبل السلطان في اللقاء السالف الذكر.

أما بخصوص موقف السلطان من الطائفة اليهودية، التي كان من الممكن أن يصبح وضعها كارثيا خلال الحرب العالمية الثانية، فثمة كتابات وفيرة حول الموضوع. ويمكن للقارئ العودة خاصة، في هذا الصدد، لمؤلف روبير أسراف "محمد الخامس ويهود المغرب في عهد فيشي"، الصادر باللغة الفرنسية (باريس، منشورات بلون، 1997). وسأكتفي في هذا المقام بسرد تصريحين للسلطان يشهدان على عنايته بهذه الجالية واهتمامه بالدفاع عنها. يتعلق

التصريح الأول بما ورد على لسان العاهل حين أكد: "إني أرفض كليا القوانين الجديدة المعادية للسامية، كما أني لا يمكنني أن أقبل أمرا أشجبه. ولأحيطكم علما أن اليهود سيبقون كما كانوا في الماضي تحت حمايتنا، وأرفض أن يكون بين رعاياي أي نوع من أنواع التفرقة والتمييز" (تصريح بمناسبة عيد العرش مثبت في وثيقة عثر عليها حاييم زعفراني ضمن أرشيف الخارجية الفرنسية، وقدمها لأول مرة أثناء دورة أكاديمية المملكة المغربية في دجنبر 1985). وخلال عيد العرش يوم 18 نونبر 1943، صرح السلطان للأعيان اليهود الوافدين لتقديم التهاني له، والذين خصص لهم استقبالا حارا، أنهم رعاياه، مثل المسلمين، وأنه يحميهم ويحبهم بهذه الصفة. وبعد أن قال إن المسلمين كانوا وسيظلون إخوانهم وأصدقاءهم، طلب منهم سؤال شيوخهم ليعلموا أن سلفه العظيم، مولاي الحسن، كان صديقا حقيقيا لليهود وأبدى في عدة مناسبات رعايته الجلية لهم. إثرها، ذكر السلطان الأعيان الحاضرين أن أسلافهم عرفوا الحسن الأول متمتعا بهذه الصفات وأحبوه بفعل ذلك، مضيفا أنه يريد شخصيا الحفاظ على نفس الموقف إزاء الطائفة وتمتيعها بنفس الرعاية.

وشخصيا أكد لي والدي وأقرباء آخرين، بالإضافة لصهري ألبير بنسيمون الذي شغل منصب رئاسة مجلس الطائفة اليهودية بالرباط، أنهم لاحظوا جميعا بالملموس، في إطار معيشهم اليومي، النتائج المترتبة عن مجهودات السلطان قصد التصدي لتطبيق الإجراءات التمييزية ضد اليهود، ومن جهتهم، كان معاونو العاهل يواصلون عمله الرامي إلى تدارك التنكيد والشطط. وحدث أن تعرض أب لأربعة أطفال للطرد من منزله ومن عمله، مثلما حدث بالضبط لأبي لما تم فصله من الشركة المغربية، وهي شركة تجارية كان مقرها الاجتماعي يقع في زنقة طهران بباريس. طلب الضحية مساعدة حاييم بوطبول، فعرض هذا الأخير القضية أمام أنظار السلطان الذي وفر لهما فرصة لقاء المراقب المدني. وحين استقبالهما، وبخ الموظف الفرنسي حاييم بوطبول قائلا: "أما أنت، فإنك خياط جلالته، وهذا، من يكون؟" بعد استعراض حاييم للملتمس موضوع الزيارة، جاء جواب المراقب المدني ليكون له وقع شفرة المقصلة: "سأرى ما

الذي أستطيع القيام به وسأخبركما بذلك". وبالطبع، لم تترتب عن اللقاء أدنى نتيجة.

في سنة 1940 ، كان ميمون بوطبول، ابن عم حاييم بوطبول الذي لم يعد شريكا له منذ 1936، يتوفر على متجر داخل القصر الملكي بالرباط. ونظرا لمكانته لدى السلطان سيدي محمد الذي يعرفه جيدا منذ كان مراهقا، فقد كان مسموحا له بالتزود بكمية السكر اللازمة لتجارته ولاستعماله الشخصي، دون الخضوع لنظام الحصص. هكذا، وبالإضافة للكميات التي يزود بها القصر، كان ميمون بوطبول يستطيع مساعدة المعوزين في حقبة استفحال السوق السوداء تلك. وبما أن ثقة السلطان فيه كانت تتجاوز درجة الثقة الممنوحة لمجرد تاجر وفي يتعامل مع القصر، فقد طلب منه الذهاب إلى فاس ليُحضر له منها نماذج من المطبوعات التي وزعتها الإقامة العامة على اليهود لإحصاء ممتلكاتهم، بما في ذلك الأواني المنزلية الفضية! وأثار هذا الإجراء المقيت استنكار سيدي محمد ، فانتقل إلى مرحلة الهجوم ضده ليتم تجميده. وبعد الإنزال الشاطئي لقوات التحالف في المغرب سنة 1942، أصدر السلطان أوامره للباشوات كي يعملوا، بتنسيق مع رؤساء المجالس المحلية للطائفة اليهودية، على إتلاف كل التصريحات بالممتلكات المعبأة من طرف مسؤولي المخزن، وقد أكد لي سيرج بيردوغو، الكاتب العام الحالي لمجلس الطوائف اليهودية بالمغرب، أن والده، رئيس مجلس مكناس أيامها، من بين من قاموا بالمهمة المذكورة. أجل، وفي مواجهة إقامة عامة معادية، قاوم السلطان وقام بكل ما في وسعه لمواجهة الإجراءات الجائرة والعنصرية.

كان أبناء حاييم بوطبول (1883 - 1967): رفاييل ومسعود وآرون (هنري)، يساعدون والدهم في عمله كخياط للسلطان وأفراد العائلة الملكية. أما ابنه البكر جوزيف، المزداد في 5 يناير 1906 والمستخدم في إحدى الشركات الخاصة، فكان يمد يد العون على المستوى الإداري كما ربط علاقات متينة مع الكاتب الخاص للسلطان. وفي البدء، وقبل الالتحاق بوالده في العمل، كان رفاييل، المولود سنة 1908 ، صائغ مجوهرات، وسيصبح لاحقا الخياط الرئيسي لمحمد الخامس والحسن الثاني. أما مسعود، المزداد في

1912 ، فكان كذلك حلاق العاهل لأن الحلاقة مهنته الأصلية.

واجه حاييم بوطبول وعمره 24 سنة، وقتا وجيزا بعد عقد قرانه على رحمة ساسون، تجربة فريدة أثرت عميقا على سلوكه لاحقا. وذلك إثر الصراع بين ابني الحسن الأول، مولاي حفيظ ومولاي عبد العزيز، الصراع الذي نتج عنه لجوء الأخير إلى طنجة، هام حاييم على وجهه خلال عدة أيام قبل الحلول بتطوان، راكبا بغلة تارة و ماشيا على قدميه تارة أخرى، يصاحبه في نكبته رفيقا طريق. وهناك، استضافته عائلة يهودية من المدينة، بينما أهله يعتقدونه مفقودا. بعدها، سيروي حاييم مغامرته، وهي الحكاية التي أخبرتني بتفاصيلها بيرلا بنسوسان، بنت أخته التي تزوجت سنة 1947، في سنتها الثالثة والعشرين، من شارل بنسوسان، ابن عائشة ساسون. في بيت العائلة اليهودية التطوانية، اقتسم الضيف وعابرا السبيل، المرافقان له والجائعان مثله، طبق كسكس ساخن. غمس حاييم يده برمتها في الطبق فأحسها تلتهب، ليتعلم أنه لا يجب غمس الأصابع في الطبق بل الاكتفاء بلم الكسكس من فوق حيث يكون أقل سخونة! بعد ذلك، سيبعث بأخباره لأسرته من طنجة، ونظرا لنجاته من موت محقق، فقد أوصى كل أقاربه بعدم طرد المتسولين، بل حسن استقبالهم والعناية بهم جيدا. وقد صار يقيم كل شهر غشت، الذي يصادف فترة حلوله بتطوان، حفلا لكل المستخدمين لديه، ويحرص خلال الحفل ذاك على تقديم الطعام للمدعوين بنفسه. إن الاعتراف بالجميل والتضامن قادا خطاه طوال حياته، ولم يكن يعامل مستخدميه بشكل لائق فقط، بل كان يدفع راتبا للمتقاعدين منهم.

كان حاييم، المؤمن بالله حتى النخاع والمتشبع بكون كل حركات وسكنات الإنسان تجليات للإرادة الربانية، حريصا على احترام عطلة السبت المقدس (شبت)، مثل صهره وسلفه أبراهام ساسون. ومن ناحية ثانية، كان يتميز بالبشاشة، يقدر الطرافة ويحب تبادل النكت وممارسة الخدع مع أصدقائه وأفراد عائلته. وإذا كان يتحدث بسهولة الدارجة العربية والعبرية - العربية، فإن اللغة الفرنسية كانت مستعصية على فهمه. زوجته الأولى وأم جميع أطفاله، رحمة ساسون، كانت ترافقه يوميا إلى القصر حيث تدير متجرا صغيرا

في خدمة نساء البلاط أساسا، تاركة الأشغال المنزلية على عاتق ابنتهما البكر حسيبة (أليس).

أما ميمون بوطبول، العامل هو الآخر في خدمة القصر، فعلاقاته مع العائلة الملكية كانت مطبوعة بالثقة والحميمية. ومثله مثل ابن عمه حاييم، وأبراهام ساسون، كان يحترم بطقس الفرحة التقليدي القاضي بإهداء السلطان وعائلته أطباقا منتقاة من المطبخ اليهودي المغربي. وبهذه المناسبة، كانت أم سيدي عبلة، زوجة سيدي محمد منذ 1926 وأم خمسة من أطفاله الستة، تستقبل آل بوطبول في إقامتها وتدعوهم لمشاركتها الأكل، في احترام تام لطقوس الطعام اليهودية. وكل عيد عرش، 18 نونبر، كان المسؤول عن الأطعمة بالقصر يهدي العائلة، بأوامر دقيقة من السلطان، كميات كبيرة من الحلوى.

وثمة حكايات أخرى سمعتها على لسان بيرلا بنسوسان التي عادة ما كانت ترافق عائشة ساسون إلى القصر الملكي بالرباط، أي الزوجة الثانية لحاييم بوطبول، صهرها الذي عقد قرانه عليها بعد وفاة أختها رحمة كما تقتضي ذلك تقاليد زواج السلفة اليهودية، وقصص وصلتني على لسان مسعودة، أخت عائشة ووصيفة أم السلطان، أم سيدي الياقوت. ذات يوم، وجدت بيرلا نفسها مع عمها، حاييم بوطبول، في الطريق إلى مكناس، داخل سيارة تتبع حافلة صغيرة يقودها السلطان بنفسه، ترافقه على متنها زوجته وبضع نساء من محيطه. وقبل الوصول إلى المدينة، توقف الجميع للاستراحة، فترك السلطان الحافلة ليطلب من حاييم بوطبول المرور بسيارته إلى رأس الموكب الصغير. حينها، لاحظ وجود بيرلا، وعمرها آنذاك حوالي أربعة عشر سنة، فسأل عن علاقتها العائلية مع خياطه، ولما علم أنها بنت أخيه، دعاها لركوب الحافلة الصغيرة لمرافقة أقربائه.

زوجة سيدي محمد، أم سيدي عبلة، أم مولاي الحسن (الحسن الثاني)، الابن البكر للسلطان المزداد في 9 يوليوز 1929 ، كانت مصممة على أن تضع عائشة، الزوجة الثانية لحاييم بوطبول، الحجاب والجلباب حين ركوبها معها سيارتها. ولم تكن عائشة متفقة مع هذا القرار، هي التي كانت تفضل ارتداء ملابس محتشمة بالطبع، لكن مختلفة عن أزياء النساء المسلمات، وانتبه لها

السلطان ذات يوم فأبدى مفاجأته من زيها ، ليعرف سبب ارتدائها لباسا من ذلك القبيل ويدعوها إلى وضع الملابس التي تروقها، فأسرعت للتخلص من الحجاب. وأثناء زياراتها للقصر الملكي بالرباط، كانت عائشة تحظى بمجالسة أفراد الدائرة الضيقة المكونة من نساء السلطان وأقرب أقاربه. هكذا، كانت تشارك، على سبيل المثال، في تهييئ الوجبات العائلية. وذات مرة، وهي تستعد لإعداد لحم مفروم (كفتة) موجه للشواء ليتناوله السلطان، لاحظت تحفظ أم سيدي عبلة فتراجعت عن مباشرة التحضير. دقائق بعد ذلك، جاء سيدي محمد، دهش من عدم مشاركتها في تهييئ الوجبة فأحاطته علما بالسبب. حينها، قال إنه ليس منطقيا تثمين الأطباق المطبوخة من طرف عائشة وأسرتها والمجلوبة بانتظام للقصر من جهة ، ومن جهة ثانية منعها من المشاركة في إعداد وجبات أكله. وقد جعلت هذه الملاحظة الحازمة عائشة تعود بسرعة لمباشرة التحضير.

مع نهاية سنة 1942 ، سيمر آل بوطبول بظروف عصيبة. أجل، في صباح 8 نونبر من تلك السنة، تم إنزال طلائع الجنود الأمريكيين بالدار البيضاء بحريا ، ليقوم المقيم العام، خلافا لرأي السلطان، بمقاومة شرسة للقوات المتحالفة، مما سيؤدي إلى سقوط حوالي ألف قتيل في صفوف الجيش الفرنسي والمدنيين. بعدها ، سيصدر العاهل أوامره بوقف المواجهات، وهي الأوامر التي امتثل لها نوغيس، المقيم العام، خاصة وقد تزامنت مع تعليمات الأميرال دارلان الوافدة، باسم الدولة الفرنسية، من الجزائر والقاضية بوقف قوات إفريقيا الشمالية لإطلاق النار. خلف موقف اليهود المغاربة المرحب بالجنود الأمريكيين غضب العسكريين الفرنسيين المنتمين لليمين المتطرف، فهاجموهم ودعوا الجنود وبعض الأعوان المسلمين إلى مجاراتهم في هجوماتهم المناهضة للسامية. وبالإضافة إلى تطويق ملاحي الرباط وسلا واعتقال عشرات اليهود ، حرر رجال الشرطة تقارير عدوانية موجهة للسلطان حول "عجرفة وبذاءة" رعاياه المعتنقين للديانة اليهودية.

ظل والدي ، شارل ساسون، يتذكر جيدا هذه الفترة. وبالفعل، فابنه الثالث، دانييل، ازداد في 4 نونبر 1942 ، أي أربعة أيام قبل الإنزال. ورزق أخوه، سام

ساسون، بابن ثالث هو الآخر، ألبير، واحدا وعشرين شهرا قبل هذه الأحداث، في 2 فبراير 1941 بالضبط. ومن جانبي، وعمري آنذاك سبع سنوات، أتذكر رؤية جنود أمريكيين في شوارع الرباط، وخاصة داخل مقر شركة تجارية فرنسية (شركة نانتيز) المقابل لمنزل عمي سام، حيث أقاموا مركز قيادتهم مؤقتا. كان بعضهم يزورون عمي وعمتي، حاملين هدايا بسيطة خاصة لأصغر أبنائهم الذي كانوا ينادونه "بايبي"، لقب سيستعمله كذلك إخوة ألبير وأبناء عمومته للنداء عليه بدل اسمه.

ويبدو أن التقارير المكتوبة بسوء نية كانت وراء قرار منع حاييم وميمون بوطبول وأفراد الأسرة من ولوج مقر عملهما داخل القصر، ومعها مشاركة اثنين من أبناء الأول في المظاهرات المساندة للجنود الأمريكيين. وعقب التدخل الودي لكل من قائد القصر، فرجي، المقرب جدا من سيدي محمد، لأنه يعرفه منذ سن الطفولة والمراهقة، والقائد باعيسى، الذي كان يكن معزة خاصة لميمون بوطبول، تم السماح لزوجة هذا الأخير، حنا، باستئناف مهامها داخل القصر. ومن جهة أخرى، نصح بعض ذوي النيات الحسنة آل بوطبول بالتماس العفو الملكي، وهو ما فعلوه باللجوء إلى طقس الزواج التقليدي المتمثل في طلب شفاعة السلطان عبر ذبح ثور أو عدة ثيران أمام القصر، والطقس هذا يرمي إلى تذكير أمير المؤمنين بواجباته الشرعية في حماية رعاياه اليهود. وبعد شهر من إعلان التوبة، نال آل بوطبول عفو السلطان لتعود المياه إلى مجراها الطبيعي .

خطاب طنجة في 10 أبريل 1947

تجسدت ثاني قطيعة في عهد سيدي محمد، وعمره حينها أربعين سنة، في المطالبة، جهارا ورسميا، بإنهاء نظام الحماية وبالسير قدما في اتجاه استقلال بلاده والتشبث بوحدتها الترابية. هكذا إذن، وبعد ثورة الساكنة الريفية في نهاية حكم مولاي يوسف، والاحتجاجات القوية للسلطان والوطنيين المغاربة في 1930 إثر إصدار الظهير البربري، والطلب الحازم الموجه للجنرال دوغول في 1945، بعد كل هذا، ها هو العاهل يجدد ذات المطلب يوم 10 أبريل

1947 ، بمناسبة خطاب طنجة التاريخي الملقى في حدائق المندوبية السلطانية بالمدينة.

وفي خطاب طنجة، ذكر العاهل بأن المغرب دولة إسلامية عربية إفريقية موحدة الأطراف رغم الاستعمار، تواقة إلى استرجاع سيادتها ووحدتها الترابية، موحيا برفض الانخراط في الاتحاد الفرنسي، ومتناسيا تقديم عبارات الشكر المعهودة للدولة الحامية.

وفي أواخر ماي من نفس السنة، بمناسبة استقباله للمقيم العام الجديد الجنرال جوان، سيكرر سيدي محمد أمام مسامع ممثل فرنسا: "أن للمغاربة، بعدما شاركوا في تحرير فرنسا من الاحتلال الألماني تطلعات ومطامح مشروعة".

وجدير بالتذكير أن عريضة المطالبة بالاستقلال (11 يناير 1944)، كانت قد تضمنت مطلب استقلال المغرب، في توافق تام بين الحركة الوطنية مع مبادرات السلطان، ومع خطاب طنجة التاريخي غدا التنسيق أعمق. ومعلوم أن الجنرال دوغول، الذي سبق وأعطى السلطان جوابا ينم عن روح انتظارية (ضرورة انتظار إقرار دستور فرنسي جديد لمراجعة علاقات باريس مع المغرب)، كان قد اتخذ بعض الإجراءات للتهدئة: إقالة المقيم العام غابرييل بيو، المسؤول عن القمع في يناير وفبراير 1944، تجريد الباشاوات والقواد المساعدين له في تلك الأحداث من مهامهم، إطلاق سراح الوطنيين المعتقلين في 1937 و 1944، ومنح الترخيص بالصدور للجرائد الوطنية (العلم وعمل الشعب الصادرة بالفرنسية).

أثار خطاب طنجة صدى كبيرا، إذ أقيل الجنرال إريك لابون من منصبه في الإقامة العامة، حيث عين سنة 1946 خلفا لغابرييل بيو، وكان على إلمام دقيق بالمغرب - الذي اشتغل فيه من 1926 إلى 1928 - ومعرفة جيدة بالسلطان، والذي مارس سياسة قريبة من سياسة الجنرال ليوطي. هكذا تم تعيين الجنرال ألفونس جوان من أجل إضعاف الحركة الوطنية وإخضاع سيدي محمد، بل طلب منه، وفق أوامر صارمة لمجلس الوزراء الفرنسي، بتهديد السلطان بالخلع من العرش إن هو تمادى في معارضة أهداف الإقامة العامة.

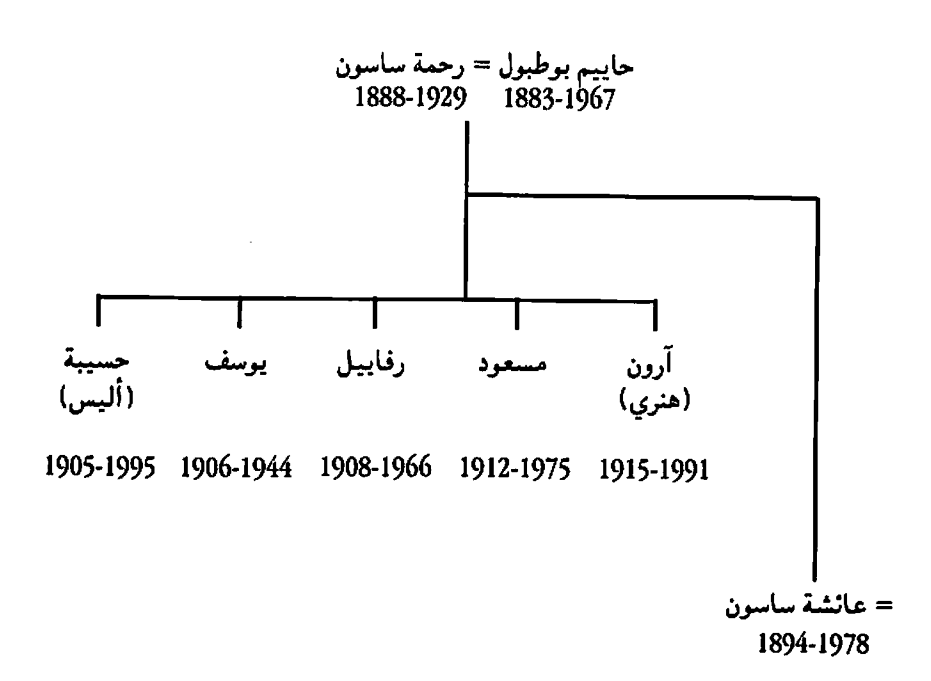
ولد ألفونس جوان بعنابة في 1888 من أب دركي، وتخرج من مدرسة سان-سير العسكرية في 1911، وعمل في المغرب داخل إحدى وحدات الرماة من 1912 إلى 1941، ثم صار مرافقا عسكريا للجنرال ليوطي، قبل مشاركته في حرب الريف عام 1925 وتعيينه رئيسا للديوان العسكري للمقيم العام في الرباط في 1931. وفي بداية الحرب العالمية الثانية، سنة 1940، قاد الفرقة الآلية الخامسة عشر، سجن في ليل وأطلق سراحه في 1941. وفي شهر نونبر من السنة نفسها، سيحل محل الجنرال فييغاند على رأس القوات الفرنسية لشمال إفريقيا، وإذا كان قد عارض الإنزال الشاطئي لقوات الحلفاء في نونبر 1942، فإنه انضم لصف الجنرال جيرو وقاد الجيوش الفرنسية في مواجهاتها مع القوات الجرمانية-الإيطالية في تونس سنة 1943. وعقب تحرير البلاد، أصبح مقيما عاما في تونس حيث سارع إلى خلع منصف باي. وفي إيطاليا، وهو على رأس الحملة العسكرية الفرنسية، انتصر في معركة غاريغليانو التي شارك فيها العديد من الجنود المغاربة، فاتحا بالمناسبة الطريق إلى روما للحلفاء. بعدها، سيصبح رئيسا لأركان الدفاع الوطني للحكومة المؤقتة بالجزائر سنة 1944، قبل تحمل مسؤولية الإقامة العامة بالمغرب من 1941 إلى 1951، ليعين لاحقا مفتشا عاما للقوات المسلحة الفرنسية بين 1951 و1953، وينال رتبة ماريشال دو فرانس في 1952.

الفصل الرابع

سيدي محمد بن يوسف:

من "إضراب الخاتم" إلى المنفى

(1953 -1947)



الأزمة مع الإقامة العامة: "إضراب الخاتم"

أبان الجنرال جوان بشكل فظ، أنه "حامي" المغرب وأن سلطته مطلقة. حظر على ولي العهد، مولاي الحسن، وأخته لالة عائشة، إلقاء أي خطاب عمومي رغم أنهما دأبا على ترؤس عدة فعاليات في المدارس الحرة، علما أنه اعترض، كذلك، على صفة ولاية العهد رغم حصول الابن البكر لمحمد الخامس عليها في 1931. ودعا المقيم العام السلطان إلى منع رعاياه من الهتاف، في حضرته، بشعارات "عاشت الحرية" و"عاش الاستقلال". وأمام موقف متسم بهذا القدر من العجرفة، بعث السلطان، في 2 دجنبر 1947، برسالة احتجاجية لرئيس الجمهورية الفرنسية، فانسون أوريول، يندد ضمنها بمناورات وتجاوزات وانتهاكات المقيم العام، وكذا بالتدهور المتواتر للعلاقات الفرنسية-المغربية. وبدل التهدئة، استمر التضييق على أفراد العائلة الملكية، وخاصة ولي العهد. وبمناسبة استقباله من لدن أكاديمية العلوم الكولونيالية في 18 نونبر 1949، أثار الجنرال جوان "السيادة المشتركة الفرنسية-المغربية"، ليقر بعدها، في 14 دجنبر 1949، أمام مجلس الحكومة أنه "ليس في المغرب سوى عاهل واحد، جلالة السلطان".

في مواجهة هذا الموقف المعادي عمدا، اتخذ السلطان تكتيك "حرب العصابات السياسية" أي الرد وتقوية موقعه، ثم التقدم من جديد لتدعيم مكتسباته. استفحلت الأزمة وتوترت العلاقات لدرجة استدعى معها فانسون أوريول، ورئيس وزرائه الجديد روني بليفن، السلطان وابنه لزيارة فرنسا في أكتوبر 1950، فوصلا بوردو على متن البارجة جورج ليبغ، وحصل الأمير مولاي الحسن من كلية الحقوق بالمدينة على أول دبلوم له. وفي باريس، أجرى السلطان، الذي كان قد كون ديوانا ملكيا يرأسه امحمد باحنيني وينوب عنه فيه إدريس الشيكر، محادثات مع الرئيس فانسون أوريول، بحضور وزير الشؤون الخارجية، جورج بيدو، والجنرال جوان. وقدم سيدي محمد مذكرة أولى تلخص نظام الحماية منذ إقراره، وتطالب باحترام سيادة المغرب ووحدته ووحدة ترابه الوطني. وفي غياب جواب مقنع، سلم العاهل، الذي مدد إقامته في باريس، مذكرة ثانية في نونبر 1950 تثير انتباه المسؤولين الفرنسيين إلى

ضرورة فتح مفاوضات بشأن مراجعة عقد الحماية، تفاديا لما لا تحمد عقباه من القلاقل وصونا للصداقة بين الشعبين. وقبل عودته إلى المغرب، نشر السلطان بلاغا، معلنا من خلاله فشل المفاوضات ومعبرا عن أمله في أن تعترف الحكومة الفرنسية بعدالة المطالب المغربية.

وفي المغرب، أدى التوتر المستفحل إلى القطيعة بين سلطات الحماية وممثلي الحركة الوطنية، كما يشهد على ذلك ما حدث في دجنبر 1950، بمناسبة انعقاد مجلس شورى الحكومة برئاسة الجنرال جوان وحضور 11 مناضلا من حزب الاستقلال. انتقد كل من أحمد اليزيدي، في 6 دجنبر، ومحمد الغزاوي، مقرر ميزانية الأشغال العمومية، في 12 دجنبر، إدارة الحماية بسبب لامبالاتها بمصالح المغرب. المقيم العام الذي كان مرفوقا حينذاك بالجنرال دوفال، القائد العام للجيش بالمغرب، والذي باغتته انتقادات المتدخل الأول واعتبرها مهينة، أمر بطرد المتدخل الثاني من الاجتماع، وبعده باقي أعضاء حزب الاستقلال الحاضرين. وبمجرد حصول الواقعة، توجه هؤلاء إلى القصر ليتم استقبالهم من طرف السلطان.

اندلعت المواجهة بين العاهل والمقيم العام، وهي المواجهة التي ستؤدي إلى خلع السلطان من عرشه في وقت قريب. ولمهاجمة القصر، استعان الجنرال جوان بحليف هو باشا مراكش، التهامي الكلاوي، الموسوم بكونه إقطاعيا مسكونا بطموح لا حدود له. وبمناسبة مراسيم تقديم تهاني عيد المولد النبوي، الموافق لـ 23 دجنبر 1950، وقعت مشادة بين طاغية الجنوب والسلطان. قال الأول للعاهل إنه لم يعد سلطان المغرب، بل سلطان حزب الاستقلال الشيوعي والملحد! إثر هذا، تم طرد الباشا وإخباره بمنعه إطلاقا من زيارة القصر كيفما كانت المبررات. هذا الحدث مثل أحد وجوه الحرب المعلنة من جهة المقيم العام ضد السلطان الذي كان يجابه المؤامرة ومعه شعبه والمناضلون الوطنيون. وبالإضافة للافتراء وتعبئة الكلاوي لأنصاره، اتخذت المجابهة مسلك الضغط القوي على العاهل كي يوافق على المراسيم والظهائر المهيأة من طرف الإقامة العامة، إثر إقدامه على ما سمي بـ "إضراب الخاتم" عبر رفضه الانصياع لممارسات منافية لمبادئ معاهدة الحماية لسنة 1912 المقرة لسيادة مغربية-

فرنسية مشتركة. تفاقم الصدام بفعل الغضب المتزايد للجنرال جوان الذي طالب، وقد اختلط عليه الحابل بالنابل، بحل الديوان الملكي، وإقالة الوزراء المتهمين بالتعاطف مع الحركة الوطنية، خاصة الحاج أحمد بركاش، وبضرورة تنديد السلطان علنيا بحزب الاستقلال. يوم 26 يناير 1951، وقبل الذهاب إلى واشنطن إذ كانت حكومة بلاده ترغب في توليه منصبا قياديا داخل الحلف الأطلسي، وجه الجنرال جوان إنذارا للعاهل: إما شجب حزب الاستقلال علانية، وإما إجباره على التنازل عن العرش أو خلعه. رفض السلطان الإنذار، بينما كتب الجنرال جوان، في تقريره المرفوع لوزارة الخارجية الفرنسية، أنه، وأمام الاعتراض الجلي للسلطان، طلب منه شجب ممارسات حزب الاستقلال بشكل علني، وليس الطعن في إيديولوجيته، وتحديد موقفه من فرنسا بوضوح. وعقب عودته إلى الرباط، مطلع شهر فبراير 1951، أجرى المقيم العام مباحثات مع ولي العهد مولاي الحسن الذي أذن له والده بلقاء المقيم العام. لكن الرفض استمر سيد الموقف، ليعلن السلطان للمقيم العام في 12 فبراير 1951 أن شجب الوطنية المغربية يعني إدانة الذات والتنازل عن صفة العاهل، الصفة التي تضمنها معاهدة فاس.

لم تتوقف التهديدات والضغوطات والمناورات، مما جعل السلطان يعرضها على الرئيس فانسان أوريول، لكن مساعيه ذهبت سدى، إذ طلب منه الرئيس الخضوع. والجواب هذا يعكس موقف الحكومة الفرنسية المدعوة للتداول حول القضية المغربية، والتي سيؤكد وزير خارجيتها روبير شومان، ومعه الرئيس فانسان أوريول في مذكراته، أن الجنرال جوان لم يحصل على أي تفويض لخلع السلطان. وفي الميدان، قامت الإقامة العامة، بتواطؤ مع الباشا الكلاوي، بحشد جنود من الأطلس للتحرك إلى فاس، واتخذ الجيش مواقعه حول القصر وتم تجريد الحرس الملكي من السلاح، لتعم إشاعة مفادها "أن طائرة حربية مستعدة للإقلاع ونقل السلطان إلى وجهة مجهولة". كان التوتر في ذروته إذن عندما حضر المقيم العام إلى القصر في 25 فبراير 1951، ومساء نفس اليوم، سيوقع السلطان البروتوكول المقدم له الذي طلب منه أن يؤكد فيه : "كنا (نحن السلطان) ولن نزال فوق الأحزاب والهيئات السياسية"،

وأنه سيتخذ الإجراءات اللازمة في أقرب الآجال " سعيا في عدم إبقاء الأمور سائرة نحو هدف يضر بصالح البلاد"، مبينا لمبعوث الإقامة العامة، السيد دو بليسون، أنه يعتبر البروتوكول فاقدا لكل قيمة قانونية نظرا لتوقيعه إياه تحت الضغط ولتجنب إراقة الدماء.

انتهت المواجهة بالانتصار المكلف للمقيم العام، وترك هذا الأخير المغرب في 1951 لتسلم القيادة العليا لقوات الحلف الأطلسي في وسط أوربا. وقبلها، عين خلفه في الإقامة العامة، الجنرال أوغستان غيوم، وهو التعيين الذي سيصادق عليه رئيس الحكومة، هنري كوي، ووزير الشؤون الخارجية، روبير شومان.

وبالنسبة ليهود المغرب، شكل التوتر بين السلطان والإقامة العامة مصدر مكابدة لهم على أكثر من مستوى، إذ علمتهم التجارب، خلال الحرب، أن عداوة أنصار الاستعمار ودعاة فرض الحماية على المغرب إزاءهم مستمرة. وبالفعل، فالتاريخ المعاصر للمغرب شاهد إثبات على أن حقب التوتر وانعدام الاستقرار السياسي تسبب ضررا جسيما لطمأنينتهم، بل ولوجودهم. وكانت الإقامة العامة، على مستوى آخر تسعى لإشعال فتيل التفرقة، باذلة قصارى جهدها لدفعهم إلى المواجهة مع مواطنيهم المسلمين، أو مدعية أن استقلال المغرب سيعرض أمنهم لأخطار بالغة. وفي الواقع، فالحيرة سكنت يهود المغرب، أو على الأقل القادرين منهم على تتبع الأخبار والتشبع بوجهة نظر، بفعل تكوينهم أو وضعهم الاقتصادي والاجتماعي. وقد انخرط كثيرون منهم في صف الكفاح من أجل استقلال المغرب، لكن دون نكران ما يدينون به لفرنسا من أعمال لتحررهم، خاصة في مجالات التربية والتكوين، وذلك رغم أنواع التمييز المعادي لليهود أثناء الحرب.

* * *

إذا كان حاييم بوطبول وابنه رفاييل قد استمرا في خدمة عاهلهما في الرباط بإخلاص لم ينضب قيد أنملة، فإن مسعودة ساسون ظلت راعية وممرضة

ومرافقة لوالدة السلطان، أم سيدي الياقوت، بقصر فاس، محيطة العاهل باستمرار بمستجدات الوضع الصحي لأمه، مثلما كانت تبادله أطراف الحديث طويلا خلال حلوله بالمدينة في شهر رمضان، بمناسبة ليلة القدر، للاستفسار عن صحة والدته مباشرة وزيارة الأماكن المقدسة للعاصمة الروحية للمملكة. كانت مسعودة تزور بين الفينة والأخرى، هي كذلك، العاصمة الرباط وتقيم عند أختها عائشة في منزل حاييم بوطبول، مستغلة الفرصة للذهاب إلى القصر للحديث مع زوجة السلطان، أم سيدي عبلة. وكانت نقاشاتهما تتمحور حول قضايا الساعة، وخاصة التوتر المحتدم بين الإقامة العامة والقصر، والأخبار الشائعة حول خلع عاهل البلاد ونفيه بمعية أسرته.

وبمناسبة إحدى هذه الزيارات، وجدت مسعودة نفسها شاهدة عيان على نهاية المشادة الكلامية بين السلطان وباشا مراكش، التهامي الكلاوي، وطرد هذا الأخير من القصر، وذلك يوم 23 دجنبر 1950. وفي 1973، ستحكي لي عمتي عن سماعها أصواتا مرتفعة قبل رؤية الباشا مغادرا وهو يومئ بحركة من يده على وجهه بالانتقام قريبا. كانت خيوط المؤامرة قد نسجت بدقة لعزل السلطان، مما سيؤدي إلى نفيه سنتين ونصف بعد هذا الحادث. خشيت مسعودة حدوث أسوأ الاحتمالات مستقبلا، ذلك أن نجاح المؤامرة لن يؤدي إلى كارثة شخصية فحسب، بل إلى مصيبة عائلية. حينها، فكرت في قرارة نفسها بشكل خاص في ابنها رحاميم (رايمون، 1906 - 2001) المقيم في مراكش، والذي استفاد من عناية السلطان ولن ينجو من طاغية حقود مثل الباشا الكلاوي. وفعلا صدق حدسها للأسف، مثلما ستؤكد ذلك الأسابيع التالية لخلع السلطان.

مرت سنة 1951 مضطربة ومضنية. وفي 18 نونبر، سيثير السلطان مجددا، في خطاب العرش، المساعي المبذولة لدى رئيس الجمهورية الفرنسية (19 و 21 فبراير 1951)، وحكومته (22 فبراير 1951)، وفي 5 ماي من نفس السنة كذلك، لعرض مطامح الشعب المغربي والرغبة في أن "تبنى علاقات المغرب بفرنسا على اتفاق يضمن للمغرب كامل سيادته، ويجعل صلته معها على أسس جديدة في دائرة الود والصداقة، واحترام المصالح العليا للبلدين". وضمن هذا

الخطاب، سيكرر السلطان التزامه بمواصلة "الجهود لنيل الرغبات" وإجراء مفاوضات لإيجاد حل لما صار يعرف منذ سنوات بالقضية المغربية، ثابتين على مبدئنا الأسمى، وغايتنا المثلى، وأن النجاح في مثل هذه الأعمال الجليلة منوط بمثابرة لا يعوقها كلل، وصبر لا يشوبه ملل". ولم يفته التأكيد، من جهة أخرى: "وقد سبق لنا أن أعلنا لكم في عدة مناسبات، أن أفضل حكم ينبغي أن تعيش في ظله بلاد تتمتع بسيادتها، وتمارس شؤونها بنفسها، لهو الحكم الديمقراطي الذي يوافق ديننا الحر الكريم (...) إيمانا منا بأن هذا النظام هو الذي يكفل لكل رعايانا أقصى ما يمكن من حرية وعدل وكرامة".

التنحية من العرش والمنفى

أظهر أوغستان غيوم عدوانية شبيهة بعدوانية سلفه، وأبان عن تصميمه على عرقلة استقلال المغرب والمجهودات المبذولة من طرف سيدي محمد بن يوسف في هذا الاتجاه. وحشد، لنيل مبتغاه، القوى الأكثر رجعية سواء في فرنسا أو في المغرب. وبما أن الأمور بخواتمها، فقد أجبر السلطان وعائلته على النفي في 20 غشت 1953.

ما يزال هذا الحدث الحزين منقوشا في ذاكرتي، ذلك أنني تسللت، برفقة عمي، أرمان ساسون، إلى جنبات مطار الرباط، الواقع آنذاك قرب فندق هيلتون الحالي، وتمكنت، عبر السياج، من متابعة ركوب أفراد الأسرة الملكية طائرة تابعة للإقامة العامة. كنت قد نلت شهادة الباكالوريا وأستعد لمتابعة دراستي الجامعية في شعبة العلوم الطبيعية بمركز الدراسات العلمية العليا بالرباط، الذي سيفتتحه الجنرال غيوم سنة بعد ذلك، برفقة الصدر الأعظم الخالد في منصبه، الحاج محمد المقري.

وبالنسبة للشعب المغربي، أعقبت هذا اليوم المشؤوم (الحماقة الإجرامية، حسب تعبير فرانسوا مورياك) مرحلة اضطرابات خطيرة دامت سنتين وتسعة أسابيع وخمسة أيام، لتنتهي في 31 أكتوبر 1955، يوم التحاق السلطان بفرنسا، قبل عودته المظفرة إلى وطنه في 15 نونبر من السنة ذاتها. ومساندين من طرف القوى الاستعمارية المتطرفة في المغرب (منظمة الحضور الفرنسي)

وفي فرنسا، سيطارد رجال الجيش والشرطة الفرنسيين الوطنيين المغاربة ويعتقلونهم، وهي حملة انطلقت في الحقيقة منذ 1948.

مثل القمع الدموي الأعمى الجواب الاستعماري على انتفاضات الأحياء الشعبية في المدن. واستفحل مناخ الخوف وانعدام الأمن بسبب تداخل عدة أحداث: الاعتداءات المسلحة، اغتيالات مست شخصيات فرنسية مناصرة لاستقلال المغرب (جاك لوميغر-ديبروي، المغتال في الدار البيضاء في 11يونيو 1955 على سبيل المثال)، محاولة تصفية بن عرفة داخل المشور من قبل علال بن عبد الله الذي استشهد توا وانعكاسات اغتيال الزعيم النقابي التونسي فرحات حشاد مغربيا. أما مماطلات الحكومة الفرنسية وتغيير المقيم العام، مع التظاهر بالسعي للتهدئة، فلم تنفع في تقويض إرادة الوطنيين المغاربة المطالبين برجوع السلطان من المنفي إلى وطنه وبالاستقلال. وكان علال الفاسي يدعو، من القاهرة، رفاقه في حزب الاستقلال لسلك هذا المنحى وعدم الانزياح عنه قيد أنملة.

وداخل فرنسا، صارت الأوضاع تؤشر على التبدل، إذ أعلن مثقفون مشاهير، ومعهم ثلة من رجال ونساء السياسة المستنيرين نصرتهم للمغرب، ونذكر من بينهم لوسي فور، عقيلة رئيس الوزراء، فرانسوا مورياك الذي ترك جريدة "لوفيغارو" للالتحاق بمجلة "الا إكسبريس" قصد الدفاع أفضل على صفحاتها عن حق المغرب في الاستقلال، وكذلك لويس ماسينيون وشارل-أندري جوليان وجاك بيرك مؤسسي جمعية "فرنسا-المغرب العربي".

وبالنسبة لعائلتنا، أمست المرحلة الموالية لنفي العاهل صعبة ومضنية. وبالفعل، وإثر ترحيل السلطان إلى مدغشقر، بعد محطة كورسيكا، وتتويج بن عرفة تحت ضغط الإقامة العامة، أجبر حاييم بوطبول وأبناؤه على ترك القصر الملكي بالرباط. وحدها مسعودة بقيت إلى جانب أم سيدي الياقوت المقيمة حينها في قصر مكناس. وقبلها، زار بن عرفة والدة السلطان في فاس، لتأمر هذه الأخيرة مسعودة بتقديم التمر والحليب له وفق ما تقتضيه تقاليد حسن الاستقبال، لكن بن عرفة تعرف عليها فوبخها قائلا:

- أنت امرأة شريرة!

- إذا كان هذا صحيحا ، ردت مسعودة ، فأنا مستعدة لمغادرة القصر حالا .

- لا ، أجابها مذعنا ، إنك ملزمة بالمكوث مع أم سيدي الياقوت إلى حين لفظها أنفاسها الأخيرة.

ويعود سبب رد فعل بن عرفة المنزعج إلى تضايقه من مجريات زيارة سالفة قامت بها مسعودة إلى بيته، وكانت قد ظنت أنه البواب وليس رب المنزل! ويلزم التذكير أن بن عرفة لم يكن شخصا مجهولا في أوساط الجالية اليهودية المقيمة في فاس. كان ذا مستوى معيشة متواضع، وهيئة مغمورة، وعادة ما يقتني حاجياته من التجار اليهود ويمضي وقتا طويلا في الحديث معهم. وكان مواظبا على الجلوس، مثلا، أمام متجر بيع المجوهرات لصاحبه إلياهو إسرائيل، صهر حاييم بوطبول ووالد بيرلا بنسوسان، وهو المتجر الواقع في مدخل الملاح عند نهاية شارع بو الخصيصات.

واصلت مسعودة إذن تقديم خدماتها لأم سيدي الياقوت، هي التي التحقت بخدمتها كمرافقة قبل عشر سنوات، كما ساعدتها على تحمل حسرة فراق ابنها الذي وصلها أخيرا نبأ نفيه. وبالمقابل، لم يمنعها ذلك من التعرض لعدة مضايقات ومشاكل، إذ حدث واستدعاها المراقب المدني وباشا مراكش للمثول بين يديهما ، وحاولا انتزاع شهادة منها قصد تشويه سمعة السلطان. لم تنصع مسعودة للمحاولات هذه المدرجة ضمن منهجية مدروسة تبتغي إحداث قطيعة بين العاهل وشعبه، وتهدف إلى تأبيد منفاه. ولشدتها في الملمات، أعلنت مسعودة أنها لا ترى مانعا في الاستجابة للاستدعاءات، شرط أن تتكفل الجهة المستدعية بمصاريف السفر والإقامة في مراكش وفاس. ولمعاقبتها على رفضها التعاون، بعد ثاني استدعاء، سحبت منها رخصتا سيارة الأجرة ودكان بيع الدخان، وفرض عليها أداء سومة كراء منزلها الواقع بفاس. وإثر هذه المضايقات، قررت أم سيدي الياقوت الانتقال للإقامة بقصر مكناس، المدينة ذات المناخ الملائم أكثر لوضعها الصحي.

لم تنقطع عن السلطان في المنفى بأنتسيرابي أخبار والدته، ولا نسي مسعودة. وبمناسبة ازدياد الأميرة لالة أمينة في أبريل 1954 ، زاره وفد مكون من باشا مكناس وبعض الأعيان المغاربة، لتقديم التهاني له أصالة عن أنفسهم

ونيابة عن الشعب المغربي، فسألهم إن كانت مسعودة محاطة بالعناية اللائقة. وعقب عودة البعثة إلى المغرب، حظيت عمتي، الساهرة دائما على صحة أم سيدي الياقوت، برعاية خاصة. وللأسف، تدهورت صحة والدة السلطان بفعل تراكم الحزن والمرض، لتنتقل إلى جوار ربها في حضن مسعودة، من دون أن تتمتع بلحظة فرح أخيرة متمثلة في رؤية ابنها يعود إلى وطنه.

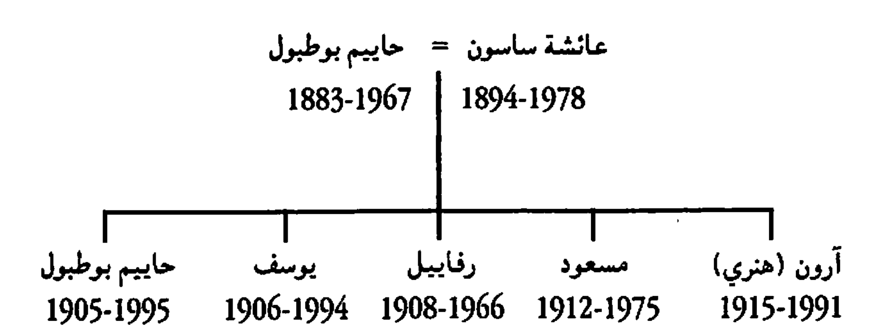
بمجرد وفاة أم سيدي الياقوت، توصلت مسعودة بأوامر بن عرفة القاضية بمغادرة القصر. وبما أنها كانت تعرف جيدا طبائعه، فقد قامت بجرد دقيق لكل مجوهرات الفقيدة وتركت، قبل الرحيل، نسخة من وثيقة الجرد لمأمور قصر مكناس، مثلما طالبت بالتأكد من محتويات الصندوق حيث وضعت المجوهرات. وأخيرا، وهي على أهبة الرحيل من القصر، طلبت من رئيسة الخادمات تفتيش ملابسها شخصيا. فقدت مسعودة راتبها الشهري واستقرت في الرباط في منزل حاييم بوطبول، زوج أختها عائشة. وعلى مستوى آخر، طال حقد الباشا الكلاوي ابنها رحاميم (رايمون) القاطن بمراكش، إذ طرده أعوان القائد من مسكنه، رامين كل أمتعته في الشارع العام، ومحاولين البرهنة بفعلتهم على طي صفحة المظلة الحامية له من جهة، وعلى عودة ممارسات الماضي التمييزية للواجهة من جهة ثانية.

واجه حاييم بوطبول وأطفاله المحن كذلك، وتوصلوا بسيل من الإنذارات تأمرهم بالتصريح بديون السلطان حيالهم، إنذارات صادرة عن السلطات الفرنسية والحكم الجديد الساعين إلى تشويه سمعة السلطان وأفراد عائلته المنفيين، لكن العائلة رفضت الإذعان للمخطط مبرئة ذمة العاهل من أي دين. وكنت على علم، وأنا أستمع لأحاديث والدي وقتها، بضائقة آل بوطبول المالية، مما فرض على رافييل افتتاح متجر لبيع الملابس المنسوجة لتغطية مصاريف الأسرة. لكن حسن تدبيرهم، وعلاقات القرب والتقارب المنسوجة منذ أكثر من ربع قرن مع السلطان والأسرة الملكية والحاشية، عوامل شدت عضد آل بوطبول لتجاوز تلك المحنة القاسية.

مريرة كذلك هي التجربة التي مر منها ميمون بوطبول، المتوفى في 1953، بعد بتر ساقه الثانية. واصلت رفيقة حياته، حنا، عمل زوجها في

القصر طوال عشر سنوات، وعلى الخصوص في خدمة نساء البلاط. وقد كن يشعرن بمودة عميقة حيالها، مثلما تميزت هي بالتضامن معهن في غشت 1953. أجل، وعقب الهلع المنبثق عن تتويج بن عرفة، غادرت أغلبية النساء قصر الرباط. إحداهن، أم الخير أو خيرة، لجأت إلى طنجة عند سيدي محمد بن مولاي عبد العزيز، ابن السلطان المولى عبد العزيز. ولم تتخلف حنا عن زيارتها والتكفل بها، إذ حلت خيرة، لمدة سنتين، ضيفة على صهرها جوداه وابنتها سوزان أتياس. كانت خيرة تؤمن حتى النخاع بعودة السلطان، ولما تحققت أمنيتها في نونبر 1955، عادت بها سوزان أتياس إلى قصر الرباط، قرب العاهل وابنه مولاي الحسن. وتجسد ترونجا، المكلفة بمراقبة خادمات بيت السلطان، مثالا آخرا للتضامن والمودة، حيث إنها رافقت حنا وابنها داوود وابنتها سوزان في حزنهم على وفاة ميمون بوطبول، وفاة لن يعلم السلطان بأمرها إلا في 1955 ليبدي إزاء داوود، ابن الفقيد، عناية مستلهمة من المودة التي كان يكنها لوالده منذ انتقال مولاي يوسف إلى جوار ربه.

الفصل الخامس
محمد الخامس: العودة المظفرة و"ثورة الملك والشعب"
(1955- 1961)



العودة المظفرة

صباح 31 أكتوبر 1955، وعقارب الساعة تشير إلى السابعة وأربعين دقيقة، حطت الطائرة المقلة للسلطان سيدي محمد بن يوسف وأسرته وحاشيته في مطار نيس-كوت دازور، المليء بقوات الشرطة منذ الفجر، وذلك بعد إقلاعها، عشية يوم الوصول، من مدغشقر، وتوقفها في برازافيل وفور-لامي. وعقب محادثات دامت حوالي عشرين دقيقة مع مدير ديوان وزير الشؤون الخارجية، أنطوان بيني، ترك السلطان الطائرة في الثامنة، لتستقبله هتافات أعضاء الوفد المغربي: "يحيى الملك، يحيى الاستقلال!". حضر الاستقبال لتحية العاهل، بالإضافة لأخويه مولاي إدريس ومولاي الحسن، كل من قادة حزب الاستقلال: عبد الرحيم بوعبيد، امحمد بوستة، بوبكر القادري وعمر بن عبد الجليل، مصحوبين بالقائد لحسن، الذي فضل التخلي عن منصبه في 1953على خيانة ملكه، وثلة من الطلبة المغاربة المناضلين من أجل الاستقلال. السلطان يضع جلبابا أخضر لوزيا وطربوشا مخمليا أزرق، وحوالي التاسعة، شد الرحال إلى بوفالون، قرب سانت-ماكسيم، مرفوقا بابنيه مولاي الحسن ومولاي عبد الله، وبناته لالة عائشة ولالة مليكة ولالة نزهة، وحاملا في ذراعه لالة أمينة المزدادة قبل 18 شهرا خلت في أنتسيرابي. استقر العاهل في فندق الغولف، حيث استقبل رئيس تشريفاته السابق، محمد المعمري، وأحمد بركاش، وزير الأحباس السالف، وأعضاء مجلس العرش وممثلي الأحزاب السياسية المغربية. وإذا كان إلى جانب السلطان محامياه، الأستاذان إيزار وفييل، فقد صرح، ببساطة، للصحفيين أنه متأثر بالاستقبال الذي خصته به فرنسا وراغب بشدة في العودة إلى بلده. وجاء صدى هذه الكلمات القوية، رغم بساطتها،على لسان عبد الرحيم بوعبيد، عضو اللجنة التنفيذية لحزب الاستقلال: "ينبغي أن يعود جلالة السلطان إلى عرشه في الرباط قبل 18 نونبر، يوم عيد العرش".

وقبل ذلك، منح العاهل صفحه للباشا الكلاوي، في 8 نونبر 1955، بسان-جيرمان-أون-لاي، مستقبلا إياه وفق البروتوكول الشريف بحضور مولاي الحسن. كان باشا مراكش، الذي أحس بنكبته ونكبة شركائه المتورطين معه في المؤامرة المحبوكة ضد الملك، قد صرح للصحافة في 25 أكتوبر 1955: "إني أشعر بالفرح الذي شعر به كل أفراد الشعب المغربي عندما سمعوا نبأ عودة سيدي محمد بن يوسف إلى فرنسا، وإني فيما يخصني أشترك مع الأمة

المغربية في آمالها التي تتركز في إرجاع جلالته فورا إلى عرشه، وبذلك وحده يتوطد الاتحاد في العقول والقلوب" (عن كتاب "التحدي" لجلالة الملك الحسن الثاني). بعد انتظار المقابلة رفقة عدد من الأعيان والقياد، ومن بينهم القائد العيادي الذي كان من ألذ أعدائه قبل عقد صلح بينهما، أدخل الكاتب الخاص للعاهل، أحمد بن مسعود، باشا مراكش ليخر هذا الأخير على قدمي محمد الخامس لتقبيلهما وجبهته على الأرض، معلنا التوبة، الصفح والغفران ومحاولا شرح الدوافع الكامنة خلف مواقفه السابقة منذ طرده من قصر الرباط في 23 دجنبر 1950. لكن السلطان قاطعه قائلا: "لا أريد الحديث عن الماضي، نحن أبناء المستقبل. أنا سلطان المغاربة وأنت واحد منهم. لننسى الماضي". وقد ساعد كل من الكاتب الخاص للعاهل وحاجبه باشا مراكش، الذي بدت عليه آثار الشيخوخة والتعب، على أداء جثوه المفروض بروتوكوليا. كما سلم ابنه للصحافة تصريحا للباشا ورد فيه: "... شرحت لجلالة السلطان هدف مثولي بين يديه المتمثل في التعبير له عن وفائي ومبايعتي أصالة عن نفسي ونيابة عن كل رعايا جلالته الخاضعين لسلطتي...".

سأكون شاهد عيان على البهجة الشعبية العارمة بمناسبة رجوع السلطان إلى الرباط يوم 15 نونبر 1955. اتخذت موقعي على المنحدر المسمى آنذاك مرتفع لوسكو، الرابط بين نهاية الطريق القادمة من مطار الرباط-سلا والعاصمة، فأبصرت الموكب والملك يحيي الحشود واقفا في سيارته. كانت الجماهير المحتشدة أكثر كثافة في مشور القصر، حسب أقوال والدي الحاضر هناك حينها، والذي وصف لي المشهد. سيارة العاهل، محاطا بابنيه مولاي الحسن ومولاي عبد الله، تشق طريقها وسط هتافات "يحيى الملك" المنبعثة من أعماق الجموع الفرحة برؤية السلطان مجددا. اتخذ والدي، ومعه أخته، مسعودة، وصهره، حاييم بوطبول، وزوجة هذا الأخير، عائشة، وأبناؤه مكانا في الصف الأول. وهم يعبرون عن غبطتهم مثل الجميع، لمحهم السلطان، وما هي إلا دقائق معدودات حتى عاد مولاي الحسن ليأخذ مسعودة إلى حضرة أبيه. قضت هذه الأخيرة حوالي خمسة عشر يوما في القصر، وروت للسلطان ظروف وفاة والدته وتفاصيل المضايقات التي تعرضت لها شخصيا، ولم يفتها، بالطبع، تقديم التهاني له بازدياد الأميرة الصغيرة لالة أمينة، مثلما

شكرته على العناية الخاصة التي حظيت بها بعد عودة الوفد الذي زاره بمدغشقر في أبريل 1954.

لاحقا، سيتوجه أبي وأخواه، أرمان وصامويل، إلى القصر لتقديم التهاني للعاهل والتعبير له، مباشرة، عن مدى سعادتهم بعودته المظفرة لمملكته. تذكر السلطان جيدا أبناء أبراهام ساسون، خياط والده وجده، متذكرا زيارتهم له برفقة والدتهم الياقوت عقب وفاة والدهم.

انطلاقة جديدة

التحق حاييم بوطبول وأبناؤه، من جديد، بمقر عملهم في القصر لاستئناف مهامهم في خياطة ملابس السلطان، علما أن إنجاز بعضها كان مستعجلا في تلك الظروف الاستثنائية. فابن عرفة، الذي غادر البلاد في اتجاه منفاه بمدينة بو إثر تنحيته عن العرش، أفرغ القصر وأخذ معه كل ما هو ثمين، بما في ذلك الأقمشة ومستلزمات الخياطة المسلمة من طرف حاييم قبل سنتين. وروت مسعودة أن السلطان محمد الخامس أمر بإرسال شاحنة إلى ابن عرفة في منفاه، مملوءة بالجرار الفارغة التي نسي نقلها معه !

واجه حاييم وأبناؤه عبئا فائضا في العمل من أجل توفير الملابس المطلوبة، بمناسبة عيد العرش (18 نونبر 1955) والأعياد الدينية التالية له، للسلطان وأسرته أولا، وكذلك لكل شخص في خدمة العاهل، حسب مكانته ووظيفته. وبعد ارتقاء رفاييل بوطبول إلى درجة الساعد الأيمن لوالده قبل أن يصير شريكه، بدأ يسافر إلى فرنسا لزيارة دور الأنسجة، ولاسيما صناع الحرير في ليون. رفاييل محب للاطلاع ومغرم بالابتكارات، وكان دائم البحث عن كل جديد قد يروق السلطان المولع هو الآخر بالحداثة. ومع تطور حياته المهنية، لن يبقى رفاييل حبيس مهامه كخياط، بل سيصير مكلفا بتزويد الإقامات الملكية بما يتطلبه تزيينها داخليا وتوظيبها، أو انتقاء أشياء تلائم ذوق العاهل. وسيتعمق هذا المنحى لدى رفاييل أكثر حين سيخلف والده في خدمة الحسن الثاني.

من جهتها، عادت مسعودة لخدمة زوجة السلطان وباقي نساء القصر، هي المتميزة بليونة جانبها وبقدرتها الفائقة على قص الحكايات والمغامرات الخيالية. وقد أسعفتها تجربتها الطويلة في القصر وخبرتها في مجال تقاليده

في التأقلم مع حياة البلاط ومتابعة الأحداث المؤثرة في المملكة الحديثة الاستقلال. هذا، وأصدرت الكتابة الخاصة للملك، بأمر شخصي من محمد الخامس، وهو اللقب الجديد للسلطان، قرارا يقضي باسترجاع مسعودة لكافة تعويضاتها، مع صرف كل المتأخرات المتراكمة لفائدتها منذ مغادرتها قصر مكناس إثر وفاة أم سيدي الياقوت.

انبعثت التقاليد الحميمية في القصر مرة ثانية، ومنها عادة الفرحة التي كانت تتجند لها كل نساء آل بوطبول، ومعهن مسعودة، قصد إعداد أطباق مختارة لذيذة للسلطان وأقاربه. وطبعا، كان طبق أدفينا أو السخينة، تلك الأكلة الخاصة بيوم السبت المقدس (شبات)، حاضرة في واجهة هذه الباقة المنتقاة من المطبخ اليهودي المغربي. الأبهة طبعت تلك الحقبة إذن، بعد سيادة الاكتئاب والإحباط طوال سنتي نفي الملك، زد على ذلك هبوب رياح الأمل والحماس على المغرب المستقل والانكباب على إعادة بناء البلاد. كنت أستشعر جيدا هذا المناخ، وأنا أنهي الإجازة في العلوم الطبيعية استعدادا لمواصلة الدراسة لنيل شهادة التبريز والانخراط في سلك التدريس الجامعي بالمغرب. وفي فاس، التي كثيرا ما رافقت الوالدين إليها والتي تربطنا بها روابط ثقافية وعائلية متينة، عاينت التطور ذاته. كان العمل اللازم إنجازه جبارا، والمغرب في حاجة إلى كل أبنائه، وهو ما أكده محمد الخامس كثيرا، داعيا المغاربة معتنقي الديانة اليهودية إلى تحمل مسؤولياتهم كاملة، مع تمتعهم بنفس حقوق مواطنيهم المسلمين، مساواة في الحقوق سينص عليها الدستور المغربي لسنة 1962.

عند عودتي لكلية العلوم بالرباط، للتدريس بها هذه المرة، في 1958، وتهييئ شهادة دكتوراه الدولة في علم الأحياء المجهري للتربة، ابتداء من 1960، حظيت بشرف استقبالي، رفقة زملاء آخرين، من قبل الملك محمد الخامس، وقد حثنا، بمودته وتواضعه المعروفين، على تشييد جامعة المغرب العصري. وفي رحم تلك الحقبة، تنغرس صداقاتي المتينة التي صهرها الورش المحمس لتصور وتطوير جامعة محمد الخامس. وإثر إخباره من قبل عمتي مسعودة بأنني حفيد أبراهام ساسون، خياط والده مولاي يوسف وكذا خياطه شخصيا، تفضل محمد الخامس بمتابعة عملي الجامعي وبالتعبير لي عن عنايته، مثلما تحدث عني، بدون شك، مع ولي العهد مولاي الحسن.

وفاة الملك وحزن الأمة

سقط خبر الوفاة المباغتة للملك محمد الخامس في فبراير 1962، مثل الصاعقة على الأمة المغربية، فامتزجت مشاعر الانهيار بأعمق أحاسيس الحزن بهذا القدر المحتوم. نعم، كان انتقال الحكم مضمونا بفضل إعداد أب الأمة، منذ مدة ليست بالقصيرة، لابنه البكر، مولاي الحسن، لتولي خلافته، كما عاش هذا الأخير، رفقة والده، تجارب نهاية عهد الحماية المريرة، وبعدها شارك عن قرب، في قمة هيكل الدولة، في تشييد المغرب المستقل. ومع ذلك، عبر الشعب المغربي بكل الطرق الممكنة، منذ إذاعة نبأ الوفاة، عن عميق ألمه وغمه، وهو ما شاهدته بأم عيني خلال مراسيم الجنازة الوطنية للملك الراحل، على طول وعرض شارع محمد الخامس، والوقت شهر رمضان. الإمساك حينها لم يكن يمثل أدنى معاناة للصائمين بالمقارنة مع حجم آلام عشرات الآلاف من المواطنين من كل الأجيال، الوافدين لتوديع رجل وهبهم الإيمان بالوطن.

اختلطت، لدى آل بوطبول، أجواء الحداد والإحساس بالكارثة مع القلق إزاء المستقبل المنظور، فاجتمعت العائلة برمتها عند الأب حاييم متسائلة عن مصيرها بعد زلزال من هذا العيار. إن رفاييل بوطبول، المتزوج سنة 1943 والذي لم يتجاوز ابنه روجي ربيعه الرابع عشر في 1961، مشغول البال بشكل خاص: ما الذي سيحدث له ولعائلته وقد نسج علاقات متميزة مع العاهل المتوفى؟ وبالفعل، كان رفاييل يرافق محمد الخامس باستمرار في زياراته للخارج، بل ويصطحب معه زوجته فريحة أحيانا، بالإضافة إلى أن ذاكرة أطفاله، إيفيت وروجي، ستظل محتفظة إلى الأبد بهداياه المجلوبة من هذه الأسفار. فهل ستطوى صفحة كل هذا نهائيا؟

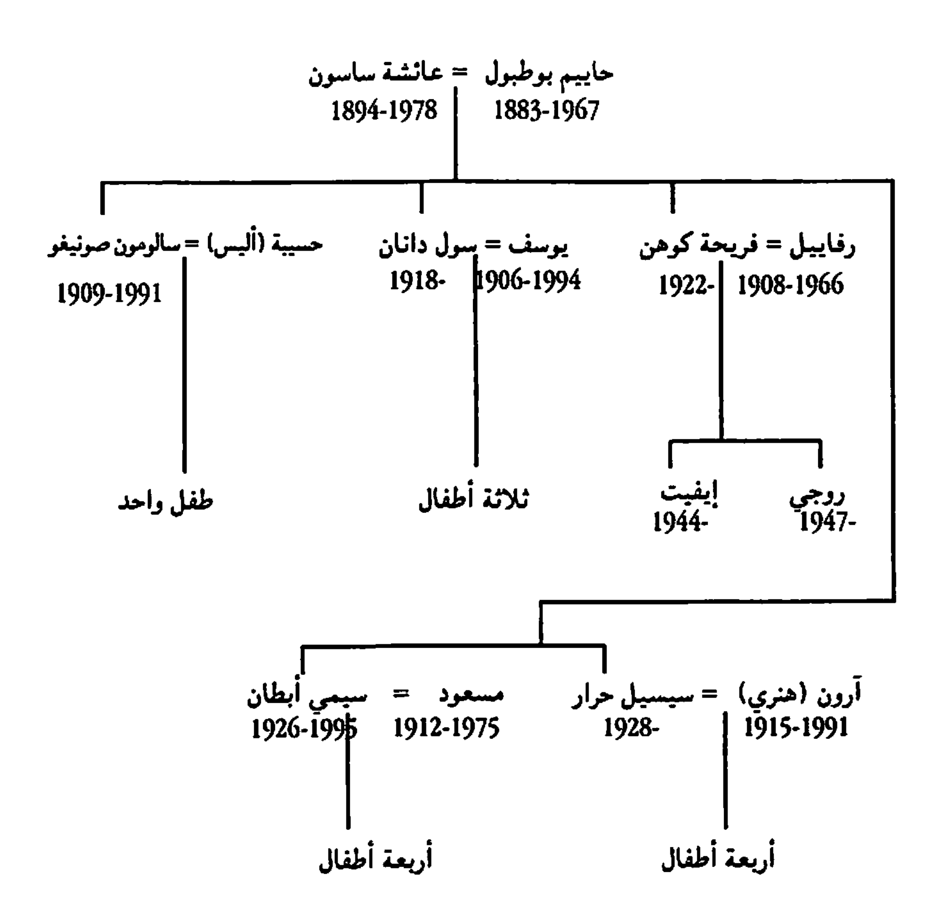
أبدا! أكد الملك الحسن الثاني لرفاييل عنايته وعطفه، أسابيع بعد انتقال محمد الخامس إلى جوار ربه، مشجعا إياه على الاستمرار في عمله عبر لمسة من الكف على الكتف. وهذا ما حكاه لي روجي بوطبول، الذي سيحل محل والده المتوفى في 1966، لتتنفس العائلة الصعداء لأنها ضمنت استمرارية مهمتها. وكانت تلك اللمسة الملكية منطلقا لخمس سنوات زاهية قضاها رفاييل بوطبول خياطا للملك الجديد، متمتعا بثقة نادرة وبتقدير كبير من طرف العاهل.

الفصل السادس

عهد الملك الحسن الثاني

(1999-1961)

قمة مجد آل بوطبول



مرحلة هناء وبهجة

انطلق عهد الحسن الثاني، المتوج يوم 3 مارس 1961 ، بشكل جد إيجابي بالنسبة لآل بوطبول، إذ ستتسم علاقاتهم مع الملك وعائلته والبلاط بالثقة والمودة والحميمية. ونظرا لتدهور صحة حاييم بوطبول، المصاب برمال كلوي خطير ومؤلم، سيضطلع ابنه رفاييل بدور محوري في مأمورية الأسرة، رغم أن الوالد سيبقى المسؤول الأول عنها. ويعود سبب صعود نجم رفاييل، أساسا وقبل كل شيء، إلى وفاء خياطي السلطان لسيدي محمد بن يوسف إبان نفيه، حيث لن يغيب يوما عن ذهن الملك الحسن الثاني الموقف الذي واجه به حاييم بوطبول أولئك الذين حاولوا إرغامه على التصريح بأن لوالده، العاهل الراحل محمد الخامس، ديونا متراكمة إزاءه، كما لم تغب عن ذهنه الانعكاسات السلبية لذلك الموقف على مستوى عيش العائلة.

وأكثر من هذا ، تعمقت العلاقة بين الملك وخياطه لتبلغ درجة لا تقاس من الثقة، وذلك لحد صار معه رفاييل يؤدي أعمالا جد متنوعة لا تقف عند حدود إنجاز كل أصناف الملابس والأزياء التقليدية. هكذا، أصبح يباشر إعداد قاعات الاستقبال والإقامات، منفذا مهمته في وقت وجيز في كثير من الأحيان، مما كان يجعله ينال تقدير العاهل، علما أن الحسن الثاني كان يولي للتفاصيل والفعالية اهتماما خاصا. وبما أنه كان مدركا للميول الجمالية والتزيينية للملك، فإن رفاييل أضحى يقتني كل ما استجد وجلب انتباه العاهل خلال أحد أسفاره إلى الخارج مثلا. بل كثيرا ما كان يستبق إبراز هذه الميول ويجلب إلى القصر مبتكرات ستحوز الإعجاب. وأثناء رحلاته إلى باريس، اعتاد رفاييل على الذهاب إلى قصر الاكتشافات تنقيبا عن ابتكار تقني سيستحسنه الملك.

في بعض الأوقات، كان الملك الحسن الثاني ينادي رفاييل مستعملا اسم التصغير العطوف "رفيلا"، مثلما دأب العاهل على التعبير عن تعاطفه مع مسعود، موصيا رفاييل بالاهتمام بصحة أخيه الأصغر. وكان مسعود، المعروف بسخريته اللاذعة وبمزاحه مع أهم خدام القصر، يحظى بتعاطف كبير من قبل محاوريه بسبب صحته العليلة. سقيم الرئتين، مدمنا على التدخين

ونحيفا، هي ذي صفات الأخ الأصغر، ومع ذلك، لم تغب عنه البهجة والبشاشة لحظة ولا تخلف يوما عن مساعدة والده وإخوانه في أداء مهامهم العديدة.

في عهد الحسن الثاني، أصبح نمط الحياة في قصر الرباط أكثر سخاء وأبهة ملكية، وينطبق الوضع نفسه على باقي الإقامات الملكية التي شيد العديد منها خلال حكمه (38 سنة) أو خضعت للإصلاح. غدت المراسيم أكثر تعقيدا رغم الحفاظ على الأعراف الشفوية وتقاليد الأسلاف، وظلت السنة مضبوطة بعيد العرش يوم 3 مارس، بدون إغفال الأيام الثلاثة المجيدة (16 نونبر: يوم عودة محمد الخامس والأسرة المالكة من المنفى، 17 نونبر: يوم الانبعاث و18 نونبر: عيد عرش العاهل الراحل والاستقلال) ، عيد ميلاد الملك والشباب في 9 يوليوز، ازدياد وأعياد ميلاد الأمراء والأميرات، والأعياد الدينية، بالإضافة لاستقبال رؤساء الدول الأجنبية والأسفار الرسمية والخاصة للحسن الثاني إلى الخارج. هذه الزيارات (وهي قليلة العدد إذا ما أخذنا بعين الاعتبار المدة التي قضاها الملك الراحل في دفة الحكم، إذ كان يفضل البقاء في التراب الوطني الملم بتفاصيل جغرافيته بدقة واستقبال نظرائه فيه) ، كان يصاحبها تنقل بشري ضخم وتتطلب القيام بالعديد من المهام، البديهية منها والبالغة التعقيد. لكن كل واحد، في مختلف درجات المسؤولية، كان يعرف جيدا المطلوب منه، مما يؤدي إلى نتيجة نهائية لا تشوبها شائبة، علما أن الملك كثيرا ما كان يسيطر على الطوارئ عند حدوثها.

بالنسبة لآل بوطبول، فرض هذا التطور مزيدا من العمل، مع ما يقتضيه ذلك من يقظة متزايدة وحدس، دون نسيان إنجاز المنتظر منهم في جو من الضغط أحيانا كثيرة. ولكنهم، بفضل إلمامهم الدقيق بعادات وتقاليد القصر والبلاط، كانوا يعلمون كيف يواجهون الطوارئ ويقومون بواجباتهم. وفي هذه الأحوال، كان رفاييل قائدا نادرا للجوقة، فهو أقدرهم على معرفة رغبات الملك، بل واستباقها أيضا. كان العاهل كريما معهم، لا يعير اهتماما للنفقات لما يتوفر شرطا الوفاء والفعالية، وهي سنة موروثة عن والده الذي اعتاد على لفت انتباه مزودي القصر إلى طلب تعويضات بحجم القيمة الحقيقية لخدماتهم، وحدث ذات مرة أن قال حاييم بوطبول لمحمد الخامس: "كل شيء

ملك للملك"، أي ما مفاده أن التعويض الذي يطلبه مقابل خدماته معقول وأن العاهل يستطيع تقليصه إذا رغب في ذلك، وحسب الخياط فالعاهل لم يفعل هذا بتاتا.

في الواقع، كانت الأمور تسير على أحسن ما يرام بالنسبة لآل بوطبول. لم يكونوا يعيشون في غنى فاحش، لكنهم كانوا ينعمون بمستوى عيش العائلات الميسورة بدون شك، ولم يكونوا يغضون الطرف عن واجب التضامن مع المعوزين والإحسان إليهم. وكان آل بوطبول، ومعهم آل ساسون، يشتركون في هذا التقليد الإنساني، وقد احتفظ أفراد الطائفة المعاصرين لأبراهام ساسون وحاييم بوطبول بذكرى رجلين محسنين ودائمي الاستعداد لخدمة الغير.

هناك شق من حياة العائلتين الاجتماعية ما زال منقوشا في ذاكرتي، ويتجلى في تنظيم حفلات عائلية ملؤها الفرح العارم في بداية ستينيات القرن المنصرم. فبالإضافة لزيجات أكبر أفراد الجيل الثالث من آل ساسون وآل بوطبول عمرا، والاحتفاء ببلوغ الرشد الديني (بارمصواه) بالنسبة للمراهقين من نفس الجيل، لم تكن العائلتان تعدمان المناسبات للاحتفال، سواء في الرباط أو في فاس: الولادات، الخطوبات، أنشطة الجمعيات الخيرية، النجاحات في مختلف أسلاك التعليم، عيد العرش وعطل نهاية السنة وفصل الربيع، تلك الإجازات التي كنا نمضيها في فاس لتمتين الروابط الثقافية مع مدينة الجيلين الأول والثاني من الأسرتين. كان مجرد تنظيم الحفلات في فاس، كذلك، ضمانة قوية لنجاحها المبهر والاستمتاع بآداب العيش الراقية، حيث تتكون خميرة ذلك النجاح المضمون من الفرح، عشق الأكل، السخرية، الحب المتبادل، الإعداد الجيد والإخلاص للضيوف الوافدين من الرباط وغيرها من المدن. كانت الموسيقى الشعبية ذات الإيقاعات الراقصة تهيمن على تلك المناسبات، دون نسيان حضور الموسيقى العربية ـ الأندلسية العالمة.

ملابس جذابة، أكلات مقدمة بحذاقة من طرف المضيفين وخدمهم، حوارات مهذبة، حكايات متنوعة، تحركات متواصلة للضيوف قصد تهنئة الحاضرين واحتساء أقداح نخب الأقرباء وعاهل البلاد وعائلته، هي ذي مكونات الاحتفالات اليهودية في الستينيات، وفي رحمها، ألمت بالشعبي الراقص،

وكذا بالنوبات وموسيقى الآلة، أي الاستنبات المغربي للنمط الموسيقي الذي نشره زرياب في إسبانيا وأغنته الإضافات الأندلسية والمغاربية. كانت مجموعات موسيقية قليلة العدد تحيي تلك المناسبات، مصحوبة بمطرب أو بمطربين اثنين، مؤدية، في البداية على الأقل، أغاني ذات إيقاعات راقصة، يرافقها رقص الحاضرين وتقديم كؤوس المشروبات الكحولية المستهلكة، بدون إدمان، مع أطباق بعينها. هكذا، ووقتا وجيزا على انطلاق الحفل، كان الجميع ينخرط في الأجواء الاحتفائية بدون استثناء، ولم تكن إلا ندرة نادرة من الحضور تبقى خارج السياق الجارف، وهذا دليل على نجاح الوصفة لطالما أثر في أعماقي. كنا نطلب من المطربين أداء أغانيهم دون استعمال الميكروفون للتمتع أكثر بقدراتهم الصوتية، لكن بعضهم كان يفعل ذلك على مضض لأن استعمال المكبرات يحمي حبالهم الصوتية. سامي المغربي و ثلة من الفنانين والموسيقيين المغاربة المشهورين شاركوا كثيرا في حفلاتنا، ولا أحد منهم رفض يوما تلبية الدعوة الموجهة إليه بفعل العلاقة المتميزة لآل بوطبول مع القصر، شهرة العائلة كعاشقة للفن والأفراح والتعويضات المحترمة المدفوعة للمطربين والعازفين.

من جانبهم، كان آل ساسون وأقاربهم، المتشبعون هم أيضا بعشق الاحتفالات منذ مراهقتهم، ينظمون حفلات ناجحة مماثلة في فاس أولا، ثم في الرباط بعد انتقالهم إليها، بل إنهم أشركوا في هذه الهواية عائلات أخرى من مراكش والبيضاء والرباط دأبوا على استدعائها باستمرار لكل المناسبات الاحتفالية. وأتذكر أننا، ونحن نكتب لوائح المدعوين، كنا نسجل أسماء هؤلاء الأصدقاء في مقدمتها، على قدم المساواة مع الإخوان، الأخوات، الأعمام، الأخوال، العمات، الخالات أو أبناء العمومة. ولعبت هذه الحفلات المشتركة، بدون شك، دور اللاحم الاجتماعي، كما دعمت نسيج علائق عائلية تجاوزت حدود نواة الأسرة الصغيرة.

لا مكان للصدفة خلال هذه الاحتفالات: الأكل والشراب متوفران بغزارة، والخدمة ممتازة حيث لا يبخل أفراد العائلة المضيفة في مد يد المساعدة للخدم المحترفين. ونادرا ما رأيت ضيوفا في حالة سكر طافح، وفي حالة

حصول الأمر، فإن أفراد أسرة السكير يصطحبونه إلى منزله خلسة من باقي الحاضرين، وهو سلوك غايته ضمان عدم إفساد الجلسة. وبما أن العادة جرت باتهام يهود فاس خاصة بالإدمان على الكحول، فالحقيقة تستلزم مني تكرير الشهادة بقلة حالات السكر الطافح رغم حضور النشوة الجلي. دأب يهود الرباط، وهم معتدلون في الشرب على ما يبدو، على تقليب المواجع مكررين التهمة، وفي هذا السياق، حكت لي عمتي، عائشة ساسون، الواقعة التالية: زوال ذات يوم سبت، والعديد من أعيان الطائفة اليهودية في زيارة لزوجها، حاييم بوطبول، عاود أحد أهل الرباط الحديث عن الطابع المبالغ فيه لحفلات أهل فاس من حيث تناول المشروبات الكحولية، فردت عليه بجواب لاذع قائلة: "صحيح أن بعض رجالنا يسكرون، لكنهم يفعلون ذلك خلال المناسبات العائلية، على عكس ما تفعلونه أنتم حين تتجرعون كؤوس عرق قصب السكر في دكاكينكم!" هذا، وكان احتساء الخمر بمقادير معقولة، مصاحبا بالأكل، أحد توابل الحفلات، ورغم أن تجنب الشرب لم يمثل أبدا عائقا أمام الضحك أو البهجة الطبيعية، فالتأثير المنشي للنبيذ والمشروبات الروحية كان يضفي على جو الحفلات مزيدا من الحبور والابتهاج.

وفي المقام نفسه، هناك شهادة أخرى بقيت عالقة بذاكرتي، وهي لأستاذ جامعي بكلية العلوم ببواتيي، أشرف، ابتداء من 1960، على بحثي لنيل شهادة الدكتوراه في العلوم، وزار المغرب مرارا في إطار مهامه الجامعية. وكثيرا ما حضر الأستاذ، بمناسبة زياراته للمغرب في بداية الستينيات، حفلات العائلة، وقد أنبهر بجمال النساء وبهاء أزيائهن التقليدية، وأعجب بحرارة الاستقبال ووفرة المأكولات والمشروبات المستجيبة لمختلف الأذواق. الرجل، سليل منطقة بيرجوراك المشهورة بنبيذها من الطراز الأول، عارف ممتاز بخبايا الخمور ومحتس جيد لها، وهو لا يفقد قدراته مهما شرب إلى نهاية الاحتفالات. هذه الذكريات الجميلة دامت عالقة بذاكرته إلى حين وفاته المبكرة، مما جعله يسرد تفاصيلها لزوجته وأبنائه، وهم من أخبرني بالأمر.

رفاييل بوطبول، البشوش والفكه المستعد لرواية المستملحات في كل وقت وحين، كان متفوقا على الجميع في تنظيم الحفلات العائلية، ربما بسبب

حرفته كخياط مقرب من الملك، الشيء الذي كان يفرض عليه العمل بمنهجية استباق الأحداث والابتكار. حفلاته جميعها كانت ناجحة بكل المقاييس، ولهذا السبب، شعرنا جميعا في أسرنا، حين وفاته، بحنين عميق للسنوات التي استمر طوالها مضيفا استثنائيا ومنظم حفلات قل مثيله. وقد أكد هذه المميزات ببراعة بمناسبة الاحتفال بزواج ابنته البكر، إيفيت، مع روبير تيشكوفسكي بالرباط في فبراير 1965. فعلاوة على حفل الحناء المنظم من طرف أهل العروسة طبق أعرق التقاليد اليهودية المغربية والذي نقشت خلاله يدا الزوجة كفأل خير للآتي من الأيام، كان العرس في مستوى كل التطلعات. لم يخلف الجو الاحتفائي الموعد واستمر إلى حلول الفجر: الأزواج الضيوف يضعون حللا تقليدية، النساء فاتنات بقفاطينهن ذات الأثواب النفيسة، الفرح الفوري، الأغاني المنشدة من طرف الجميع، الموسيقيون العازفون بدون تحفظ، الرقصات التلقائية بحركاتها الشبقية المعتدلة، أطباق المأكولات التي تحملها أياد محترفة تتنقل بها وسط المدعوين، والزوجان المحتفى بهما سعيدان حتى النخاع بنجاح العرس في انتظار الحفل الكبير ذي النمط الغربي ليوم الأحد. تضاعف عدد الضيوف خلال هذا اليوم الأخير، إذ استدعي لحضوره ممثلو السلطات المحلية، عدة أفراد من الأسرة الملكية والكتابة الخاصة للملك وعدد وفير من الأصدقاء، دون نسيان أعوان ومستخدمي رفاييل وأقربائه.

تجاوزت الاحتفالات هذه الأيام لتدوم حوالي شهر، استدعى كل قريب أثناءه الزوجين إلى بيته للعشاء وتقديم الهدايا لهما، مع تنظيم حفل على شرف العروسين وسعادتهما بحضور عدد محدود من الضيوف. شخصيا، حللت ضيفا على العديد من هذه الأعراس، وتميزت جميعها بحرارة في مستوى سعادة الإحياء الجماعي لمحطة أساسية من محطات الحياة، وبالرغبة في المشاركة الكاملة في بهجة اللحظة.

ونظم عرس زواجي مع فلوري بنسيمون بالرباط، يوم الأحد 20 يناير 1963، وأنا في منتصف مساري كأستاذ جامعي بالمغرب، سنتان تقريبا بعد وفاة محمد الخامس، انعقد وفق التقاليد اليهودية المغربية، ولن ينمحي من ذاكرتي

أبدا التأثر العميق الذي امتلكني خلال طقس مباركة الزواج المنعقد في رحاب المحكمة الربية الكبرى للمغرب. ولا يعود السبب فقط إلى أبهة اللحظة، بل كذلك إلى حضور كبار حاخامات المغرب، رئيس جامعتنا الفتية (جامعة محمد الخامس)، محمد الفاسي، صديقيّ عميدي كليتي الآداب والطب، محمد عزيز لحبابي وعبد المالك فرج، أساتذتي السابقين، زملائي في المهنة وكل أصدقائي. كثير من بين هؤلاء الحاضرين فارقوا الحياة اليوم، لكن ذكراهم ما تزال حية في فضاء المحكمة البسيط الذي أضفت عليه مهارة وسلامة ذوق حماتي، لوسي بنسيمون، مسحة حفية بالمناسبة. وستمكث الحفلة التي تلته منقوشة في الذاكرة أيضا، إذ أحيط الضيوف الستمائة بالعناية اليقظة والودودة لأفراد العائلة المكلفين بالسهر على كل مائدة حتى لا تشوب أدنى شائبة نجاح المناسبة.

الأمسيات الفاسية كانت تنافس مثيلاتها الرباطية في البهرجة والبذخ والأبهة، مع حضور نفس الوجوه في حفلات المدينتين معا في كثير من الأوقات، وجوه باعثها رغبة المشاركة في الحفل لـ "قطف النهار" تطبيقا لنصيحة الشاعر اللاتيني هوراس ! ولا مناص من الاعتراف بامتلاك الفاسيين لتجربة استثنائية في مجال إحياء الحفلات، تجربة لا نعثر عليها عند الآخرين، وهي الميزة التي كنا نغبطهم قليلا عليها، خاصة أن الهيمنة الفكرية والروحية لفاس (التي فقدت كثيرا من بريقها حاليا) كانت تزعج المنحدرين من مدن أخرى وغير المنتسبين لتأثيرها الثقافي.

وتبقى أبرز ذكرى لدي هي خامس عيد ميلاد لابن خالتي آنيت، ماردوشي (مارك) أسولين الذي كان والده، يعقوب أسولين، تاجرا معروفا في فاس ومدن منطقة تافيلالت. التأم الحفل في غرفة الضيوف بمسكن فسيح، واقع بين فاس الجديد والملاح، وتكرر سيناريو الاحتفالات السالفة الوصف : عدد كبير من المدعوين يجلسون جميعهم، نساء ورجالا، على أرائك مفروشة في القاعة تفصل بينها ممرات ضيقة للمرور بينها، جوق موسيقي جد نشيط ومغنون ينافسهم المدعوون المتقنون للأغاني المقدمة، نادلون من أفضل معهد فندقي بفاس لتقديم الأطباق وإزاحة البقايا ببراعة فائقة، جو من البهجة يرتقي إلى

أقصى درجاتها ويستمر إلى الفجر، وضيوف سعداء باستئناف العلاقات العائلية مجددا ونسج أخرى مع الأصدقاء يحتفون باستقبال مضيفيهم الكريم والودود لهم. كانت تلك الليلة ليلة ليلاء لا زلنا نتحدث عنها، إلى حدود اليوم، بقسط وافر من التأثر، وهي مؤشر دال عن الفرح بالحياة السائد خلال ستينيات القرن الماضي.

* * *

وفاة رفاييل بوطبول والتساؤل مجددا حول المستقبل

للأسف، ستطوى صفحة مرحلة الهناء والبهجة هذه بشكل مأساوي إثر وفاة رفاييل. في 25 مارس 1966، سيصاب بتجمد للدم في الشريان السباتي نتج عنه شلل نصفي مع فقدان القدرة على الكلام، وفي منتصف ليلة الإصابة نفسها، سينقل إلى مستشفى ابن سينا بالرباط. وتبعا لنصيحة أحمد بن مسعود، الكاتب الخاص للملك الحسن الثاني وصديق آل بوطبول، سيذهب حاييم، ومعه زوجة المصاب، فريحة، وابنه، روجي، إلى القصر الملكي بالرباط في الساعة الحادية عشرة من يوم 26 مارس. هناك، سيستقبلهم الملك الذي استعلم مسبقا عن الوضع الصحي للمريض، ويقول لهم بالعربية الدارجة إن إصابته في الدماغ بالغة الخطورة، مضيفا: " إذا تركناه في المغرب، فسيقضي نحبه. أمله الوحيد والضئيل للاستمرار على قيد الحياة يكمن في نقله إلى فرنسا على وجه الاستعجال. وفيما يخصني، سأضع كل الإمكانيات رهن إشارتكم قصد ضمان سفره، لكن القرار الأول والأخير حول الموضوع يعود إليكم". ابتعد الحسن الثاني بضعة أمتار على ضيوفه ليتداولوا في الأمر بينهم، وبعد لحظات، مثلوا بين يديه ملتمسين منه إصدار تعليماته لنقل رفاييل إلى فرنسا.

تكلف الكاتب الخاص للعاهل بتنفيذ أوامر الحسن الثاني، وعُين الدكتور أرمان إسرائيل، ابن خالة رفاييل بوطبول، مرافقا للمريض في طائرة للرحلات العادية أقلعت في اليوم الموالي وعلى متنها الزوجة، الابن وطبيب مخدر، أما

إيفيت وزوجها فالتحقا بالجميع مساءا. توقفت الطائرة في مطار بوردو، لكن الحالة الصحية لرفاييل تدهورت بعد استئناف الرحلة، إذ أصيب بنزيف داخلي. بعد الوصول إلى مستشفى بييتي - سالبترير، وإيداع المريض في مصلحة الأمراض العصبية المسيرة من طرف البروفيسور داوود، كشفت الفحوصات وجود إصابات خطيرة في المخ تستلزم الاحتفاظ برفاييل على قيد الحياة اصطناعيا. لحظتها، اتخذ قرار عودته إلى بيته بالرباط، وهو ما حصل ليتم تشييع جنازته يوم 30 مارس 1966. قبل مراسيم الدفن، تقاطر على منزل رفاييل بوطبول عدد لا يعد ولا يحصى من ممثلي السلطات المحلية وأفراد البلاط قصد تحية الفقيد للمرة الأخيرة، وأتذكر جيدا مدى التأثر السائد آنذاك، وسعة الشعور بالنكبة العائلية لدى أقارب الراحل. أجل، خدم رفاييل ملكه طوال خمس سنوات، من فبراير 1961 إلى 20 مارس 1966، وكان الأمل كبيرا في استمراره في تأدية مهامه، لكن الأقدار شاءت العكس بحيث اضطر الأب، حاييم، لمرافقه ابنه إلى مثواه الأخير، قبل مرور سنة سيلتحق إثرها هو الآخر بربه (1967). بعد وفاة رفاييل سيصرح الملك الحسن الثاني لأفراد أسرته: " فقدتم أبا وزوجا، أما أنا، ففقدت أخا!". فهل ثمة أفضل من هذه الشهادة الصادرة عن عاهل نما تعاطفه مع خياطه ورجل ثقته على امتداد سنوات خدمة المتوفى في القصر؟

روجي بوطبول : الاستمرارية

انصرم أسبوع الحداد على رفاييل بوطبول، ومع حلول يوم 8 أبريل 1966، استدعى الحسن الثاني ابن المتوفى، روجي، للمثول بين يديه، والشاب في سنته التاسعة عشرة ويستعد لاجتياز دورة يونيو لامتحانات الباكالوريا. رافق الجد حاييم حفيده إلى القصر، وفي رحابه استفسر الملك روجي عن تطلعاته المستقبلية مهنيا، وكان هذا الأخير يرغب في الحصول على شهادة مهندس في الإعلاميات. شرح الحسن الثاني له المهام الموكولة لوالده رفاييل قيد حياته، مضيفا أن خلافة الأب من حق الابن، ومؤكدا: "مكانك هنا، لكن بإمكانك فعل ما تريده". عقب الاستقبال، انعقد مجلس للعائلة ودفع روجي إلى الاستجابة

لعرض العاهل، وبالموازاة، تسجل الشاب، في شتنبر 1966، في السلك الأول لشعبة العلوم الرياضية والفيزيائية بكلية العلوم بالرباط التي كنت عميدا لها وقتها. وهو يقدم على هذه الخطوة، لم يأخذ روجي بعين الاعتبار حجم المهام الملقاة على عاتقه في خدمة الملك، إذ لم يكن عليه فقط فصالة وخياطة ملابس القصر، وهي المهارة التي لقنها إياه جده بسرعة، بل كذلك اقتناء شتى أنواع الأقمشة وباقي المستلزمات. وبفضل تجربتهما، سيقدم كل من مسعود وهنري مساعدتهما القيمة لابن أخيهما للاضطلاع بمسؤولياته، لكنهما سيغدوان شريكين له على خلاف الوضع أيام رفاييل.

بسرعة، سيقتنع روجي بوطبول باستحالة التوفيق بين مهمته الجديدة في القصر ومتابعة دراسته الجامعية. وبالفعل، فما تتطلبه منه كل مناسبة أو ذكرى من أشغال خياطة كثير ومتشعب: عيد العرش في 3 مارس، عيد ميلاد الملك والشباب في 9 يوليوز، عيد الفطر، عيد الأضحى، عاشوراء، أعياد ميلاد الأمراء والأميرات وخاصة عيد ميلاد ولي العهد سيدي محمد، أضف إلى ذلك رأس السنة أحيانا، ومناسبات ازدياد أطفال الملك (مولاي رشيد ولالة أسماء ولالة حسناء، علما أن لالة مريم وسيدي محمد ازدادا قبل تحمل روجي لمأموريته في القصر).

وإثر إصدار الحسن الثاني طلباته لخياطه الشاب مع تزويده بتفاصيل دقيقة حول الملابس الواجب إنجازها، كان روجي يقوم بالبحث عن عينات من الأثواب في الخارج (ليون، سانت غالن السويسرية، إيطاليا ...) لعرضها مباشرة على الملك، فوق طاولة هلالية الشكل، داخل قاعة العرش أو في قاعة استقبال متصلة بها، وحدث في العديد من المرات أن انتظر الخياط شهرا أو أكثر لمقابلة الملك الحريص على انتقاء الأقمشة بنفسه. بعد الاختيار الملكي، الذي كان يتم عموما ثلاثة أسابيع قبل حلول موعد المناسبة المعنية بالملابس المطلوبة، تنطلق عملية تفصيل الأنسجة مع إلزامية احترام نماذج القفاطين و"الفرجيات" المختارة من طرف العاهل، طلب الجدائل المطرزة، خياطتها يدويا والأمر بإعداد الأزرار والعروات، ومن البديهي أننا أمام سلسلة أعمال تستلزم عددا كبيرا من الصناع اليدويين، ولذا كان ينضاف مهنيون مؤقتون للرسميين.

ملابس والدة الملك، أم سيدي عبلة، ولالة باهية، والدة لالة أمينة أصغر أخوات العاهل المزدادة خلال نفي سيدي محمد في مدغشقر، حرم الملك ووالدة الأمراء والأميرات، أم الشرفاء، الأميرات الثلاثة والأميرين، كانت كلها تتطلب ملابس تحاك على المقاس. أما أزياء النساء الأخريات القاطنات بالقصر فتخاط وفق نموذج موحد: القفطان المخزني. كانت مسعودة ترتبط بعلاقات صداقة متينة مع اللواتي عشن من بين هؤلاء النساء مرحلة حكم محمد الخامس، وقد تبنت عديدات منهن طفلا يتمه زلزال أكادير في فبراير 1960، عاما قبل وفاة سيدي محمد. وكان روجي يحيك أيضا الملابس التي يرتديها الحسن الثاني داخل القصر، أما جلابيب العاهل وأزياؤه التقليدية فكان يخيطها صالح، خياطه الشخصي. وبناء عليه، فروجي خياط لدى القصر، وليس الخياط الشخصي للملك، كما أنه كان مكلفا بتهيئة قاعات الاستقبال عبر توفير الأرائك، المخدات والوسائد، بالإضافة إلى الستائر والزركش القيطاني التي كان يوجه طلبات إنجازها إلى الخارج أو صناع فاس التقليديين.

كان روجي وعماه، مسعود وهنري، يفصلون الأثواب المستوردة من الخارج، التي تسدد الكتابة الخاصة للعاهل رسومها الجمركية، في مخيطهم بملاح الرباط المشّغل لعدد من المستخدمين الدائمين يتراوح بين 15 و20 عاملا. يضاف لهم، حسب نوعية وكمية الملابس المطلوبة وموعد التسليم، حرفيون مؤقتون يشرف روجي بنفسه على جلبهم للعمل بمساعدة مخزنيين اثنين تابعين للقصر. بين الفينة والأخرى، كان عدد هؤلاء المستخدمين الإضافيين يصل إلى 100 فرد يشتغلون في ورشة بالقصر، وبمناسبة ميلاد لالة حسناء، بلغ العدد 300 حرفي لأنه كان من اللازم حياكة أكثر من 10 قفاطين لكل امرأة من نساء القصر في مدة لا تتجاوز اليوم السابع بعد ازدياد الأميرة، أي خلال سقف زمني سابق عن الوقت المحدد أوليا. وكان العمال والحرفيون المسخرون ينقلون على متن حافلات إلى نقط تجمع معينة، يستفيدون جميعهم من التغذية وراتب مضاعف، ويتمتع الوافدون منهم من خارج الرباط بالإقامة مجانا في أحد الفنادق على حساب القصر.

يوم تسليم الأزياء والألبسة، كان الملك يشرف بنفسه على التوزيع في إقامته، وكان آخر من يحصل على ملابسه الخاصة المخيطة على المقاس هم أفراد عائلته الأقرب إليه. وقبل ذلك، في جو يطبعه الابتهاج، يوزع خادم شاب من خدم القصر على الحضور طرودا تضم عددا من القفاطين المتماثلة الحياكة، لكن المختلفة الألوان والأثواب تنفيذا لقرارات الملك يوم تكليف خياطيه بإعداد المطلوب. كان التوزيع يأخذ بعين الاعتبار تراتبية مضبوطة للمستفيدات، تقوم بالتذكير بها، كلما اقتضت الضرورة ذلك، سيدة في عقدها الخامس آنذاك، وهي ذاكرة حية للقصر. وبواسطة الخادم الشاب، الذي يسلم الهدية ويبلغ رد الفعل، كانت كل مستفيدة تعبر للملك عن عرفانها العميق بالجميل وامتنانها، بينما العاهل يعلق، بقدر غير يسير من الدعابة، على بعض ملاحظات المستفيدات حول لون أو شكل ما نلنه، ليتم تدارك الأمر في التوزيع اللاحق ويشعر الجميع بالرضى. كان التوزيع يستغرق ساعة ونصف أو ساعتين، وفي حالة الآذان أثناءه، يوقف الملك العملية لأداء الصلاة في عين المكان قبل مواصلتها. وكان روجي ينتظر اختتام التوزيع ليلتمس إكرامية (حلاوة) من العاهل قصد مكافأة المستخدمين على سرعتهم في العمل.

إعداد ملابس مخازنية القصر باستثناء الجلباب (القفطان، السروال، الفراجية البيضاء، التشامير والبدعية)، كان يندرج ضمن اختصاص روجي بوطبول أيضا، بالإضافة لمظلة الملك، وذلك على غرار سلفه أبراهام ساسون الذي أنجز مظلة السلطان الحسن الأول. وفي بعض الحالات النادرة، كان يستجيب لطلبات بعض العاملين في القصر، لكن الملك كان زبونه الوحيد ورئيسه !

التزم روجي بالذهاب إلى القصر يوميا، يصاحبه في أغلب الأوقات عماه، مسعود وهنري، الملمان جيدا بتقاليد وعادات البلاط بحكم تجربتهما الطويلة منذ عهد محمد الخامس. مسعود، المتميز والمعروف بروح النكتة، كان يمزح دائما مع التشكيلة الرباعية لـ "عبيد العافية"، حراس باب القصر المكلفين بترديد "الله يطول في عمر سيدي" كلما خرج العاهل متوجها إلى الديوان الملكي أو مغادرا الأسوار الداخلية للقصر. أما رئيس "عبيد العافية"، فهو

"قائد الباب"، المكلف بمراقبة روحات وغدوات خدم البلاط، وكذا الشخصيات المستدعاة من طرف الملك (الوزراء، العمال، الموظفون السامون...)، وجرت العادة أن يخلف أحد هؤلاء الحراس رئيسهم في حالة وفاته. كانت المواضيع المثارة من طرف مسعود تتمحور، مثلا، حول حلول شهر رمضان ونهايته، مقارنا بين التقويم القمري المعتمد من طرف كل من المسلمين واليهود، وزاعما أن التقويم اليهودي أكثر دقة. والجدير بالذكر، في هذا الصدد، أن الحسن الثاني قام باستشارة أكبر حاخامات المغرب حول هذا الموضوع أحيانا، مثلما استشاره حول موعد حلول ذكرى وفاة النبي موسى المبجل من قبل الديانتين، وهو اليوم الذي كان العاهل يصوم خلاله. كانت أحاديث مسعود والحراس تتناول، من جهة أخرى، تقاليد وعادات اليهود والمسلمين، وتتعرض للأخبار العائلية، لكنها لم تكن تتطرق أبدا للقضايا السياسية أو قضايا البلاط. أجل، لقد كان التحفظ في هذا المجال قاعدة ذهبية.

كان روجي بوطبول يلتمس مقابلة الملك في الوقت المناسب لمعرفة أوامره، مستبقا الأشغال التي سيطلب منه إنجازها. وفي عدة مرات، كان اللقاء يتوزع على حقبة زمنية طويلة نظرا للالتزامات الرسمية لعاهل البلاد، فينطلق الاستقبال في الرباط مثلا ليختتم في فاس. أما سبب حضور روجي وعميه يوميا إلى القصر فيكمن، من جهة أولى، في تأدية التحية للملك مثل باقي خدام القصر، وهو ما كان يحصل عادة في نهاية الصباح أو بداية الزوال، ومن جهة ثانية في الاستجابة الفورية لأي استدعاء للمثول بين يدي العاهل. كان روجي يرى الحسن الثاني يوميا إذن في ساعة مختلفة كل مرة، باستثناء يوم السبت المقدس. وكان الحسن الثاني يحترم كثيرا الديانة اليهودية ويتقبل غياب خياط القصر التزاما براحة "شبات". ومع ذلك، لم يكن روجي من المقربين الحميمين للحسن الثاني، فهو لم يتناول قط الطعام معه على مائدته مثلا، ولكن العاهل كان يستقبله بانتظام مثلما هو الحال مع رحال الذي سبق له العمل في خدمة محمد الخامس، أو بو رحيم الذي كان بإمكانه التحدث إلى الملك مرتين في اليوم، حوالي الساعة الحادية عشرة صباحا والخامسة زوالا. لم تكن مهمة الرجلين المضبوطة معروفة، لكنهما كانا وسيطين وفيين

وناجعين. وبعد أحداث الصخيرات في يوليوز 1972، أصبح رحال يحمل لقب القائد رحال ورقي إلى منصب المسؤول عن التغذية لدى العاهل. علاقات روجي مع القائد رحال كانت ممتازة، وهو من كان يرتب له اللقاءات مع جلالة الملك، كما كانت علاقاته جيدة كذلك مع المكي، السائق السابق الذي أصبح قائد الفراش، أي مكلفا بأشغال تأثيث القصور، الأشغال الموكولة لروجي جزئيا أو كليا.

وأثناء ممارسة الحسن الثاني لرياضة الغولف المفضلة لديه والمتقنة من طرفه، كان بإمكان روجي تأدية التحية له من مكان مناسب بالملعب أو إبان عودة الملك من المسالك، لكن استقبال الخياط كان يتم أساسا مساء في أحد صالونات الإقامة الملكية، والعاهل يرتدي زيا عاديا بدون مظاهر أبهة ولا تكلف . بعد تقبيل يد الملك، يجري الحوار بينهما، في كثير من الأحيان، بالعربية الدارجة مع عدم إقحام مفردات أو جمل باللغة الفرنسية، علما أن العاهل كان يتقن بامتياز اللغة الوطنية ولغة فولتير معا، غير أنه لم يكن يحب المزج بينهما. وهو يوجه الحديث إلى روجي بالفرنسية، كان الحسن الثاني يستعمل ضمير المخاطب المفرد، الأمر الذي لم يكن يحول دون حفاظه على هيبته الملكية مع التزام مخاطبه بالاحترام الواجب للملك والبروتوكول. لم يكن عطف العاهل على خياطه وعائلته يطفو على السطح بجلاء حتما إذن، لكنه كان فعليا كما تحقق من ذلك روجي في عدة مناسبات.

كان الحسن الثاني يأذن لعمي خياطه ، مسعود وهنري، بحضور جلسات العمل مع روجي ، أما الأسفار إلى الخارج، فكانت موكولة لهذا الأخير، رغم أن الثلاثة كانوا يتوفرون على جوازات سفر مصلحة لتسهيل تنقلاتهم. وقد اقتنى روجي سيارة أمريكية الصنع من نوع "بونتياك" ذات مظهر متميز، مما كان يجعل التعرف عليها وعلى صاحبها أمرا سهلا بالنسبة لرجال الشرطة وأمن البلاط فيعطونه الأسبقية ويأذنون له بالتنقل في كل مكان.

لم يكن الخياط اليهودي يعدم الحساد. هكذا، وقبل عام 1971، أي بضع سنوات بعد تسلمه مهامه، أشار له الحسن الثاني، أثناء جلسة لتقديم عينات من الأثواب، بأن فريق خياطة يحظى بتدخلات وازنة تقدم بطلب الحلول محله،

موصيا إياه بتشغيل أعضاء الفريق في إنجاز الدفعة الجديدة من الملابس المبرمجة. امتثل روجي للأوامر الملكية ودعا منافسيه للعمل معه في مخيطه بقصر الرياض، مكلفا إياهم بإنجاز حوالي 48 قطعة. وإذا كان من عادة الملك زيارة ورشات الخياطة بدون بروتوكول والاهتمام بأشغال الحرفيين، فإن روجي اكتشف، قبل يومين فقط على موعد التسليم، أن الوافدين الجدد تأخروا كثيرا في إنهاء المطلوب منهم، مما اضطره لتعبئة المهنيين العاملين لديه للاشتغال ليلتين كاملتين كي ينتهي العمل في الأجل المحدد. أدى هذا الحادث إلى تدعيم مكانة آل بوطبول لدى الملك الذي كان يعلم أنه يستطيع الاعتماد عليهم.

الكتابة الخاصة للملك هي التي كانت تدفع تعويضات روجي وعميه بشكل منتظم وتقوم بأداء فواتير الخدمات المنجزة محليا وفواتير المزودين الأجانب. وفي حالات جد نادرة، التمس روجي من العاهل إصدار أوامره بإسراع كاتبه الخاص في تصفية بعض الفواتير، وكلما حدث ذلك، كان الملك يوقع بنفسه الأمر بالدفع! وفي حقبة إدارة رفاييل بوطبول لفريق الخياطة، كان يحصل هو على نصف المداخيل ويعود النصف الآخر لأبيه، حاييم، المكلف بدفع تعويضات أبنائه الآخرين. ولما خلف روجي والده، أصر حاييم بوطبول (المتوفى في 1967) على تقسيم المداخيل إلى ثلاثة أقساط متساوية بين روجي ومسعود وهنري.

سيسافر روجي سنة 1966 لأول مرة إلى الخارج، وبالضبط إلى اليابان، لجلب عينات من الأنسجة كان والده رفاييل قد اصطفاها ومنعه الموت الفجائي من تقديمها للملك. بعد ليلة مشهودة في طوكيو، اكتشف خلالها روجي وعمه مسعود العاصمة الأخطبوطية لإمبراطورية الشمس المشرقة، سيتوجهان إلى أوساكا، حيث مقر شركة "سانتاي تردينغ كوربوريشون ليمتد"، تبعا لنصيحة شارل بنسوسان، الابن الوحيد لعائشة ساسون، عقيلة حاييم بوطبول، من زواجها الأول، وشارل هذا متخصص في استيراد الأقمشة ومواد التأثيث، وخبير في أسواق الشرق الأقصى. أسبوعا بعد الليلة الأولى التي قضياها في فندق "نيو أوتاني" الشهير بطوكيو، سيعود روجي ومسعود إلى

المغرب محملين بالعينات، لكنها لن تروق قط نساء القصر رغم أسعارها المغرية. وفي نهاية شهر ماي 1967، سيستدعي الملك روجي ومسعود إلى قصره بالرباط، طالبا منهما الذهاب إلى روما لانتقاء نماذج من الأقمشة التي ستخصص لألبسة وأزياء عيد ميلاده وعيد الشباب (9 يوليوز)، وذلك على عكس العادة المكرسة سابقا والقاضية باختيار الأثواب في باريس، روما وسان كَال، المدينة الواقعة في الشمال الشرقي لسويسرا الألمانية والشهيرة بمطرزاتها وتخاريمها وغزلها، أما من أوحى للعاهل بفكرة الابتياع من إيطاليا، فهو كوريزي، الخياط الجنوي لقمصانه. وصل الرجلان إلى العاصمة الإيطالية يوم الاثنين 5 يونيو 1967، وهناك علما باندلاع "حرب الستة أيام". زارا كوريزي، ثم اختارا عينات الأثواب التي عاد بها مسعود إلى الرباط بينما مكث روجي في فندق "غران أوطيل دو لافيل"، بشارع سيستينا، قرب ساحة إسبانيا، منتظرا أوامر الملك قبل الإقدام على شراء الأثواب. وفي الرباط، استمر مسعود في الذهاب إلى القصر يوميا لمعرفة آخر المستجدات وتعليمات الحسن الثاني، مخبرا روجي بكل جديد، بينما هذا الأخير يكتشف المدينة الخالدة. قام العاهل بإخبار مسعود بأنه ليس ثمة مجال للانزعاج، وأنه على روجي البقاء في روما. ويبدو أن الملك كان راضيا على وجود خياطه بعيدا عن القلق المتمخض عن المواجهة الحربية الجديدة في الشرق الأوسط. ومع نهاية غشت 1967، سيختار العاهل الأقمشة، ليحضرها روجي إلى الرباط، علما بأن تلك السنة لم تعرف، بالطبع، توزيع ملابس وأزياء في القصر بمناسبة عيد الشباب.

تنقل الحسن الثاني كثيرا داخل المغرب، بين سنتي 1966 و1971، لكنه لم يسافر إلى خارج المملكة إلا لماما. كانت الملابس المطلوبة من طرفه تسلم في مكان وجوده، نظرا لسفر عدد من نساء البلاط برفقته ورغبتهن الحصول على ملابسهن قبل العودة إلى الرباط. هكذا، كان من المفروض على روجي وعميه استباق كل الإكراهات اللوجيستيكية والالتزام بالتسليم في الزمان والمكان المقررين من طرف العاهل، وكان لزاما عليهم، كذلك، التفاعل بسرعة مع المستجدات والتنسيق مع مصالح الجمارك والنقل. وبين 1969 و1971،

تحمل روجي وعماه عبئا مضاعفا من العمل بسبب قرار الملك إعداد رياض، تطلب إنجاز مقاعد وأفرشة لتحيط بصحنه. طلب روجي من صناع بباريس تحضير هذا الأثاث، على أن ينقل إلى الدار البيضاء على متن طائرة شحن، ومنها إلى قصر الرباط بواسطة شاحنات تحت إشراف رئيس مرافقي العاهل. وبعد حلول الشاحنات بالمطار، وصل روجي بسيارته من نوع "بونتياك"، ليكتشف، هو ورئيس المصالح الجمركية، أن الأثاث المطلوب لم يشحن بسبب انعدام مكان لها. وبمجرد العودة إلى الرباط، اتصل روجي بمزوده في باريس الذي التزم بإرسال المطلوب في بحر أربع وعشرين ساعة ليتم إثرها احترام موعد التسليم في قصر الرباط.

بدأ داوود بوطبول، ابن ميمون بوطبول المتوفى سنة 1953 بعد خدمته لمحمد الخامس، العمل في قصر الرباط انطلاقا من 1967، أي سنتين قبل موت والدته حنا. كان الملك الشاب الحسن الثاني يعرف داوود ويلتقيه باستمرار نظرا لقرب متجره من المعهد المولوي، وكان هذا الأخير يربط علاقة صداقة بابن الحاجب الملكي، علي بنيعيش. ونظرا لاحترام العاهل له، فقد تكلف شخصيا بمصاريف علاجه في كندا، بلد إقامة أبنائه، بل إن الحسن الثاني فكر في تعيينه ممثلا لليهود المغاربة المقيمين في كندا، لكن المنية وافته نتيجة إصابته بالسرطان وحالت دون نيله المنصب. وقد عادت زوجة داوود بوطبول، سيمون، بعد ترملها إلى الرباط للإشراف على تجارة رفيق حياتها، قبل الذهاب للتقاعد في شمال القارة الأمريكية. ومع كل هذه الأحداث، لم ينس العاهل ميمون بوطبول، والد داوود، وهو ما كنت شاهدا عليه في 1995، خلال زيارة الدولة التي قام بها الحسن الثاني إلى باريس.

بمناسبة هذه الزيارة، استقبل الملك، وفق العادة التي كرسها، وفدا من المغاربة المقيمين بفرنسا في جناح "أرمنونفيل" بطرف غابة "بولوني". اليوم ذاك كان مشهودا على أكثر من مستوى. أولا، بفعل مدى حرارة استقبال جميع الحاضرين للعاهل، وقد خطب أمامهم باللغة العربية الدارجة وهو في أوج هبته، مما تمخض عنه عاصفة من التصفيق والهتاف. وثانيا، نظرا لعلامات المودة الصادرة عن الحسن الثاني حيال وفد ممثلي الطائفة اليهودية الوافدين من

مختلف مناطق فرنسا ومن المغرب. كنت عضوا في الوفد، أنا وزوجتي، وتم استقبالنا، بعد الخطاب الملكي، في إحدى قاعات الجناح حيث وجدنا مستشار جلالة الملك، أندري أزولاي، وسفير جلالته في فرنسا، محمد برادة، ومسؤولي التشريفات والبلاط. وحيث إن حلول الحاخام الأكبر للقدس، الذي سبق له شغل منصب اكبر حاخامات المغرب، بفرنسا قادما من إسرائيل تزامن مع الزيارة الملكية، فقد تم استدعاؤه في آخر لحظة لحضور حفل الاستقبال. وكان شالوم مساس أول من تقدم للسلام على الحسن الثاني، وليس ابنه، داوود، حاخام باريس الأكبر، وقد تحدث الملك إليه مطولا بعد الاستماع للترحم على روح محمد الخامس والدعاء للعاهل وأسرته بطول العمر والرفاهية. وبعدها، حظي باقي أعضاء الوفد بشرف السلام على الملك الذي تقبل، بصدر رحب، عناقه وديا من طرف إحدى عضوات الوفد. وبينما الملك يخص كل واحدة وواحد من أعضاء الوفد بكلمة ملؤها الحفاوة النادرة، سمعت مسؤولي البروتوكول والأمن يعبرون عن نفاذ صبرهم نظرا لارتباط الملك بموعد آخر. لم يكن ثمة بد إذن من تقليص مدة الاستقبال، لكنني فوجئت بسماع العاهل يقول لهم: "اتركوني مع ناسي! ". لقد كان يقدر، مثلنا، لحظة الحميمية والانسجام الاستثنائية هذه حق قدرها.

ومع ذلك، لم يكن هناك مجال لتجاهل الأمر الواقع وإنهاء الاستقبال. وأنا أتهيأ لتوديع الملك المتوجه نحو المخرج، طلب مني ابن عمومتي ريشار أتياس (وهو في الواقع ابن عم والدتي ويصغرني بـ 25 سنة) تقديمه للعاهل. صافحني الملك الحسن الثاني معبرا لي عن رغبته في رؤيتي خلال زيارتي القادمة للمغرب، ولم أترك الفرصة تمر دون تقديم ريشار، وقد استهل حديثه مع الملك بالتعبير عن امتنانه وأضاف: "جلالة الملك، أنا حفيد ميمون بوطبول". لحظتها، توقف العاهل، مما أحدث قليلا من الاضطراب لدى الحاشية، ثم قال: "أنت حفيد ميمون الذي بترت ساقه، لقد كنت أعرفه جيدا وأقدره. قم بزيارتي في الرباط!". وبكلماته هذه، أكد الملك جليا ومجددا قوة ذاكرته، معبرا في الآن نفسه عن تعاطفه الكبير مع أحد خدامه وخدام والده الأوفياء.

محن عهد الحسن الثاني

أشرك الراحل محمد الخامس الملك الحسن الثاني، المزداد في 9 يوليوز 1929، مبكرا في مجريات الحياة السياسية للمملكة من عهد الحماية إلى حصول البلاد على الاستقلال، وبعدها في تدبير شؤون الدولة. وفي 1956، سيعينه رئيسا للأركان العامة للقوات المسلحة الملكية مع مهمة إنشاء جيش وطني، مثلما كُلف بتنظيم وزارة الداخلية وأمن الدولة. وبعد تربعه على العرش، عرض على استفتاء شعبي، في 7 دجنبر 1962، مشروع دستور نال أغلبية ساحقة من أصوات المصوتين. لكن، وعقب أحداث الدار البيضاء في مارس 1965، ستُعلن حالة الاستثناء وتتمركز كل السلطات بين يدي الملك الذي سيحكم بواسطة مراسيم القوانين، وذلك إلى حدود عام 1972، سنة إقرار نص دستوري جديد.

لم تخل السنوات الأولى من حكم الحسن الثاني من إختبارات إذن. هكذا، وبعد نشوة الاستقلال واسترجاع السيادة الوطنية، احتد السجال السياسي، وفي قلب الجدل والعلاقات المستعصية بين الملك ويسار حزب الاستقلال، اضطلع المهدي بن بركة بدور أساسي. ازداد المهدي بن بركة بالرباط في يناير 1920، وهو منحدر من وسط متواضع، تفوق في دراسته بسلك التعليم الثانوي بثانوية غورو، الدراسة التي مولها وطنيو المدينة، وحصل على شهادة الباكالوريا في الموسم الدراسي 1938/1937 ثم الإجازة في الرياضيات بكلية العلوم بالجزائر العاصمة في 1942. وفي الجزائر، تحمل المهدي بن بركة مسؤولية نائب رئيس جمعية الطلبة المسلمين لشمال إفريقيا، قبل العودة إلى المغرب في 1943 لتدريس مادة الرياضيات في ثانوية غورو، كما التحق بهيئة التدريس في المعهد المولوي حيث يدرس أطفال العائلة الملكية، وبالمعهد تتلمذ على يديه الأمير مولاي الحسن البالغ من العمر حينها 14 سنة.

في دجنبر 1943، شارك المهدي بن بركة في تأسيس حزب الاستقلال وكان أحد أصغر الموقعين على وثيقة المطالبة بالاستقلال المقدمة في 11 يناير 1944، وقد اعتقل في السجن المركزي بالرباط إثر المظاهرات المندلعة بسبب إلقاء القبض على شخصيات وطنية موقعة على العريضة. في نونبر 1945،

سيصبح عضوا في اللجنة التنفيذية لحزب الاستقلال لينصب كفاحه أساسا على ميدان تطوير التعليم. بين سنتي 1951 و 1954، سيوضع تحت الإقامة الإجبارية ويخضع للترحيل أربع مرات، سعيا من السلطات الاستعمارية إلى إخماد الحماس الجماعي الذي كان يلهبه كلما ساهم في تظاهرة عمومية. وكانت أسبوعية "الاستقلال"، والمهدي بن بركة مكلف بإدارتها، قد نشرت، في 12يناير 1952، صورة لعلال الفاسي، زعيم حزب الاستقلال، في منفاه بالقاهرة. في غشت 1955، شارك المهدي بن بركة في مفاوضات إيكس-لي-بان بين السلطات الفرنسية والممثلين المغاربة، المفاوضات التي أدت إلى عودة الملك سيدي محمد بن يوسف من منفاه، وبعدها نهاية الحماية. في 16 نونبر 1956، سيقدم بن بركة التحية للملك في الرباط إذن، وعقب إعلان الاستقلال في 2 مارس 1956، سينتخب رئيسا للمجلس الاستشاري وذلك يوم 18 نونبر 1956، مثلما سيكون، خلال صيف 1957، مهندس أوراش "طريق الوحدة"، رمز التوحيد الفعلي للمغرب بواسطة ربط منطقتيه المختلقتين من طرف الحماية، ومع حلول شهر يناير 1959، سيستقيل من رئاسة المجلس الاستشاري وينسحب من اللجنة التنفيذية لحزب الاستقلال، ليوحد الجناح اليساري للحزب الذي سينشق ويتحول، في 6 شتنبر 1959، إلى الاتحاد الوطني للقوات الشعبية. الاتحاد سيعقد مؤتمره الثاني بالدار البيضاء، في ماي 1962، وأثناء أشغاله، سيجد زعيم المعارضة المغربية، "الكاتب المكلف بالتنظيم" في هيكل الحزب الذي أسسه، سيجد إلى جانبه مجددا كلا من محمد البصري وعبد الرحيم بوعبيد. سبعة أشهر في أعقاب ذلك، وبالضبط في 16 نونبر 1962، سينقل بن بركة إلى أحد مستشفيات كولونيا بالجمهورية الفيدرالية الألمانية إثر تعرضه لحادثة سير في الطريق الرابطة بين الدار البيضاء والرباط.

في مقال صدر على صفحات عدد يومية "لوموند" المؤرخ في 2 شتنبر 1962، يكتب جون لاكوتير أن المهدي بن بركة حصد نجاحا باهرا خلال مؤتمر الاتحاد الوطني للقوات الشعبية المنعقد في ماي 1962، وذلك رغم الأقاويل التي أدعت أن قواعد الحزب نسيته وتنتقده بسبب إقاماته الطويلة في الخارج.

وتضمن تقريره للمؤتمر، "الاختيار الثوري"، نقدا ذاتيا حول "نصف حل إيكس-لي-بان" الذي قبل عبره حزب الاستقلال باستقلال سياسي محض اقتصر على المغرب فقط، بدل وضع القضية في بعد أوسع يطال المستوى الثوري وربطها بالمقاومة الجزائرية وبالفضاء المغاربي. لقد قام الزعيم السياسي كذلك بتحليل صراع الطبقات والفئات الاجتماعية في المغرب منذ 1960 ، منتقدا بشدة، حسب جون لاكوتير دائما، الحكم القائم، مثلما طالب بالأولوية المطلقة للاتحاد الوطني على كل "المنظمات الجماهيرية" الأخرى، بما في ذلك المركزية النقابية: الاتحاد المغربي للشغل.

في أكتوبر 1963، سيتخذ المهدي بن بركة موقفا مناهضا لحرب الرمال على الحدود بين المغرب والجزائر، معتبرا إياها مخططا للاستعمار الجديد، ليحكم عليه بالإعدام غيابيا في 9 نونبر 1963، نفس الحكم سيصدر ضده مرة ثانية في 1964 بتهمة التآمر على حياة الملك. بعدئذ، سيعيش المهدي بن بركة في المنفى، متنقلا بين القاهرة وجنيف، وسيساهم، بفعالية وبشكل قل نظيره لدى معاصريه، في مختلف المؤتمرات المنعقدة حول إنهاء الاستعمار، والتنمية والعالم الثالث، المؤتمرات المنعقدة في بكين، هافانا، موشي (تنزانيا) أو طنجة، وخاصة في إطار منظمة التضامن بين شعوب إفريقيا وآسيا، وهو ما سيجعله ينتخب، في ماي 1965، رئيسا للجنة التحضيرية لمؤتمر القارات الثلاث الذي كان من المفترض احتضان هافانا لفعالياته في يناير 1966.

وقبل ذلك، في مارس 1965، تعرضت مظاهرات شعبية حاشدة لقمع شرس، وخاصة في مدينة الدار البيضاء. وطالب المهدي بن بركة، الذي طلب منه الملك العودة إلى المغرب، بعفو عام وبالمشاركة في الحكومة، لكنه سيتم توقيفه من طرف رجلي شرطة فرنسيين يوم 29 أكتوبر 1965، في سان-جيرمان-دي-بري، أمام مقهى ليب، ليُفقد أثره منذ ذاك.

نتجت عن هذه المرحلة ارتباكات عميقة في سير الحياة الجامعية. وبحكم مسؤوليتي كعميد لكلية العلوم بالرباط وقتها، وجدتني، مثلي مثل زملائي عمداء بقية كليات جامعة محمد الخامس، مضطرا لمواجهة الإضرابات

المتكررة عن الدراسة، والنقاش مع قوات الأمن للحفاظ، قصد المستطاع، على حرمة قاعات التدريس والبحث، مع التفاوض مع ممثلي الاتحاد الوطني لطلبة المغرب (أوطم) لاستئناف الدراسة. وإذ أتذكر أن تلك الفترة كانت عصيبة، فإن ذاكرتي تحتفظ أيضا بلحظات المسؤولية والتضامن حفاظا على حياتنا الجامعية التي تزامنت معها، وفي رحمها استوعبت العلاقات المحتومة بين الحقل السياسي والتعليم العالي. وإلى تلك المرحلة تعود، من جهة أخرى، صداقاتي المتينة مع ثلة من الزملاء الأساتذة والمسؤولين عن الحياة الطلابية والجامعية، صداقات نُسجت على محك الواقع وفي سياق ضرورة الحفاظ على جوهر نظامنا التربوي. وأتذكر جليا كذلك، الجلسة الرمضانية المطولة في قصر الرباط التي دعانا الملك الحسن الثاني إلى حضورها بعد آذان المغرب، للحديث مع كل مسؤولي التعليم العالي عن مشاكل الساعة والحلول اللازمة. لم يمنع الاحترام الواجب للعاهل النقاش الصريح، ولا الوضوح في البحث عن حلول لتجاوز الأزمة التي كان الجميع يرغب في طي صفحتها.

لن تتوقف عجلة الأحداث عند هذا الحد، ففي 10يوليوز 1971، سينجو الملك الحسن الثاني من محاولة انقلاب عسكري في القصر الملكي بالصخيرات، على بعد 20 كيلومترا من الرباط، شارك فيها التلاميذ ضباط الصف بالمدرسة العسكرية لاهرمومو، بقيادة المقدم اعبابو وبتواطؤ مع الجنرال المذبوح، كبير الضباط المرافقين للملك. وقد أدت محاولة اغتيال العاهل إلى مقتل حوالي مائة ضحية من ضمنهم بعض أصدقائي في الجامعة.

حضر هذا الحادث المأساوي روجي بوطبول وعماه، مسعود وهنري، وكانوا قد استعدوا لتسليم الملابس المطلوبة في القصر الملكي بالرباط، يوما أو يومين قبل عيد الشباب (9 يوليوز)، لكن الملك قرر أن يتم التسليم والتوزيع في قصر الصخيرات يوم السبت 10 يوليوز، أي في اليوم المخصص تقليديا لحفل استقبال العاهل لضيوفه. قبل الساعة التاسعة صباحا وصل الثلاثة إلى القصر، وهناك أُخبروا بقرار العاهل تقديم القفاطين وباقي الأزياء داخل مقصورة قديمة للمكتب الوطني للسكك الحديدية سبق و نصبت في منطقة خضراء خلال أشغال تهيئة إقامة الملك الصيفية. نفذ روجي وعماه الأوامر ثم

عادوا إلى قاعة التأم بها قواد القصر، ليعلموا، حوالي الساعة الثانية عشرة، أن الحسن الثاني قرر إرجاء التوزيع إلى وقت لاحق، فغادر روجي وهنري القصر، بينما مكث مسعود في عين المكان لحضور الاحتفالات التي كانت قد انطلقت منذ مدة غير وجيزة. وهما على مشارف الرباط، علم روجي وهنري بخبر المحاولة الانقلابية ونجاة الملك والأمراء والأميرات بأعجوبة، كما التقيا مسعود الذي استطاع الرجوع إلى الرباط. خدام آخرون للعاهل نجوا من أحداث الصخيرات أيضا، ومن بينهم جواهريوه، الإخوان حسين الذين تركوا القصر قبيل المحاولة، وهم ينحدرون من مكناس، خلفوا في خدمة البلاط صامويل درحي وبنسيمون، زميلا رفاييل بوطبول وجواهريا محمد الخامس والحسن الثاني.

بعد هذا اليوم المشؤوم، بدأ روجي بوطبول يشعر بالغربة في القصر وسط أناس غرباء. أجل، المقربون جميعهم (مرافقون، أطباء، عبيد العافية، نادلون...) قُتلوا خلال محاولة الانقلاب الفاشلة، وعُين محلهم وافدون جدد للسهر خاصة على الإجراءات الأمنية المشددة، كما تسلم أفراد عائلات البلاط بطاقات تعريف جديدة لولوجه إما نهارا أو ليلا، وإما على مدار الساعة. وبالمقابل، ظل بعض الخدام السابقين يزاولون مهامهم في الإقامات الملكية بالمدن الأخرى، مثل القائد المسؤول عن دخول القصر ومرؤوسيه. لكن الملك بقي المرجع بالنسبة للجميع، الركيزة الصلبة الأساس وضمانة الاستمرارية. وتلت حقبة من التقشف أحداث الصخيرات، إذ، ورغم المحافظة على وتيرة إحياء المناسبات، فإن حجم الملابس المطلوبة لكل واحدة منها تقلص.

في غشت 1972، ستتعرض الطائرة الملكية من نوع بوينغ 727، المقلة للحسن الثاني من باريس إلى المغرب، لهجوم من طرف طائرات عسكرية كانت مكلفة بمرافقتها. مجريات ما حدث في هذه المحاولة الانقلابية الثانية، التي نجا منها الملك، سيرويها لي روجي بوطبول لأنه حضر لحظاتها الأكثر درامية. يومذاك، كان روجي منكبا بحماس، بصحبة عميه، على إنجاز الملابس المطلوبة من طرف القصر في مخيطهم بالملاح، وحينما علم بتحليق الطائرة الملكية في سماء الرباط، توجه إلى الصخيرات قصد تحية الملك. هناك،

سيظل منتظرا أمام الحاجز المشبك نظرا لعدم وصول العاهل بعد إلى إقامته الصيفية، ويرى، حوالي الخامسة زوالا، الحارس يغلق الحاجز وأربعة جنود يركضون ويتخذون وضع إطلاق النار. عقب ذلك، عاد إلى الرباط وتوجه إلى القصر فلاحظ حركة غير عادية في أرجائه ونجح في رؤية الحاج حدو، المسؤول الخاص عن تقديم الأكل للملك والذي اعتاد تبليغ الحسن الثاني بوفود روجي. لمحه هذا الأخير من جهته، وكان مسلحا لمواجهة أي مستجد، فناداه ليخبره بتعرض طائرة العاهل لإطلاق النار، ويصطحبه معه إلى الصخيرات، حيث كان الحراس قد توصلوا بالتعليمات لحماية الملك وأقربائه. لم تصادف طريق الإياب إلى قصر الصخيرات أي مشاكل، لكن أخبار الحسن الثاني ظلت منقطعة إلى حين وصوله شخصيا على متن سيارة صغيرة من نوع "فياط" كان يقودها بنفسه. ونظرا لحنكته التكتيكية الاستثنائية، كان الملك قد أمر الموكب المرافق له بالتوجه من مطار الرباط - سلا إلى قصر الرباط بينما توجه هو إلى الصخيرات، وبالفعل قصف الانقلابيون الموكب في طريقه إلى العاصمة. ومن القسم الهاتفي للقصر، اتصل العاهل، بعد تأدية جميع الحاضرين التحية له، بكل القواعد الجوية لتحديد الطائرات التي غادرتها.

مع حلول الليل، وقصر الصخيرات يعج بالحاضرين، أمر الملك المخازنية بنزع جلابيبهم البيضاء وأصدر تعليماته بمنع التدخين نهائيا، كما سأل المهندس المعماري الحاضر عن مدى صلابة سقف موقف السيارات، الموقف الذي لجأ إليه كل من في القصر. الأوفياء برمتهم متراصون الآن حول عاهلهم: مولاي حفيظ العلوي، وزير القصور الملكية والتشريفات والأوسمة، المرافقون الجدد، رحال، بورحيم، قائد قصر الصخيرات، مسعود وروجي بوطبول، هذا الأخير استطاع بشكل غير مباشر الاتصال هاتفيا بوالدته لطمأنتها. وحوالي الساعة التاسعة ليلا، أعلن الحسن الثاني عن التحاق كل الطائرات بقواعدها، ليغادر الجميع موقف السيارات ويشعر روجي الحاج حدو بأنه سيرجع إلى الرباط. كان الملك يتحكم إذن في الأوضاع، وفي الغد، سيحضر روجي إلى القصر لتقديم تهانيه للعاهل والتعبير له عن فرحته إثر اجتيازه الموقف بسلام.

* * *

لم تتغير علاقاة الحسن الثاني الذي يحكم البلاد منذ أزيد من 11 سنة، مع خياطيه اليهود، بل بقيت مطبوعة بذات الاحترام والوفاء والعطف، وذلك رغم التجارب العصيبة والتوتر الخطير في الشرق الأوسط. لقد ظلوا يقدمون للعاهل، على سبيل المثال، "الفرحة" التي كفت العمة مسعودة عن المشاركة في إعدادها نظرا لتقدمها في السن، والتي كان يسلمها للقصر روجي بصحبة مسعود وهنري. كانت المأكولات تقدم في أقدار موضوعة فوق صينيات، والملك يستفسر، بحضور روجي ورحال، عن كل طبق قبل اختيار ما يريده، ليأخذ رحال المنتقيات بعد الاختيار الملكي، علما أن العاهل لم يكن يتذوق أي طبق في عين المكان.

ستغادر إيفيت، أكبر أخوات روجي المغرب سنة 1972، للاستقرار في فرنسا، بينما سيبقى هو في البلاد برفقة أمه، العمتين عائشة ومسعودة، وأسرتي عميه مسعود وهنري. في شهر نونبر 1973، سيقيم روجي عرس زواجه في باريس، بحضور العمتين، ويقضي شهر العسل في المكسيك والولايات المتحدة الأمريكية، قبل العودة إلى الرباط حيث سيمكث إلى حدود يوليوز 1974، وفي نهاية يونيو من تلك السنة، سيستقبله الملك بقصر الصخيرات حيث سيلتمس منه الإذن بالالتحاق بأفراد أسرته المستقرين في فرنسا، وهو طلب التجمع العائلي الذي استجاب له العاهل، مشيرا لخياطه بأن القصر سيظل بيته، كما أصدر تعليماته لكتابته الخاصة قصد تحويل عائدات بيع بعض عقارات روجي لباريس.

استقر روجي في العاصمة الفرنسية وافتتح بها متجرا لبيع الأثاث بشراكة مع أحد أبناء عمومته، وعقد عدة صفقات مع أندري باكار، المعماري الملتحق حديثا بالعمل لدى الحسن الثاني. استمر روجي، كلما حلت مناسبة عائلية أو رسمية، يرسل برقيات التهاني والولاء إلى العاهل عن طريق القائد رحال، الذي تابع، من جهته، إخبار روجي بمكان إقامة الملك. وبمناسبة قضائه كل شهر غشت في المغرب، كان روجي يحظى باستقبال ملكي في قصر الصخيرات ويقدم للعاهل متمنياته بالرفاهية والازدهار، بينما الحسن الثاني يسأله عن

أحوال أسرته ونشاطه المهني. وحدث أن تدخل الملك شخصيا، في بحر شهر ماي 1975، للإفراج عنه بعد اعتقاله في مركز الشرطة بطنجة. كان روجي في طريقه إلى الدار البيضاء للمشاركة في معرضها الدولي، قادما إلى المغرب من باريس برا ثم بحرا عبر الخزيرات، تعرض للاحتجاز في طنجة بسبب صفقة بيع ممتلكاته العقارية قبل سنة خلت، وذلك بالرغم من التعليمات الصادرة إبان عملية البيع. كان الحسن الثاني منشغلا باستقبال الرئيس الفرنسي فاليري جيسكار ديستان، ومع ذلك، وجد بعض الوقت لمقابلة هنري بوطبول ورحال وإصدار أوامره بإطلاق سراح روجي. لاحقا، وبفضل مساعدة القائد رحال، تمكن هذا الأخير من تقديم عبارات عميق امتنانه وشكره مباشرة للعاهل الذي علق على المغامرة قائلا إن الناس يتعلمون من التجارب، ومضيفا بأن كل شيء انتهى على أحسن ما يرام!

في أعقاب هذه المغامرة، انقطعت زيارات روجي للمغرب طيلة ثلاث سنوات، قبل أن يحل به في عطلة عام 1978 الصيفية، وخلال هذه الزيارة استقبله الحسن الثاني مجددا في قصر الصخيرات. يومها، تناول الحديث النشاط المهني للخياط الملكي السابق، والمسار التعليمي لأبنائه وبعض الذكريات العائلية، وخاصة المتعلقة منها بوالده رفاييل. اللقاءات بين الملك وخياطه كانت تجري دائما رأسا لرأس، وأحيانا كانت تتم بحضور الأميرة الصغيرة للا سكينة، ابنة الأميرة للا مريم وأول حفيدة للعاهل، التي كثيرا ما كانت تصاحب جدها. العادة نفسها كانت تحترم بمناسبة زيارات العاهل إلى فرنسا، وذلك إلى حدود يوليوز 1999، سواء في فندق كريون بباريس، أو في جناح أرمنونفيل بغابة بولوني، أو في قصر الحسن الثاني ببيتز في منطقة لواز. كان روجي يحضر لتقديم متمنياته والتعبير عن ولائه للملك الذي كان يبدي، من جانبه، عطفه الكريم على خياطه السابق.

في يناير 1986، سيصاب روجي إصابة بليغة في العروق، مما سيلزمه قضاء ثلاثة أشهر في أحد كبار مستشفيات باريس للإنعاش والترويض. إبانها، اتصلت زوجته ليندا بالقائد رحال ليحيط الملك علما بالواقعة، وقد ظل خادم البلاط على اتصال مستمر بالأسرة لمتابعة الوضع الصحي لربها. استعاد

روجي بسرعة قدرته على الحركة، لكن توقف أنشطته التجارية أدى إلى حجب السلفات عنه من قبل البنوك، مع مطالبتها إياه بضمانة طرف آخر للاستمرار في تأدية أقساط ديونه. وبالفعل، كان روجي شريكا لهنري، عمه وصهره في ذات الوقت، في بازار يتطلب تدبيره اللجوء باستمرار للاقتراض. أمام هذه المطالب البنكية، وردت على ليندا فكرة طلب المساعدة من الملك، فتمت صياغة رسالة في الموضوع بمساعدة الأستاذ ألبير بنعطار، المحامي آنذاك بباريس والنقيب السابق لهيئة المحامين بالرباط، وبنيامين كوهن، عم زوجة روجي، وتسليمها للقائد رحال، لتصل عبره بين يدي العاهل الذي كانت الرسالة تلتمس منه "ضمان مبلغ تسبيق بقيمة 450 ألف فرنك فرنسي قدمه بنك الشركة العامة". وفي شهر ماي 1987، مثل روجي أمام الحسن الثاني، مقدما من طرف القائد رحال، وأياما بعد اللقاء، أمر الملك كتابته الخاصة بتسليم خياطه السابق شيكا بالمبلغ المطلوب. ما أروعها من التفاتة كريمة تنم عن مودة عطوفة! وبالإضافة للشيك، حصل روجي على صورة للعاهل موقعة من قبله، يظهر فيها بلباس رياضة الغولف حاملا أول حفيداته للا سكينة.

في عام 1988، عاد روجي، وكان قد اعتزل التجارة، إلى فاس برفقة زوجته لقضاء فترة نقاهة دامت ثلاثة أشهر، واستغل الفرصة للذهاب إلى القصر الملكي بالصخيرات للتعبير للحسن الثاني عن عميق امتنانه، وذلك في شهر غشت. وهو في حضرة الحسن الثاني، جازف روجي فأوحى بإمكانية تسديده قيمة الضمانة السالفة الذكر، ليرد عليه العاهل قائلا إن الملك لا يقدم سلفات، بل هبات، مضيفا: "عد للاستقرار في وطنك المغرب، يمكنني تعيينك مديرا لإحدى كبريات شركات صنع الأثاث بالرباط، أو مسؤولا عن تدبير مبيعات مؤسسة أخرى بالبيضاء". فوجئ روجي بمجرى الحديث الذي كان قد استُهل بأسئلة ملكية حول الأحوال الصحية للخياط السابق، ومستوى معيشته بعد تصفية البازار، وحول أطفاله، وبعد إشارة روجي إلى أنه لم يعد يتوفر على مسكن في الرباط، دعاه العاهل إلى البحث عن واحد، مؤكدا أنه سيمد له يد المساعدة ثانية. عقب تأكيد الملك بأنه لن يترك فردا من آل بوطبول يشكو من الحاجة، عبر روجي عن عميق امتنانه، مضيفا أن القصر بمثابة أسرته

الثانية. وقد طلب من القائد رحال شرح وضعيته للحسن الثاني، الوضعية المتمثلة في استقرار أطفاله بباريس لمتابعة دراستهم وفي ضرورة امتثاله لنصيحة الأطباء القاضية بالمكوث قرب مركز العلاج، وكذا التأكيد للعاهل عن عميق العرفان بالجميل، وهو العرفان الذي ظل حاضرا بقوة في برقيات التهنئة المبعوثة من طرفه بمناسبة أعياد العرش كل ثالث مارس وأعياد الشباب كل تاسع يوليوز.

التحق الملك الحسن الثاني بمستشفى ابن سينا بالرباط في 23 يوليوز 1999، إثر وقوع التهاب حاد في الرئتين، ليتوفى على الساعة الرابعة والنصف بعد عصر ذات اليوم، وفق ما ورد في بلاغ لوزارة القصور الملكية والتشريفات والأوسمة. كان المغفور له الملك الحسن الثاني قد خضع للعلاج، في 1995، بإحدى مصحات نيويورك جراء إصابة رئوية أثناء زيارته للولايات المتحدة الأمريكية من أجل إلقاء خطاب أمام الجمعية العمومية للأمم المتحدة، الخطاب الذي تلاه نيابة عنه ولي العهد الأمير سيدي محمد، وفي مارس 1999، اضطر الملك للتوقف عدة مرات عند إلقائه خطاب العرش بسبب نفس الصعوبات في التنفس، ومعلوم أنه، نظرا لإلمامه الجيد بأسباب مرضه، أقلع عن التدخين سنوات قبل وفاته وصار كثيرا ما يستقر في مراكش، المدينة ذات المناخ الجاف الملائم لحالته الصحية، بكيفية أفضل من عاصمة المملكة.

هكذا، حل الأجل المحتوم لنهاية حكم دام أكثر من 38 عاما، ليكون بذلك زمنيا أحد أطول عهود حكم ملكي في القرنين التاسع عشر والعشرين، وقبل ذلك بعقد من الزمن، انتهى المسار المهني لعائلة (آل ساسون وبوطبول) خدم أفرادها طوال 120 سنة ستة ملوك من الأسرة العلوية، من الحسن الأول إلى الحسن الثاني، مرحلة تاريخية من تطور المغرب الذي تعرض لأطماع القوى الأوربية في البداية، والحاصل على الاستقلال ووحدة التراب الوطني لاحقا، والمتمسك بقيمه مع الانفتاح على الحداثة في ما بين القرنين.

مسار هذه العائلة متميز على عدة مستويات، وهو تجسيد حي للتعايش الناجح بشكل عام بين المسلمين واليهود في المغرب، أما القصص المتطرقة

لحسن الجوار، بل للحميمية وتناول الطعام على نفس المائدة من طرف الأسر من الطائفتين في رحم فضاء حضري أو قروي مشترك، فهي عديدة ومتعددة. وبدون السقوط لا في شراك النظرة الملائكية ولا في فخاخ الرؤية المتشائمة، يجدر القول إن اليهود المغاربة عاشوا مراحل صعبة، من بينها على سبيل المثال العهد الموحدي، بل وحتى بداية الحكم العلوي، لكنهم حظوا كذلك بحقب طمأنينة وازدهار. وقد استمروا، في رحم المغرب المعاصر، في الاضطلاع بدورهم كمكون مهم للهوية المتعددة للأمة المغربية. وبالرغم من تقلص عددهم كثيرا بعد نهاية الحرب العالمية الثانية، فإن حضورهم شاهد على تاريخ يمتد طوال ألفيتين، وكيفما كانت أسباب هجرتهم المتنوعة، الشخصية منها والجماعية، هم الذين لم يتعرضوا للطرد أبدا من البلاد، فأغلبيتهم الساحقة تبقى متشبثة بمغربيتها عبر تعاقب الأجيال،

وبينما يمضي المغرب المعاصر، بفضل إرادة الملك محمد السادس والنخب السياسية والثقافية والشعب، قدما في طريق الديموقراطية، مواصلا مسيرته نحو الحداثة ومدافعا بفعالية عن حوار الثقافات والحضارات، فإن إعادة قراءة تاريخه من طرف باحثين مغاربة أنفسهم كفيلة بتسليط الضوء أكثر على مساهمة يهود المغرب في الحياة السياسية، والاجتماعية، والاقتصادية والثقافية للبلاد. وبفعل هذه القراءة الجديدة، ستتوطد أكثر تعددية وتنوع ووحدة الأمة، أمة منخرطة بعزم في أفق الانفتاح على الآخر، نحو التعاون، والتسامح والتضامن.

على سبيل الختم

انتهت حقبة طويلة من العلاقات الوثيقة بين بلاط ستة ملوك من العائلة العلوية وأعضاء عائلتي ساسون وبوطبول، خدام القصر، سنة 1988، ثم في سنة 1999، مع وفاة الملك الحسن الثاني، لكن هذا التاريخ الطويل لم يحل دون التأثير على أقارب لم يكونوا في خدمة السلاطين مباشرة، وذلك خلال حكمي محمد الخامس والحسن الثاني.

ينطبق هذا الوضع لاسيما على ابن عمي ألبير، الحامل كذلك لاسم جدنا أبراهام والذي تميز مساره المهني في بلده بالنموذجية. ازداد ألبير في 2 فبراير 1941 بالرباط، وهو ابن صامويل ساسون، أخ والدي شارل، وصادف بلوغه شهره الواحد والعشرين في نونبر 1942، أثناء الإنزال الشاطئي للقوات الأمريكية بالدار البيضاء. إنه أحد أصغر أبناء عمومتنا سنا، بينما أنا أكبر ذلك الجيل عمرا، ورغم فارق السن بيننا -ست سنوات- نسجنا صداقة وطيدة بيننا.

صار ألبير ساسون مهندسا فلاحيا في 1967، واشتغل طوال حياته المهنية في وزارة الفلاحة، حيث سير قسم تعميم التقنيات الفلاحية، وبعده مصلحة الحبوب والقطاني والأعلاف، ليتحول إلى أحد أدق العارفين بميدان زراعة الحبوب والإنتاج الفلاحي الأساسي بالمغرب. وابتداء من 1985، انصب شغله على مجال التخطيط والقضايا الاقتصادية، ليصبح، طوال عشر سنوات، مرجعا أساسا في حقل الاقتصاد الفلاحي والقروي، وذلك بفضل تمكنه الدقيق من الملفات وثقة عدة وزراء فيه، ليس فقط المكلفين بالفلاحة والإصلاح الزراعي والتنمية القروية، بل أيضا المسؤولين عن الاقتصاد والمالية. كان ألبير مهندسا عاما ومديرا للتخطيط والقضايا الاقتصادية، أظهر قدرات تفاوضية عالية تحت إشراف الوزارات المعنية ومع زملائه الموظفين السامين

في صياغة اتفاق الملاءمة بين المغرب والمجموعة الاقتصادية الأوربية خلال المفاوضات التمهيدية حول التبادل الحر بين المغرب والفضاء الأوربي المشترك، علاوة على كل مراحل جولة الأوروغواي التي ستنبثق عنها المنظمة العالمية للتجارة بعد اجتماع مراكش للاتفاقية العامة للتعريفات والتجارة (الغات).

تتبع جلالة الملك الحسن الثاني، شخصيا ويوميا، مجريات اجتماع مراكش للاتفاقية العامة للتعريفات والتجارة، مما جعله يقف على كفاءة وتفاني ألبير ساسون، فأوصى الوزراء المسؤولين، في عدة مرات، بـ "الاهتمام ومساعدة" ساسون الذي كان يعرف عائلته ومساره. وهذا ما حدث خصوصا مع تدشين العاهل لسد الوحدة في الغرب، أضخم منشأة هيدروليكية خلال حكمه تجسد ذروة سياسته الرامية إلى سقي مليون هكتار. ففي السيارة المقلة له إلى موقع السد، أصدر تعليماته لوزير الفلاحة في حكومته بإيلاء اهتمام خاص لترقية ألبير ساسون.

استمر هذا الأخير في الدفاع عن المصالح العليا لبلده بنفس العزم بمناسبة المفاوضات حول الشق الفلاحي لاتفاقية الشراكة بين المغرب والاتحاد الأوربي (1996)، ثم اتفاقية التبادل الحر بين المغرب وهذه المؤسسة الأوربية (1997). كان زملاؤه في اللجنة المكلفة بملف المفاوضات يعتبرونه مفاوضا محنكا، نظرا لإلمامه الدقيق بالملفات وانشغاله بإنصاف مصالح المغرب. وبموازاة هذا، كان ألبير يتمتع بالمرونة، لكن دون تساهل، مثله مثل كل من يتقن التكتيك. وأثناء حواراتنا الطويلة، وقفت على التطور الجلي والناجح لمهندس فلاحي بلغ حد المعرفة الدقيقة للمعطيات المعقدة للاقتصاد الوطني، الجهوي والدولي، موظفا إياها في سياق تنوير صياغة القرار السياسي. أما وفاؤه لوزرائه الأوصياء، فلم تكن تعادله سوى مودته إزاء فلاحي بلده. وقد جعل دفاعه عن مصالح هؤلاء، ونصائحه لهم للتأقلم مع المنافسة الدولية ومع عالم سريع التطور، العديد من المراقبين المتنبهين يسمونه بـ "أب المنتجين الفلاحيين".

بعد تعيينه في 1997، بدعم من الملك الحسن الثاني، على رأس المكتب

المستقل لمراقبة وتنسيق الصادرات المغربية، واصل ألبير ساسون، بنفس الإخلاص والإصرار، عمله لصالح إنعاش الفلاحة المغربية، سواء على المستوى الوطني أو على المستوى الدولي، باحثا عن فرص وأسواق جديدة لمنتجي "الذهب الأخضر" المغربي. كان عضوا في المجلس الوطني المغربي للتجارة الخارجية، يتمتع بكامل التقدير من طرف زملائه ومكتسبا لثقة الفلاحين والمصدرين الذين كان دائم الدفاع عنهم، كان ألبير ساسون سينهي، بدون شك، مشواره في خدمة بلده بنجاح، لكن رياح القدر والمرض ستسير بما لا تشتهيه سفن الحياة. فعلا، فرغم المقاومة البطولية التي جابه بها أطباء مشهود بكفاءتهم العالية ابيضاض دم قل نظير حدته، ورغم المحبة المتفاعلة لمجموع الأقارب، وفي مقدمتهم الزوجة يانيك، وزملائه المصدومين من وقع المأساة، اختطف الموت يوم 6 غشت 2002 ألبير ساسون من بيننا. أما عزاؤنا في غيابه، فيتمثل في محافظتنا على ذكرى حياته وأعماله، تبلورت أكثر في شهادات لا تعد ولا تحصى صدرت عن المقدرين لنزاهته ولإصراره على خدمة المصالح العليا لبلاده. ووجه الملك محمد السادس برقية تعزية مؤثرة لأرملة الفقيد، وباسمه، وضع مستشاره، عبد العزيز مزيان بلفقيه، الوزير السابق وصديق ألبير، على النعش، وسام العرش من درجة ضابط كبير الذي منحه له العاهل. مراسيم الدفن، البسيطة والبليغة الأثر، بالمقبرة اليهودية بالرباط، جعلت ألبير يرقد بجوار عمتيه مسعودة وعائشة، غير بعيد عن جده أبراهام، ملتحقا ببعض أقرب أفراد عائلته التي شرفها.

أما فيما يخصني، ففي بداية مساري الجامعي وعهد الاستقلال، وكما سبقت الإشارة لذلك، عند الشروع في تشييد صرح الجامعة العصرية الفتية للبلد في سياق إصلاح كبير للمنظومة التربوية الوطنية، حظيت بشرف لقاء الملك محمد الخامس في إطار المجلس الأعلى للتعليم ومجلس الجامعة التي ستحمل اسمه. وبدون شك، فعمتي مسعودة التي لم تنقطع عن زيارة قصر الرباط بعد تقاعدها، حدثت العاهل عني، مما جعله، مستحضرا مسار جدي أبراهام في خدمته، فأولاني برعايته، كما كنت أعلم أنه يتابع تدرجي في التعليم العالي.

نفس الاهتمام صدر عن ابنه، الملك الحسن الثاني، طوال مواصلتي للعمل بالمغرب، ولكن أيضا طوال السنوات الستة والعشرين التي قضيتها بباريس، في مقر منظمة اليونسكو الذي غادرته شهرا بعد وفاة العاهل. وسواء في إطار مجلس الجامعة، أو أثناء تحملي لمسؤولية عميد لكلية العلوم بين 1963 و1969، أو بمناسبة مشاركتي في إعداد تصور إصلاح نظام التربية الوطنية وتطبيقه، تمكنت من الحديث مع الملك الحسن الثاني. وفي كل مرة، لم يفته التذكير بكوني أول مغربي حاصل على شهادة التبريز في العلوم الطبيعية، وأول عميد مغربي لكلية العلوم، قبل التنويه، بدقة فائقة في التفاصيل وبعطف كبير، على العلاقات بين القصر الملكي، وأحيانا جلالته شخصيا، وعائلتي.

نظمت جمعية "هوية وحوار" بباريس في دجنبر 1978، أي خمس سنوات بعد التحاقي باليونسكو، ندوة دولية حول الجالية اليهودية المغربية، هادفة من وراء تنظيم اللقاء ليس فقط إلى إبراز خصوصية الهوية الثقافية لهذه الطائفة القديمة في رحم الأمة المغربية، بل أيضا إلى التطرق لدورها المحتمل في الحوار الضروري لإقامة السلام بين الفلسطينيين والإسرائيليين، بين اليهود والعرب، وهو الحوار الذي كان الحسن الثاني متشبثا به، كما أكدت ذلك العديد من مبادراته جهويا ودوليا. من لا يتذكر زيارات الحائزين على جائزة نوبل للسلم، ياسر عرفات وإسحاق رابين وشمعون بيريس، للمغرب إثر لقاءات أوسلو وواشنطن، هم الذين أتوا للتعبير لجلالته عن امتنانهم لمساهماته الثمينة والدائبة؟ وقد أنار الدعم المعنوي والنصائح النيرة للملك الحسن الثاني، ولمساعديه المكلفين بملف السلم في الشرق الأوسط، السبيل أمام جمعية "هوية وحوار" للمضي في أنشطتها الساعية إلى الاعتراف المتبادل بين الشعبين وترجيح كفة الحوار على المواجهة.

بعد نشر أشغال ندوة دجنبر 1978، وهي المهمة التي كلفني بإنجازها زملائي في مكتب الجمعية، ونشر الكتاب الحامل لعنوان الندوة سنة 1980، قام بعضنا بالسفر إلى الرباط لتسليم النسخة الأولى من المؤلف للعاهل. زملائي القاطنين بباريس منذ مدة طويلة، والذين لم تسنح لهم فرصة المجيء إلى القصر للحظي باستقبال ملكي، تلقوا درسا في البروتوكول الخاص بداخل

البلاط، واكتشفوا تلقائيته المراقبة وبساطته المطبوعة بالتبجيل والحميمية. بعد انتظار ليس بالوجيز في الساحة الداخلية للقصر، تمت الإشارة لنا بالدنو، وعلى بعد خمسين مترا فوجئنا بوجودنا في حضرة الملك الحسن الثاني، المصاحب ببعض مساعديه الأقربين، تحت قبة مناسبة للمقام. كان يضع جلابية بيضاء واستقبلنا بحركة ودودة. تقدم أولا دافيد عمار، الكاتب العام في ذلك الحين لمجلس الطوائف اليهودية بالمغرب، للسلام على العاهل، مقبلا يده وساعده كما تقتضي ذلك التقاليد، فشكره الملك. إثرها، جاء دور أندري أزولاي، رئيس مكتب جمعية "هوية وحوار" وقتها، والذي صار مستشارا لجلالة الحسن الثاني في 5 غشت 1990، المنصب الذي يشغله حاليا لدى ابنه الملك محمد السادس. وتلاه في السلام غابرييل سوسان وشلومو مالكا، الصحفي عضو مكتب الجمعية، وأخيرا كاتب هذه السطور. عقب السلام بإجلال على الملك وتهنئته بالعربية بالعبارة التقليدية: "الله يبارك في عمر سيدي"، ممتثلا بذلك لنصائح والدي، شكرني جلالته، مؤكدا أنه يتذكر كوني أول عميد مغربي لكلية العلوم بالرباط. وإثر تصفح الملك للكتاب المقدم له من طرف أندري أزولاي، قال إنه سيجد له موضعا بارزا في مكتبته الخاصة. وموظفا القدرة الاستثنائية على الارتجال المميزة له، ذكر العاهل بأهمية الطائفة اليهودية المغربية وبتعايشها النموذجي مع باقي مكونات الأمة، مشجعا إيانا على مواصلة عملنا من أجل الحوار والسلم، ومؤكدا لنا دعمه.

أنشأ الملك الحسن الثاني المجلس الاستشاري لحقوق الإنسان الذي يعتبر تأسيسه، في ماي 1990، بشكل لا يطاله الشك، واحدا من أبرز القرارات المعتمدة خلال حكمه، وخطوة مهمة في سبيل الدمقرطة وتدعيم دولة الحق والقانون. وقد علمت، بواسطة سفير جلالته في فرنسا أولا ثم الديوان الملكي، أن العاهل تكرم بتعييني عضوا في المجلس، علما أن التعيين من اختصاصه حسب الظهير المؤسس للهيئة. جسد التنصيب الرسمي للمجلس لحظة مهيبة، طبعها الخطاب الملكي الذي دعانا عبره العاهل إلى "المساهمة في تحقيق العمل المشترك الذي يصبو الجميع إلى تحقيقه"، أي النهوض التدريجي بثقافة حقوق الإنسان. وبالطبع، فالمسعى هذا يفترض البحث عن أجوبة مناسبة

للانتقادات الموجهة، أيامها، للمغرب في هذا الجانب، علاوة عن الحلول الملائمة للانتهاكات، وعلى وجه الخصوص تلك المبرزة من طرف منظمات غير حكومية عاملة في مجال الدفاع عن حقوق الإنسان. بعيد الخطاب الملكي، تم تبليغي برغبة جلالته في الحديث إلي، وما هي إلا ثوان، حتى تقدمت للسلام عليه، فأخذني جانبا ليذكرني، على انفراد، بمعرفته التامة لمساري المهني، مستفسرا حول مهامي في اليونسكو إلى جانب مديرها العام الجديد، فيديريكو مايور ، الذي لم يكن قد التقاه بعد، ومتحدثا عن علاقات عائلتي القديمة مع أسلافه ووالده وجلالته، قبل التطرق لاعتماده على نضاليتي في خدمة حماية حقوق الإنسان والنهوض بها. وبمناسبة هذه المقابلة السريعة، تأكدت، مرة إضافية، من العناية التي يحيطني بها الملك الحسن الثاني، تلك العناية المستحضرة لتاريخ عائلتي، مما يجسد بالملموس وفاء العاهل للتقاليد ولـ "ذاكرة المستقبل".

أجدني مطوقا بأمانة الشهادة على أن ثقة الملك الحسن الثاني في المجلس الاستشاري لحقوق الإنسان دامت باستمرار، وأنه صادق على كل آراء المجلس المرفوعة إلى نظر جلالته. لم تكن المهمة يسيرة، لكنه لا يمكن إنكار تحقق إنجازات مهمة. واليوم كذلك، يستمر العمل تحت رعاية الملك محمد السادس، بنفس الإصرار ومع التأقلم مع السياق الوطني الجديد والمحيط الدولي. وفي سنة 2002 تشرفت بالتعيين، مجددا في المجلس من طرف العاهل ضمن الأعضاء الذين يختارهم بكيفية مباشرة.

سبقت الإشارة، في بداية الكتاب، للاستقبال الشخصي الذي خصني به الملك الحسن الثاني في شتنبر 1994 في قصر الصخيرات. اللقاء لفه عطف استثنائي ومشاعر نبيلة، خاصة لما أخبر سيرج بيردوغو جلالته أن ابنه سيعقد قرانه قريبا على ابنتي. فورا، طلب العاهل من سيرج، وكان يناديه باسمه الشخصي بينما يلقبني باسمي العائلي، إمداده ببطاقات الدعوة للعرس ليسجل بنفسه على الأظرفة أسماء الأمراء والأميرات، مضيفا أنه سيأمرهم بحضور الحفلات المقررة. ثم ذكرنا بالأعراف السائدة في القصر، القاضية بأنه سيستقبل العريسين في الوقت المحدد لتقديم هديته الشخصية لهما بمناسبة زواجهما.

أثناء هذا اللقاء، كان الملك منبسطا، يدخن سيجارة بالتأني تحت قبة مسنودة على مقصورة قديمة للمكتب الوطني للسكك الحديدية، قرب خيمة كان يحب استقبال مقربيه ومساعديه بها أي المكان ذاته حيث استقبل، قبل عشر سنوات خلت، روجي بوطبول. تناول العاهل عدة مواضيع راهنة، وبعد الإشارة إلى عمتي مسعودة التي نوه بوفائها وإخلاصها إبان خدمتها لجدته من والده، أم سيدي الياقوت، سجل امتلاكها لقدرات علاجية فعلية، مؤكدا أنها سبق ونصحته أحيانا، لما كان يصاب بألم في الحنجرة بسبب البرد، باستعمال مرهم وتغطيته بالقطن وقطعة صوف، مؤكدا فعالية الوصفة. بدا الملك حبورا بفعل الحوار المتخلص من كل الإكراهات البروتوكولية الخارجية، لكن ساعة الختم حلت، وكم كانت دهشتنا كبيرة ونحن نلاحظ استمرار جلالته في التحدث إلينا على طول الممر المؤدي إلى إحدى أهم طرقات التواصل بالقصر. وقد توقف العاهل عن المشي ليقول لي: "ساسون، أنت مناضل وأنا أعتمد عليك لتبليغ جوابي إلى السيد مايور"، في إشارة إلى رسالة من المدير العام لليونسكو سلمتها لجلالته، والمتضمنة لدعوة إلى المشاركة مع نظرائه في مؤتمر إفريقيا المعتزم تنظيمه بمقر المنظمة في 1995. بعدها، التفت العاهل إلى سيرج بيردوغو قائلا: "سيرج، لا تنس أن تقدم الاقتراح الذي تحدثنا عنه !".

هذا اللقاء، المنغرس عميقا في الذاكرة لعوامل شتى، كشف لي عاهلا ودودا ومنتبها لضيوفه إلى أقصى حد، مهتما بالتفاصيل ومنشدا للكمال، متمتعا بذاكرة قوية بالنسبة للماضي البعيد والحاضر، صارما وصبورا في ذات الآن، راغبا في عدم الاستعجال، متشبعا بقناعاته ولكن مقترحا، أيضا، على الآخرين الإدلاء بآرائهم ووجهة نظرهم. وإذا كان وصف تصرف وردود فعل ثم سبل اتخاذ القرار وأعمال الملك الحسن الثاني قد تم من طرف الكثيرين، فإن رأيي الشخصي يظل جد مطبوع بلقاء شتنبر 1994 هذا، وهو رأي سترسخه لقاءات وأحداث لاحقة.

وتندرج ضمن هذه اللقاءات والأحداث زيارة الدولة التي قام بها الملك الحسن الثاني إلى فرنسا في 1995، والاستقبال المؤثر الذي خص به جلالته

ممثلي الطائفة اليهودية ذات الأصول المغربية المستقرة في فرنسا، وكذا أفراد الطائفة الوافدين من المغرب بالمناسبة. وقد سبق لي التعرض لتفاصيل هذا الحدث في مكان آخر من الكتاب، والتشديد على تطابق المشاعر المتبادلة بين العاهل ورعاياه الذين يحبهم. نفس الشيء وقع في ماي 1999، بقصر مراكش، لما استقبل العاهل وفدا مهما من ممثلي الطائفة اليهودية المغربية، علاوة على إسرائيليين منحدرين أو لا من أصول مغربية. جاؤوا جميعهم إلى المدينة الحمراء للمشاركة في مؤتمر لخلق اتحاد عالمي لليهود المغاربة. خاطبنا الملك، بعد اجتماع طويل مع أعضاء مكتب الاتحاد المزمع تأسيسه، وهو واقف، لمدة نصف ساعة، بالعربية الدارجة، شارحا أن اختيار هذه اللغة أملته الرغبة الأكيدة للعديد من الحاضرين في الإنصات لها. يومها، شاهدت ملكا متعبا جسديا، وهو يلقي خطابا ملؤه بعد النظر، معبرا عن إيمانه بالحوار والبحث عن السلام في الشرق الأوسط، داعيا الإسرائيليين الحاضرين إلى اختيار السلام، ومذكرا، من جديد، بمغربية اليهود الذين غادروا البلاد للاستقرار في إسرائيل أو في مختلف ربوع العالم. بعد ذلك، ومفاجئا الجميع، مكث العاهل، رغم التعب، أكثر من خمس عشرة دقيقة مع الضيوف، متحدثا باقتضاب مع البعض ومستدعيا الجميع لتذوق ملذات المائدة المغربية. وقبل الانصراف، قال بضع كلمات لمستشاره أندري أزولاي، وشاء حسن الحظ أن كنت بالقرب من الطريق الذي مر بها جلالته، فوجه لي كلاما كريما، متمنيا رؤيتي قريبا بصحبة المدير العام لليونسكو.

فعلا، وخلال اثنتي عشرة سنة استغرقتهما ولايتا هذا الأخير على رأس المنظمة الدولية، تكررت نسبيا زياراته للمغرب. وكان فيديريكو مايور، سليل كاطالونيا والرئيس السابق لجامعة غرناطة، الملم جيدا بالتكافل الثقافي الوثيق بين بلده والمغرب، يحب المملكة ويجد متعة حقيقية في زيارتها. وكثيرا ما ردد، مشيرا إلى الوجود العربي في إسبانيا في القرون الوسطى، أن الحقبة المعنية تعتبر، في رأيه، "ثمانية قرون من الحضارة وليس من الاحتلال". مثلما طور، من جهة ثانية ورغم قصر مدة زياراته العملية للمغرب، تقاربا ثقافيا مع الملك الحسن الثاني. ونظرا لكوني كنت أحد أقرب مساعدي

المدير العام آنذاك، وبسبب معرفته بعلاقاتي وعلاقات عائلتي مع القصر، فقد كان يكلفني بإعداد زياراته للمغرب ومرافقته خلالها، وهكذا فإنني شاهد بامتياز على التقارب المذكور. بالطبع، لم أكن أحضر جميع اللقاءات، إذ كان من اللازم، في كل مرة، ترتيب جلسات خاصة ذات طبيعة سياسية، لكن الفرصة أتيحت لي لسماع حوارات من هذا القبيل:

"- جلالة الملك، ما يبهرني في جلالتك هو الطريقة غير المنتظرة لتجاوز وضع معقد، لتبيان السبيل في اتجاه لن تفكر فيه إلا قلة قليلة.

- السيد المدير العام، إنك تقول هذا لأننا صديقان.

- تعرف، جلالة الملك، صداقتي المشفوعة بالاحترام كإسباني وكمدير عام لليونسكو، لكنني أعبر، في هذا المقام، عن إعجابي الصادق بجلالتك كرجل دولة."

كلما حل فيديريكو بالمغرب والتقى الملك الحسن الثاني، في قصر الرباط أو في قصر الصخيرات، بين شهري يونيو وشتنبر، كان جلالته يؤكد له اعتزازه وسعادته بوجود مغربي يعمل إلى جانبه، مذكرا بمساري المهني السابق في المغرب. المدير العام لليونسكو كان يشير إلى معرفته لي قبل انتخابه على رأس المنظمة الدولية، مبرزا ثقته الكاملة في شخصي لمتابعة القرارات المتمخضة عن اجتماعاته بالعاهل. ويندرج في هذا السياق، على سبيل المثال، مفهوم "التراث الشفوي واللامادي للإنسانية"، الذي اقترح الملك الحسن الثاني على المدير العام لليونسكو دراسته واعتماده من طرف الدول الأعضاء. تابعت الملف إذن، معضدا بالقناعة المعبر عنها أوليا من قبل الملك والسيد مايور، أما النتيجة الملموسة الأولى لهذا العمل فهي الاعتراف بساحة جامع الفنا بمراكش كأول فضاء ثقافي مكون للتراث المعني، لتشمل اللائحة لاحقا، وإلى حدود 2006، ما لا يقل عن تسعين تحفة.

وثمة حدث نادر في تاريخ اليونسكو لا بد من التوقف عنده، ويتمثل في احتضان المغرب، سنة 1995، للدورة السادسة والأربعين بعد المائة للمجلس التنفيذي للمنظمة، وهو ثاني هيئة رئاسية لها بعد المؤتمر العام، يحضره حوالي خمسين من ممثلي الدول الأعضاء. وقد التأم الاجتماع بين الثاني

والخامس من شهر يونيو، في فاس أولا، أي في رحم فضاء مصنف تراثا عالميا للإنسانية، لإنهاء جدول أعمال الدورة العادية، ثم انتقل إلى الرباط بعدها حيث سيستقبل الملك الحسن الثاني الأعضاء. يوم 5 يونيو إذن، وعقارب الساعة تشير للواحدة زوالا بالضبط، ولج العاهل قاعة العرش، وقبلها، قمت بمساعدة مدير التشريفات الملكية والأوسمة ليأخذ كل من رئيس المؤتمر العام لليونسكو، ورئيسة وأعضاء المجلس التنفيذي، ومعهم المدير العام للمنظمة وحرمه، أماكنهم أمام المقاعد المخصصة للعاهل وولي العهد الأمير سيدي محمد والأمير مولاي رشيد. وعقب التحية والإنصات لكلمات الرئيسين والمدير العام، ارتجل جلالته مداخلة حول التربية والأسرة، مجددا دعمه للمنظمة ومديرها العام الذي تربطه به علاقة صداقة وتقدير. تقدم للسلام على الملك الحسن الثاني، والسيد مايور إلى جانبه، جميع أعضاء المجلس التنفيذي، الذين قدموا التهاني عقب ذلك للأميرين قبل الالتحاق بقاعة الاستقبال المجاورة. كنا نحن المغاربة الحاضرين آخر من تقدم للسلام على الملك، ولما حل دوري، تمنيت لجلالته عمرا مديدا باللغة العربية، وبينما المدير العام يشرح للعاهل المهام المنوطة بي لديه، فإذا بجلالته يقول ملاحظا: "لست بحاجة لتقديم السيد ساسون لي، فهو أول عميد علمي لدينا، كما أنني أعرف عائلته جيدا". بعد ذلك، وخلال حفل الاستقبال المقام من طرف الملك على شرف أعضاء المجلس التنفيذي، قدمت لجلالته عدة مؤلفات مهداة من قبل المدير العام، متمكنا من إجراء دردشة سريعة معه، شجعني العاهل أثناءها على مواصلة تعاوني مع الباحثين المغاربة في مجال علوم الحياة وهنأني على عملي في إطار اليونسكو.

في فبراير 1998، أكد الملك الحسن الثاني مجددا ثقته في أنشطة اليونسكو من أجل ثقافة السلم، وذلك عبر موافقته على رعاية يوم دراسي مخصص للحوار بين الديانات وبين الحضارات، واستقبال ممثلين بارزين للديانات السماوية الثلاثة بالرباط. صادف اللقاء شهر رمضان، والشرق الأوسط يعرف توترات خطيرة، مما كان يشغل بال العاهل وأقرب مستشاريه الدبلوماسيين. ورغم ذلك، استقبل الملك مطولا، بعد الإفطار، فيديريكو

مايور، للسؤال عن خلاصات اليوم الدراسي. جدد المدير العام للعاهل امتنان كل المشاركين بفعل حرارة الاستقبال المخصص لهم، والدعم الثابت لمواصلة الحوار بين الديانات والثقافات، الذي يعتبر أحد الدعائم الأساسية لتشييد ثقافة السلم. وبالمناسبة، أصدر جلالته أوامره بتنظيم فعاليات مماثلة أخرى بالمغرب، وبالخصوص في جامعة الأخوين بإفران، بينما كان مطلوبا من اليونسكو مساندة خلق كرسي أستاذية حول حوار الديانات والثقافات بجامعة فاس. وقد كلفني المدير العام بمتابعة تنفيذ توصيات ملتقى الرباط، بتنسيق مع باقي الموظفين المسؤولين في مكتب المنظمة وممثليتها بالعاصمة المغربية.

شهورا قليلة بعد وفاة الملك الحسن الثاني، نظمت وزارة الثقافة بالرباط ندوة هدفها إبراز المساهمة المتميزة للعاهل الراحل في السياسة والفعل الثقافيين لبلاده. تكلفت بتمثيل المدير العام لليونسكو في الندوة، قصد التذكير بما قام به الملك الحسن الثاني، بتنسيق مع المدراء العامين للمنظمة، لصالح الورش العملاق الخاص بإعادة تأهيل المدينة العتيقة بفاس، أحد مكونات التراث الثقافي للإنسانية، وبإسهاماته في بزوغ المفهوم الجديد للتراث الشفوي واللامادي للإنسانية، وكذا تطوير ثقافة السلم عبر العالم. وقد ختمت مداخلتي بالاستشهاد بما صرح به فيديريكو مايور يوم 23 يوليوز 1999 حيث قال إن وفاة جلالة المغفور له الملك الحسن الثاني "تشكل خسارة للإنسانية"، موضحا أنه "كان واحدا من كبار قادة عصرنا، وقد أتيحت لي شخصيا مناسبات كثيرة لأقدر مباشرة رؤيته ومخيلته وقدرته الفائقة على العمل"، ومضيفا "بأسى كبير أعبر في هذا الظرف الحزين عن الإعجاب الخاص الذي كان يوحيه لي جلالة المغفور له الملك الحسن الثاني"، ومؤكدا "سنسير على هدى نصائح جلالته الثمينة التي كان يسديها لنا".

ترأس جلالة الملك محمد السادس، في 18 ماي 2006، في القصر الملكي بأكادير، حفل تنصيب أكاديمية الحسن الثاني للعلوم والتقنيات. وبالمناسبة، قدمت التحية للعاهل الذي شرفني بتعييني عضوا مقيما بهذه الهيئة، بل كذلك عضوا في لجنتها التأسيسية سنة 2004. وهكذا، جدد جلالته الثقة التي

حظيت بها من قبل والده منذ سنوات خلت إبان صدور ظهير إنشاء الأكاديمية، حيث طلب الملك الراحل من بعض الزملاء، كنت أحدهم، التفكير في تنظيم هذه المؤسسة الهادفة إلى النهوض بالبحث العلمي والتقني وتنميته. وجاء هذا التعيين الأخير بعد قرار جلالة الملك محمد السادس، في 2001، بتمديد عضويتي بالمجلس الاستشاري لحقوق الإنسان، وهو ما يشكل بالنسبة لي استمرارية متميزة لتاريخ عائلتي.

عطاء كاتب وكتاب

محمد الناصري

تقديم كتاب مهمة لا تخلو من صعوبة تجعل من يقدم عليها موزعا بين مجازفتين اثنتين : الاطناب في الحديث عنه أو الاقتصاد في عرضه أكثر من اللازم من جهة، أو الاكتفاء بقراءة خطية لتقديم مضمون الكتاب او التمسك بالمسافة الضرورية لنقده ، من جهة اخرى.

لا اجد محاولتي في سياق أي واحد من الاحتمالات السالفة الذكر، لأن تقديمي هذا يتعلق بمؤلف أحببته كثيرا واستهوتني ماجاء فيه من معلومات لها من الجدة والعمق التاريخي حول شريحة من شرائح الشعب المغربي، لذا، فإنني سوف لا أتملص من قسط الذاتية في قراءتي لهذا الكتاب.

يسعدني، إذن، أن أقتسم مع القارئ المشاعر التي خلقها لدي "خياطو السلطان"، وذلك عن طريق التأمل فيما جاء فيه من معرفة حول الاقتصاد والمجتمع والسياسة في علاقة الطائفة اليهودية مع العائلة المالكة الانجليزية ومجتمعها الارستقراطي ونخبتها السياسية، عبر التجارة والمبادلات في الهند والصين خلال القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين، وهدا في الشق الاول للكتاب، أما الشق الثاني فهو مساهمة ثمينة تكشف عن جوانب من حياة القصر السلطاني عبر مرآة العلاقة المتميزة التي كانت قائمة بين ستة ملوك وعائلتي خياطيهم على مدى قرب من الزمن، من عهد الحسن الاول الى عهد الحسن الثاني، إن عرض سيرورة هذه العلاقة لم يقع حبيس اداء خدمة للسلاطين والامراء والاميرات في مجال الحياكة والتأثيث فقط، بل تجاوزه للتذكير ببعض الظروف والتقلبات التاريخية الحاسمة التي مر بها المغرب من اواخر القرن التاسع عشر الى اواخر القرن العشرين، فكان ذلك مساهمة فريذة في معرفة المجتمع المخزني من داخل القصر، والاطلاع على قدرته وحميميته

في نسج الروابط بين اعضاءه، والوقوف على امتداداتها في المجتمع الاوسع.

لكي أترك للقارئ فرصة التمتع باكتشاف الكتاب بنفسه، سأكتفي بتقديم مستويات ثلاث : الكاتب وبنية الكاتب، ملاحظات وتقييمات مؤشرة على أهمية الكتاب، ثم صياغة بعض الاسئلة من افكار أوحت لي بها قراءة هذه المحكيات.

اكتشاف

كنا في جولة جديرة أن تظل حاضرة في ذاكرتنا المشتركة، وذلك في الأطلس الكبير الغربي، صحبة علماء إسبانيين متخصصين في علم النبات، فحكى لي ألبير لأول مرة عن مهنة عائلته القديمة في القصر الملكي: خدمة السلطان كخياطين. يومها، تمنيت أن يجد الوقت لكتابة هذه القصة التي لا تعرفها سوى دائرة محدودة جدا من الناس خارج محيط الملوك والطائفة اليهودية بالمغرب، وعبرت له عن تطلعي لقراءة هذه السيرة عندما يحين الوقت لتدوينها.

وقع المفاجأة كان سارا حين أهداني ألبير نسخة من كتابه، بل تضاعفت المفاجأة إثر الشروع في قراءة صفحاته. أجل، لقد تجاوز السارد حدود مجرد حكي قصة عائلية أو كتابة سيرة أسرية مختصرة، علما أن هذه الأخيرة مثبتة في نهاية محكياته.

أعدت اكتشاف ميزات ألبير في رحاب هذا الكتاب، وذلك في مجالات وضوح العرض، وصرامة البرهان والدقة في التعبير، وكلها ميزات ليست غريبة عنه، فهو يكتب مثلما يتكلم، أسلوبه متشبع بفن التعبير عن الأشياء الحساسة ببراعة وصدق، وهو لا يتملص من القضايا الإشكالية، بل على عكس ذلك، يتحدث عنها بتطابق مع الغير وبتفهم. إنه يهبنا في كتابه، بفضل كل هذا، محكيات مكثفة تسندها ذاكرة لا تخون صاحبها وتقنية سرد محكمة، مما يضفي على فعل القراءة جاذبية لا تنضب.

ومع ذلك، ودون السقوط في التناقض، أجدني مضطرا للاعتراف بأنني واجهت شخصيا صعوبة في تتبع مسارات بعض الشخصيات، ويكمن السبب في ضعف طاقتي على تذكر الأسماء الشخصية، وهي كثيرة ومتنوعة في الكتاب. إن تعدد الأسماء الشخصية، وأحيانا تغيرها أثناء حياة أصحابها،

مثل سالم الذي صار شارل، حسيبة التي تحولت إلى أليس، أو راحاميم الذي غدا رايمون، عقّد بين الفينة والأخرى مجرى الحكاية حسب ما يبدو لي، أما معنى هذه التغيرات، فسأتطرق إليه لاحقا. لكن الكاتب وظف احترازين اثنين لتفادي الصعوبات التي قد يصادفها القارئ على هذا المستوى، احتراز أول يندرج في بنية النص بينما الثاني ذو طبيعة بيداغوجية.

فعلا، إن بنية محكيات ألبير جد متفردة، إذ اختار التعاقب بين تاريخ العائلة وتاريخ البلد المعني بدلا من الاقتصار على كتابة التاريخ الخطي للمسارات العائلية وصياغة بورتريهات تتوالى دون رابط جلي بينها. هذا الانتقال في حجم المحكي عنه، والعبور من مستوى العائلة إلى مستوى السلالة الحاكمة والتاريخ الشامل للبلاد ، ليس مجرد حيلة أسلوبية فحسب، بل إنه تقنية في الكتابة تفتح أبواب المحكيات على آفاق تاريخية فسيحة تهم تطور إنجلترا وإمبراطوريتها الاستعمارية، كما تهم مسيرة المغرب، من خلال تتابع سلاطينه، منذ الثلث الأخير من القرن التاسع عشر إلى نهاية القرن العشرين. وبفعل إعمال هذه التقنية، امتلكت المحكيات عمقا وحمولة يسلطان الضوء على السياق، ويشكلان أيضا أداة للتذكير المفصل والدقيق بأحداث طبعت تاريخ البلدين، أحداث أثرت، بشكل أو بآخر، في الطائفتين اليهوديتين المنتميتين لكل واحدة من الدولتين الانجليزية والمغربية كل منها في سياقها التاريخي. هكذا، ينقل التعاقب المذكور القارئ من التأريخ المشخصن لمسار عائلي إلى تاريخ أكثر عمومية للبلد وسلالته الحاكمة. إنه يسلط الأضواء الكاشفة إذن على السياق العام والظروف الخاصة التي تحكمت في مجريات الأحداث.

الاحتراز الثاني الذي تسلح به ألبير ذو طبيعة بيداغوجية، وهو اختيار طبيعي بالنسبة لأستاذ جامعي يتقن سبل التواصل مثله. تطبيقا لهذا الاحتراز الثاني، مارس الكاتب فعل التذكير الملائم من فصل إلى آخر، مزودا القارئ ببوصلة مؤشرة على مجرى الأحداث ومسار الشخصيات حتى لا يتيه في ثنايا تشعبات علاقات البنوة والمصاهرة والقرابة، ولا يفقد الاتجاه وسط تعقيدات العلائق الزوجية. أشجار النسب التي تستهل الفصول هدفها تيسير إلمام القارئ المفترض بالعلاقات الأسرية القائمة بين الشخصيات الفاعلة في

الحكاية أو الشخصيات الشاهدة عليها فقط. وبفعل هذا، يثبت ألبير أنه نساب مختص في "علم الأنساب"، يضبط علاقات القرابة والأبوة بدقة تضاهي دقة أكبر نسابي فاس المشهود لهم بالتفوق في مجال وضع أشجار أنساب الشرفاء. الأمر هنا لا يتعلق بمجرد صدفة، فالقارئ سيكتشف الدور المحوري الذي لعبته فاس، ومعها الثقافة اليهودية في رحابها، في تكوين ألبير الذي هو نموذج الحضري الفاسي الذي تتوفر فيه شروط التمدن الثلاث: الإلمام التام بالأنساب، امتلاك حاسة التموقع الدقيق في المجال ومعرفة الوضع الاجتماعي لكل واحد من أفراد شبكة العلاقات الواسعة.

هندسة المحكيات

يتشكل جوهر المحكيات في حد ذاته من جزأين اثنين متفاوتي الطول، مع أن أهمية كل واحد منهما توازي أهمية الآخر في اعتقادي:

- جزء أول مخصص للحكاية التاريخية لآل ساسون وعلاقاتهما مع الشرق والغرب ابتداء من القرن التاسع عشر إلى حدود ما بعد الحرب العالمية الثانية، ولدورهم خلال قيام الإمبراطورية الاستعمارية البريطانية في الهند والصين، وكذا لدى العرش والحكومة البريطانيين.

- جزء ثان يتضمن ستة فصول، ثلاثة منها تتمحور حول شخصية محمد الخامس، علاقته الخاصة مع الطائفة اليهودية ونتائج مواقفه لصالحها في عهد حكومة فيشي، وكذلك الأحداث التي تمخض عنها نفيه، ثم عودته من المنفى واستقلال البلاد. مجموع فصول الجزء الثاني يتناول علاقات الطائفة اليهودية، وخاصة خياطو السلاطين، مع ستة من عاهلي المغرب تعاقبوا على العرش منذ الثلث الأخير من القرن التاسع عشر إلى نهاية القرن العشرين، أي من الحسن الأول إلى الحسن الثاني.

عرف آل ساسون، الذين تعود أصولهم إلى العهد العباسي في ظل حكم هارون الرشيد، مسارا متفردا. سلف السلالة ومؤسسها، المولود في بغداد سنة 1750، ساسون بن صالح، هو أول فرد من العائلة تتوفر حوله أخبار كافية. وبفضل تحمله مهمة "صراف باشي"، المصرفي المركزي، لدى السلطات العثمانية، ومسؤوليته

في استخلاص الضرائب من الطائفة اليهودية، فقد كان أغنى شخص في بغداد وأكثر الناس تمتعا بالاحترام، مثلما حمل لقب "الشيخ" الشرفي.

ابنه، داوود، وحفيداه، عبد الله وإلياس، سيصبحون بناة إمبراطورية تجارية عملاقة بعد مغادرتهم بغداد اضطراريا إثر تعسفات أحد الولاة. لقد استقروا، عقب قضاء مدة وجيزة بإيران، في بومباي بالهند، جاعلين منها رأس حربة توسع شركتهم الميركانتيلية التي ستعرف نموا ونجاحا كبيرين، وهو ما تم عن طريق عدم التسرع في ولوج أسواق جديدة والانتشار جغرافيا، على شاكلة انقسام فرق النحل، لمقاولاتهم المتنوعة الأنشطة: تجارة القطن، الأفيون والمواد النادرة، صناعة النسيج والاستثمارات العقارية الحذرة. هكذا، كانت إمبراطورية تبني نفسها بتزامن مع تشييد الإمبراطورية البريطانية في الهند وامتدادها في آسيا، وخاصة شنغهاي وهونغ كونغ.

خصص ألبير فصلا كاملا لآل ساسون الشرق والغرب، ومن المثير للانتباه في مسار هذه العائلة وشركتها، داوود ساسون وأبنائه، أن توسع هذه الأخيرة عبر تجارة النسيج، القطن والأفيون وأنشطة أخرى مدرة للأرباح (شرقا) في الإمبراطورية البريطانية الفسيحة، وازاه تسلق متواصل إلى أعلى الهرم الاجتماعي، السياسي والثقافي في أوساط النخبة الاروستقراطية في المملكة المتحدة (أي غربا). في نفس الوقت إذن، بُنيت إمبراطورية آل ساسون التجارية بينما عرفت بريطانيا توسعا استعماريا في الهند والصين.

يصف ألبير هذا الارتقاء الاجتماعي المذهل بالكلمات الآتية رغم انضباطهم للشكليات بشكل أكثر صرامة من أسرة روتشيلد ومحدودية انفتاحهم اجتماعيا على خلاف هذه الأخيرة، ظفر آل ساسون بسهولة، بالحظوة لدى العائلة المالكة، مستفيدين من هالة هيبة الغرائبية النابعة من دورهم في إمبراطورية الهند والموانئ الصينية المفتوحة للأجانب". وعليه، فمن المشروع التساؤل: ما الذي سبق الآخر، ما الذي خلق شروط التوسع للآخر: إمبراطورية آل ساسون الميركانتيلية أم الإمبراطورية الاستعمارية البريطانية ؟ وكيفما كان الجواب على هذا السؤال المؤجل، فالعلاقات الأولى للعائلة مع أفراد الأسرة الملكية البريطانية نسجت في البدء بالهند، بمناسبة إعلان تربع الملكة فيكتوريا على العرش، العاهلة التي

ستصبح إمبراطورة الهند في 1837، لتتطور هذه العلاقات لاحقا بعد استقرار داوود في إقامة لندنية باذخة، وتتعمق طوال القرن التاسع عشر. منحت الملكة فيكتوريا، في 1872، صفة "السير" وهو لقب له دلالة على النبل لعبد الله ساسون، الذي سيحمل بعدها اسم ألبير (سأتعرض لظاهرة تغيير الأسماء هذه لاحقا)، وحاز ثلاثة أفراد من العائلة منتمين لثلاثة أجيال ألقاب النبل، مما سيوثق عرى علاقات الصداقة بين الأسرة والعرش البريطاني، وخصوصا مع الملكين إدوارد السابع وإدوارد الثامن. يضيف ألبير: "بسرعة، اندمجت عائلة ساسون في أوساط الأرستقراطية التجارية والمصرفية بلندن، جنبا إلى جنب مع آل روتشيلد وأصحاب ثروات طائلة آخرين عاملين في مجالي الصناعة والمال". من جانبها، أدت زيجات آل ساسون من عائلة روتشيلد إلى التخفيف من حدة التمايز بين الأشكناز والسفارديم، كما تقوت علاقتهم أيضا مع شخصيات بارزة من الطبقة السياسة إلى ما بعد الحرب العالمية الثانية. بعض أبناء العائلة سيصيرون كذلك، في ظل ظروف صعبة، وزراء في عدة حكومات ويتولون مهام كبيرة فيها ويربطون علاقات مع أسماط مشهورة من بين النخبة الحاكمة في بريطانيا، لعل أكثرهم رمزية هو وينستون تشرشل، وذلك على غرار أسلافهم الذين عرفوا شخصيات حكومية بريطانية بارزة من قبيل غلادستون وديسرائيلي. هذا الصعود اللافت لآل ساسون اعتمد على شخصيات مهمة للغاية من العائلة، لن أذكر منها غير اسمين تاركا للقارئ فرصة اكتشاف الأسماء الأخرى بنفسه: السير فيكتور ساسون (1881-1961)، ثاني بارونيت من فرع العائلة المنحدر من إدوارد إلياس ساسون أولا، وثانيا فلورا ساسون (1859-1936)، زوجة سولومون الذي لم يخلف أطفالا.

جابه السير فيكتور منافسة الشركات اليابانية والألمانية لما أجيز لها إنشاء مصانع فوق التراب الصيني إثر فتحه في وجه الغربيين، ولكسب المواجهة، لجأ إلى تنويع تجارته عبر مجموع الإمبراطورية البريطانية، بل على الصعيد العالمي. وقد شيد إحدى أكثر إمبراطوريات عصره ازدهارا في مجالات العقار، والإنتاج والخدمات. وعمل، بشكل خاص، على تنمية إسطبلات خيوله، هو العارف الملم بتربية الجياد والمختص في سلالاتها الحائزة على انتصارات باهرة في ديربي إبسوم، المسابقة الشهيرة التي فاز بها

لأول مرة في 1953. كان السير فيكتور ساسون علمانيا ومرتابا من الصهيونية، ونظرا لامتداد معاملاته من جزر الباهاماص إلى نيويورك، ومن إنجلترا إلى باريس، ومن بومباي إلى دلهي وشنغهاي، وذلك إلى حين توقفها بسبب اجتياح هذه المدينة الأخيرة من طرف قوات ماو زيدونغ، فإنه يمكن اعتبار إمبراطوريته تجسيدا مسبقا لمقدمات أول عولمة.

من جهتها، أدارت فلورا ساسون أعمال زوجها عقب وفاته رغم معارضة أصهارها وقلق الطائفة اليهودية الهلعة من رؤية امرأة تمسك بزمام الأمور، لكن رد الفعل الشرقي إزاء المرأة لم يمنعها من تدبير ممتلكات زوجها الراحل بصرامة. ويوم رحيلها من بومباي نهائيا متوجهة إلى إنجلترا، وضعت شابة فارسية حول عنقها إكليل زهر يحمل عبارة: "صاحبة الجلالة، ملكة بومباي وإمبراطورة مالابار هيل"، الحي الراقي الذي كانت تنظم فيه أفخر حفلات الاستقبال وتمارس أنشطتها الإنسانية لفائدة الطائفة اليهودية. ولما استقرت في الديار الإنجليزية، ستنال الاعتراف كمرجع في القضايا المتعلقة بمذهب اليهود السفارديم وشعائرهم، كما وصفها حاخام إنجلترا بكونها بئرا حيا للتوراة والتقوى، علما أنها استمرت في استقبال ضيوفها بسخاء، وفق الأسلوب الشرقي العريق وباحترام دقيق لطقوس الديانة اليهودية.

مشروعية هذا العرض المسهب لمسار آل ساسون الشرق والغرب وهاتين الشخصيتين الرمزيتين، تتمثل في كون الحكاية التاريخية للعائلة تثير سلسلة من الأسئلة المرتبطة بألغاز كيفية بلوغ الشهرة أولا، والقرب من الحكم لدرجة الالتصاق به والاندماج فيه ثانيا. وتستدعي القصة أيضا التساؤل حول مكانة الثقافة، ومعها القدرة على الانخراط في الأوساط الراقية، كعاملين وظفهما هؤلاء الرواد الكبار في مجالات التجارة والاقتصاد والسياسة والثقافة، لنيل الارتقاء الاجتماعي والوصول إلى صدارة المشهد الوطني.

يقودني مصير أحد آخر المنحدرين من العائلة، المناصر للسلم والأديب سيغفريد ساسون، إلى مساءلة دور الثقافة والوفاء في قدرة الطائفة اليهودية على تحقيق تراكم رمزي في أفق الاندماج في المجتمع. وأسواق هنا مثل البورجوازية اليهودية في العراق التي حققت خلال القرن العشرين في بغداد

وباعتراف الجميع اندماجا كاملا في محيطها الاجتماعي والسياسي، مستعملة العربية كلغة للثقافة، وساهمت بقسط وافر في تطور الأدب والشعر، مما بوأ أعضاءها مكانة في مصاف الشخصيات البارزة في الحقل الثقافي والاجتماعي، وذلك قبل الويلات التي حلت بالبلد منذ منتصف القرن الماضي. ثمة إذن كيمياء من اللازم تحديد مكوناتها بهدف الإحاطة بسيرورة هذه المسارات الخارقة، واستيعاب الميكانيزمات التي عبدت لها طريق النجاح والقدرة على التأثير والتحول إلى أسطورة.

خياطو السلطان

ما العلاقات وما روابط النسب بين آل ساسون الشرق والغرب SASSOON وآل ساسون المغرب SASSON، إخوتنا في الوطن؟ وبينما سأترك للقارئ فرصة اكتشاف جذور حكاية تاريخية أخرى يندرج تطورها ونجاحاتها في مستوى تطور بلادنا، أذكر بأن العادة والأعراف دفعت عاهلي العائلة العلوية، نظرا لانخراط بعضهم في المبادلات الدولية عبر التجارة الصحراوية، إلى توظيف تجار يهود في خدمتهم وتعيين سفراء غير دائمين لهم، منحدرين من صفوف الطائفة كذلك، وإرسالهم في مهام لدى القوى العالمية الكبرى. ظل آل ساسون المغرب في ظل السلاطين، خلافا العائلة ذات الاسم العائلي المجانس لكنيتهم، ولذا، فتاريخهم يعكس واقعا مغايرا. هناك بكل تأكيد اختلافات حين نقارن بين العائلتين، لكنها فوارق في الدرجة وليس في الطبيعة، نابعة من درجة تطور كل من البلدين، فمغرب قبل الحماية وإبانها وبعد الاستقلال ليس هو إنجلترا القرنين التاسع عشر والعشرين. وتبعا لهذا المعطى، لم ينعم آل ساسون المغرب بثروة مثيلة لثروة الحاملين للقبهم العائلي شرقا وغربا، لكنهم يحظون، على مستوانا، بأهمية فائقة ونفيسة تكمن في تجربتهم الإنسانية، إذ كانوا شهودا أكثر من غيرهم على حياة البلاط وألغازه. ومن ميزاتهم المشتركة جميعا الكفاءة والوفاء والاستمرارية، هم الذين خدموا ستة ملوك وعايشوا اضطرابات المغرب المعاصر.

ثلاث شخصيات تبرز من ضمن آل ساسون: الجد الأول أبراهام ساسون أو

المعلم ابراهيم الناسج لعلاقات وثيقة مع أسر رباطية، ثم الياقوت ومسعودة، وسأكتفي بالتطرق لبعض الوقائع المرتبطة بهم. كان أبراهام شاهدا وفاعلا في التمهيد للإصلاح العصري للمؤسسة الملكية في مجال انتقال العرش، إحدى نقط الضعف الوراثية للنظام السياسي.

أمر مولاي الحسن الأول شهورا قبل وفاته، أبراهام بخياطة زي أبهة كامل للأمير المولى عبد العزيز، مماثل للذي يضعه هو نفسه، ليؤدي به صلاة الجمعة يرتديه برفقته. تردد الخياط أمام الطلب، غير أنه، إثر استشارة الصدر الأعظم، شرع في العمل، ويوم الصلاة، توجه مولاي الحسن ومولاي عبد العزيز إلى المسجد، والابن يتقدم الأب ممتطيا صهوة جواد شبيه بجواد العاهل، وهما معا يستظلان بالمظلات، رمز الملكية. إنها بالفعل بادرة يمكن تأويلها كإعلان عن انتقال السلطة، وقد فطن باحماد، الصدر الأعظم، لرمزية البادرة، فسهر على تربع المولى عبد العزيز على العرش خلفا لوالده. ويعلم الجميع أن سلطات الحماية غيرت، لاحقا، نمط انتقال الحكم.

علاقات الثقة والمودة المنسوجة بين نساء القصر ونساء خياطي السلطان، ومنها على سبيل المثال العلاقات بين الياقوت وأم سيدي عويشة، حرم مولاي يوسف، وبين مسعودة، الممرضة المساعدة لوالدة محمد الخامس، وهذه الأخيرة، تفصح بجلاء عن مدى اندماج عائلة الخياطين. وفي هذا السياق، يتضمن الكتاب شهادة غير مباشرة عن حداثة محمد الخامس. حدث أن طلبت زوجة العاهل من عائشة، الزوجة الثانية لحاييم بوطبول، وضع الحجاب والجلباب حين خروجها معها. أذعنت زوجة الخياط على مضض للأمر رغم طبعها الحازم، لكن محمد الخامس كان له رأى مخالف فتدخل لترتدي ما يروقها من الأزياء. ووفق شهادة أخرى، تضايقت عائشة من التحفظ حول مشاركتها في إعداد لحم مفروم (كفتة) سيتناوله السلطان، فتدخل محمد الخامس مجددا، قائلا لزوجته إن الجميع يسعد بمناسبة الفرحة، الطقس السنوي المتمثل في إحضار آل ساسون لأطباق منتقاة من المطبخ اليهودي إلى القصر، فلماذا إذن ترفضين مساهمة عائشة في تحضير أكلة في عين المكان؟ ليست هذه الملاحظتان عربون احتكام للمنطق فحسب، بل دليل انفتاح كذلك. على الآخر وتوجه نحو إرساء العلاقة الانسانية على أسس التفاهم واحترام الاختلاف.

آل بوطبول وخلافة آل ساسون

شكل التوقف النسبي لآل ساسون عن ممارسة مهنة الخياطة لدى القصر منطلقا لمرحلة جديدة في عز أزمة حقبة الحماية، أو ما يسمه ألبير بعهد القطائع. أجل، لم تتعرض الملكية بمفردها لتقلبات التاريخ مع نفي محمد الخامس ، بل شاركها خياطوها أيضا في ذلك. لقد قامت الإقامة العامة التي كانت بعض مكوناتها ما تزال تحن إلى حقبة حكومة فيشي الفرنسية المتعاملة مع الاحتلال الالماني لفرنسا ، بمطالبة خياطي السلطان بشهادة تتهم العاهل المنفي بعد دفع كل مستحقاتهم، فكان الجواب أنه أدى كل ديونه قبل رحيله، وهو ما لم يكن ممكنا عمليا نظرا للاضطراب الذي صاحب ذهابه إلى المنفى. هذا السلوك دليل إضافي على الوفا ء، وهو يمثل جزاء رمزيا لما قام به محمد الخامس من أجل حماية الطائفة اليهودية خلال الحرب. وارتباطا بهذا الشأن، يسوق ألبير شهادات مؤثرة ومؤكّدة في محكياته.

مع التحاق حاييم بوطبول وشركائه بالعمل كخياطين لدى الحسن الثاني، بدأت طبيعة المهنة تتحول بفعل تنويع المهام الموكولة لهم، وخاصة في ميادين التنقيب عن المستجدات، تأثيث القصور واختيار أنسجة ذات جودة عالية للاستجابة للطلب المتزايد. غير أن هذا التطور لن يبلغ مداه بسبب عدة عوامل سيكتشفها القارئ بين طيات الكتاب.

أدمجت فصول هذا الجزء الثاني الستة، في صلب صفحاتها الساردة لمختلف محطات مسار العائلة، تاريخ تطور المغرب سياسيا برجاته ومآسيه، ولكن أيضا بلحظات فرحه وابتهاجه. ربما يزعم البعض أن الأحداث التاريخية المذكورة معروفة، وهو ما لست مقتنعا به تماما. وبالفعل، فقلة الاهتمام بالثقافة التاريخية، بالإضافة إلى النسيان، يساهمان في بث ثقوب يؤدي إلى محو كثير من الأحداث أو اسدال الستار عليها في ذاكرتنا. وحسنا فعل ألبير لما ذكرنا ببعض المحطات القوية في تاريخنا ، ساردا تفاصيل غزيرة، وهو ما أثمنه شخصيا. لقد أنعش ذاكرتنا حول أحداث طمرت تعود للقرنين التاسع عشر والعشرين، مع تأريخها ووضعها في سياقاتها الاجتماعية والاقتصادية والسياسية.

×××

في ختام هذا التقديم، سأشير لنقطتين اثنتين لهما أهميتهما تتعلق النقطة الأولى التي سبقت الإشارة إليها عرضا، بالأسماء الشخصية وتغيراتها أثناء حياة أصحابها ثم تشابه اللباس بين الطائفتين المسلمة واليهودية. إن أول ما جلب اهتمامي هو التماهي مع ماهو سائد في مجال اللباس. فالصور المنشورة في آخر الكتاب تبين بوضوح أن النساء والرجال كانوا يرتدون ملابس مشابهة للالبسة التي يرتديها السكان في المجتمع الحضري المسلم، يضاف إلى هذا تطابق الأسماء النسائية لدى اليهود والمسلمين: رحمة، عائشة والياقوت (وهو كذلك اسم والدة محمد الخامس التي كانت مسعودة تعتني بها). ونعثر على هذا التطابق أيضا، وإن بوتيرة أقل، في أوساط الذكور. بكل تأكيد، سيتذكر القارئ السلف الأول لآل ساسون الشرق والغرب، عبد الله، الحامل للقب الشيخ، كما أن أسماء يوسف، سالم، ميمون وغيرها كانت منتشرة في أوساط الطائفة اليهودية بالمغرب. فما دلالة هذا التماثل؟ يبدو لي أن الجواب يكمن في القدرة على الاندماج في الثقافة السائدة داخل البلد حيث تعيش الطائفة اليهودية، وما تغيير الاسم الشخصي إلا برهان على نزوعها الطبيعي إلى التكيف والمعاصرة، ورغبتها في الاندماج في ثقافة تشق طريق الإرتقاء الاجتماعي والإقتصادي والسياسي. لكن، هل تنسحب هذه الظاهرة على الطائفة اليهودية بمفردها؟ إنها في الواقع ظاهرة قابلة للمعاينة لدى العديد من الفئات البشرية لأسباب متنوعة وربما هي ظاهرة لصيقة بأوضاع الأقليات.

حاصل القول أن قراءة محكيات ألبير المشوقة تبرز القيم المشتركة، مع وجود بعض الفوارق، بين حكايتي آل ساسون الشرق والغرب وآل ساسون المغرب التاريخيتين: احترام التقاليد الذي لا يلغي بعض التجاوزات، الوفاء،

التضامن، الكفاءة، المهارة والكياسة الاجتماعية. وتستحق الفقرات المخصصة للحفلات في فاس قراءة متأنية، إذ لا يتعلق الأمر في متنها بمجرد فضاء للحميمية، بل كذلك بمرآة وذاكرة توطد التضامن بين مكونات الطائفة، كما تنسج روابط وثيقة بين الطائفة ومحيط عيشها، وذلك خارج دائرة العمل والعلاقات المهنية بشكل يعتبر إثراء لهذه الأخيرة.

ثمة كلمة أخيرة موجهة أساسا إلى ألبير الذي كتب عن وجود قطيعة في سلسلة خلافة خياطي السلطان، مبرهنا على ذلك بتسلم آل بوطبول المهمة من آل ساسون. أعتقد أن هذا الحكم ضرب من المجاز الصرف، لايعكس كل تداعيات انتقال تهذه المهنة من سلالة لأخرى تربطهما أواصر القرابة العائلية، فألبير نفسه، وإن لم يرث مهنة خياطة الأثواب، يظل خياطا بارعا للتواصل الاجتماعي والإنساني، إنسانا ممتلكا لفن وطريقة اكتشاف آفاق التعاون والتآزر بين أشخاص وافدين من عوالم مختلفة، وبارعا في نسج العلائق بين ذوي النيات الحسنة من أجل تنمية مصالح الوطن الذي ظل مرتبطا به بكل جوارحه. وهذا كذلك عربون وفاء وتضامن لا بد من تحيته.

بعض المراجع البيبليوغرافية

• Alaoui Moulay Ahmed. 1997. Il y a 46 ans, le duel Mohammed V – Juin du 26 janvier 1951. Le « non » de S.M. Mohammed V à l'ultimatum du général Juin. *Le Matin du Sahara et du Maghreb* (Rabat), 26 janvier 1997, pp. 4-5.

• Alaoui Moulay Ahmed. 1997. Célébration du 22ème anniversaire de la Marche Verte. *Le Matin du Sahara et du Maghreb* (Rabat), numéro spécial, 6 novembre 1997, XVI pp.

• Alaoui Moulay Ahmed. 1998. Le « non » de S.M. Mohammed V à l'ultimatum du général Juin. *Le Matin du Sahara et du Maghreb* (Rabat), 26 janvier 1998, pp. 5-7.

• Alaoui Moulay Ahmed. 1998. 47ème anniversaire du duel entre S.M. Mohammed V et le général Juin – 25 février 1951. *Le Matin du Sahara et du Maghreb* (Rabat), 25 février 1998, pp. 1 et 7-14.

• Alaoui Moulay Ahmed. 2000. Il y a 45 ans, le retour de S.M. Mohammed V et de la Famille Royale et la fin du protectorat. *Le Matin du Sahara et du Maghreb* (Rabat), 31 octobre 2000, p. 7.

• Alaoui Ahmed. 2001. S.M. Mohammed V fait Compagnon de la Libération par le Général de Gaulle. *Le Matin du Sahara et du Maghreb* (Rabat), p. 9.

• Assaraf Robert. 1997. *Mohammed V et les Juifs du Maroc à l'époque de Vichy*. Paris, Plon, 281 pp.

• Blumenfeld Samuel. 2005. Shanghai ressuscite sa "Little Vienna". *Le Monde 2* (Paris), 31 décembre 2005, pp. 46-49.

• Cercle d'Amitié Franco-Marocain. 2006. *Le Maroc et la France. 50 ans après, une amitié dans la durée*. Colloque au Palais Bourbon, 7 novembre 2005. Paris, Cercle d'Amitié Franco-Marocain (37, rue des Mathurins, 75008 Paris), 141 pp.

• Chamak Raphaël. 2005. Qui a tué Ben Barka ? *Le Monde 2* (Paris), 29 octobre 2005, pp. 59-69.

• Cojean Annick. 2002. Lalla, la princesse des humbles. *Le Monde* (Paris), 15 février 2002, p. 14.

• Essakali Larbi ; Maurin Henri. 1982. *Le Mémorial du Maroc. Volume 4. 1666-1906 : de la grandeur aux intrigues*. Rabat, Nord Organisation, 288 pp.

• Essakali Larbi ; Maurin Henri. 1983. *Le Mémorial du Maroc. Volume 5. 1906-1934 : morcellement et résistance*. Rabat, Nord Organisation, 286 pp.

• Essakali Larbi ; Maurin Henri. 1984. *Le Mémorial du Maroc. Volume 6. 1934-1953 : lutte du Roi et du peuple*. Rabat, Nord Organisation, 286 pp.

• Goldenberg André (ed.). 1992. *Les Juifs du Maroc. Images et textes.* Paris, Editions du Scribe, 314 pp.

• Jackson Stanley. 1968. *The Sassoons*. Londres, Heinemann, 304 pp.

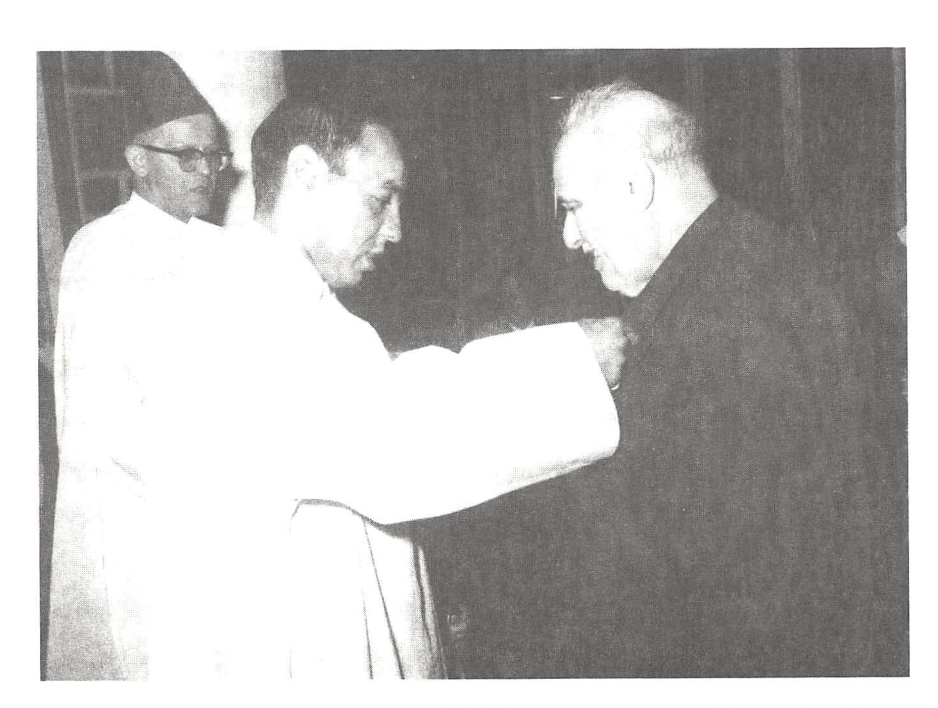
• *Juifs du Maroc. Identité et Dialogue*. 1980. Actes du colloque international sur La communauté juive marocaine : vie culturelle, histoire sociale et évolution (Paris, 18-21 décembre 1978). Grenoble, Editions de la Pensée Sauvage, 381 pp.

• Kenbib Mohammed. 1994. *Juifs et Musulmans au Maroc – 1859-1948. Contribution à l'histoire des relations inter-communautaires en terre d'Islam*. Rabat, Université Mohammed V, Publications de la Faculté des Lettres et des Sciences humaines – Rabat, série : Thèses et Mémoires, n° 21, 756 pp.

• Muller-Lancet Aviva ; Champault Dominique. 1986. *La vie juive au Maroc*. Jérusalem, Musée d'Israël ; Tel-Aviv, Editions Stavit, 269 pp.

• Serfaty Nicole, S. ; Tedghi Joseph (eds.). 2004. *Présence juive au Maghreb. Hommage à Haïm Zafrani*. Paris, Editions Bouchene, 604 pp.

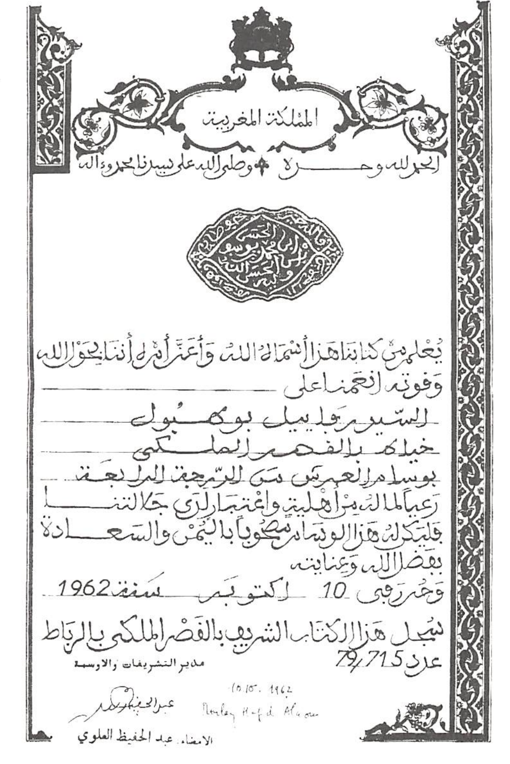
• Zafrani Haïm. 1972. *Etudes et recherches sur la vie intellectuelle juive du Maroc de la fin du 15e au début du 20e siècle. Première partie : Pensée juridique et environnement social, économique et religieux*. Paris, Geuthner, 331 pp.



الملك الحسن الثاني يوشح حاييم بوطبول (1883 / 1967)، خياطه، بحضور الجنرال مولاي حفيظ العلوي، وزير القصور الملكية والتشريفات والأوسمة، بالقصر الملكي بالرباط



الملك الحسن الثاني يوشح رفاييل بوطبول (1908 / 1966)، خياطه، يوم 10 أكتوبر 1962، بحضور الجنرال مولاي حفيظ العلوي، وزير القصور الملكية والتشريفات والأوسمة، بالقصر الملكي بالرباط



المملكة المغربية

الحمد لله وحده وصلى الله على سيدنا محمد وآله

يعلم من كتابنا هذا أسماه الله وأعز أمره أننا بحول الله
وقوته أنعمنا على
السيد رفاييل بوطبول
خياط بالقصر الملكي
بوسام العرش من الدرجة الرابعة
رعيا لما له من أهلية واعتبارا لدى جلالتنا
فليتحل بهذا الوسام مصحوبا باليمن والسعادة
بفضل الله وعنايته
وحرر في 10 أكتوبر سنة 1962

سجل هذا الكتاب الشريف بالقصر الملكي بالرباط
عدد 79/715

مدير التشريفات والاوسمة

10.10. 1962

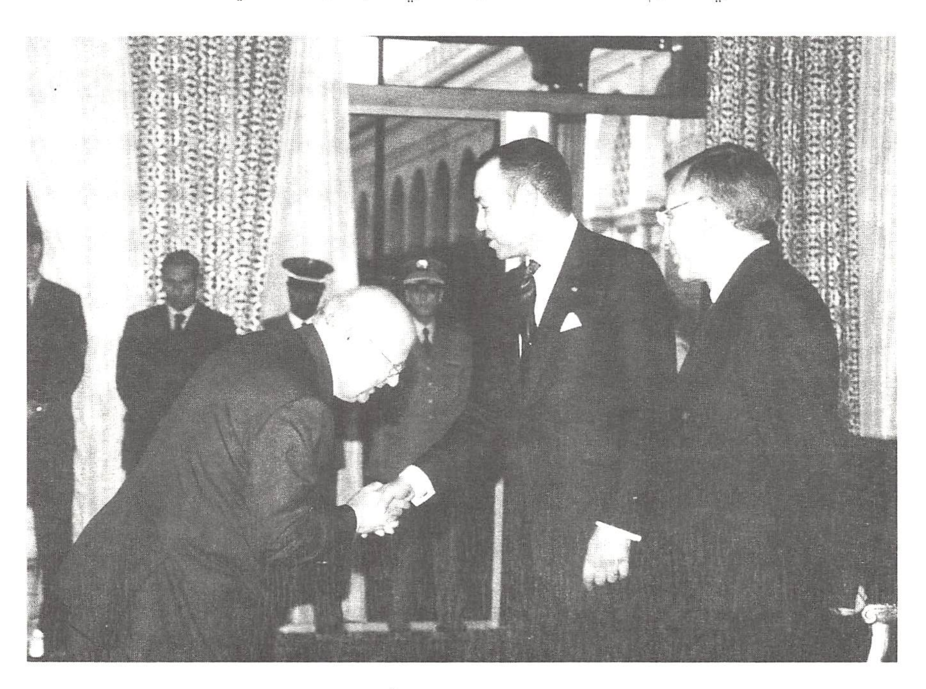
Moulay Hafid Alaoui

الامضاء عبد الحفيظ العلوي

شهادة مؤرخة في 10 أكتوبر 1962 متعلقة بالوسام الذي ناله رفاييل بوطبول



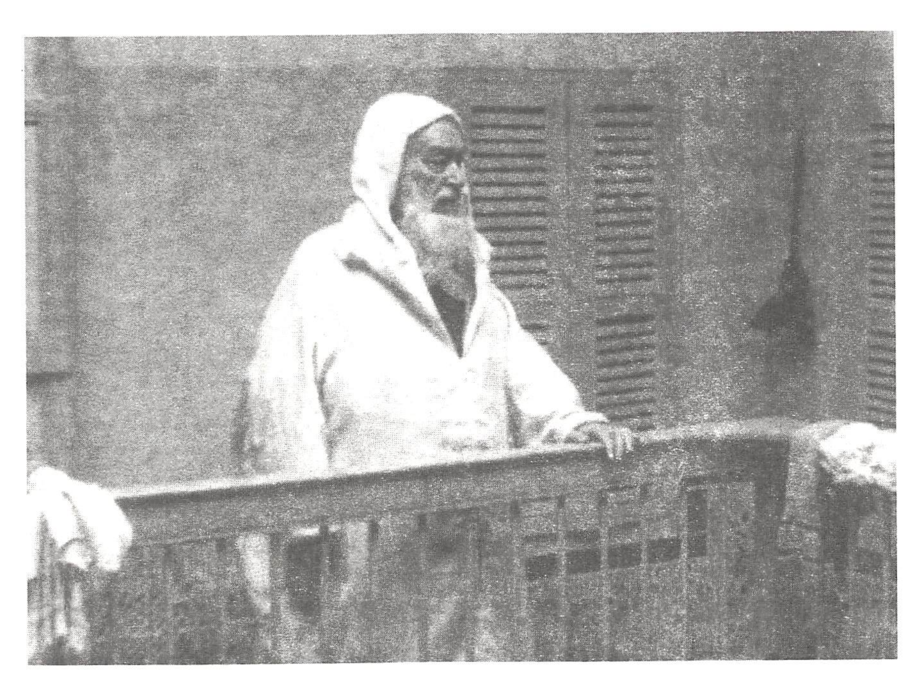
صاحب الجلالة الملك محمد السادس يستقبل ألبير ساسون، عضو أكاديمية الحسن الثاني للعلوم والتقنيات (القصر الملكي بأكبادير، 18 ماي 2006)



صاحب الجلالة الملك محمد السادس يتلقى تهاني ألبير ساسون، عضو المجلس الاستشاري لحقوق الإنسان، بحضور عمر عزيمان، رئيس المجلس (القصر الملكي بالرباط، دجنبر 2002)



سفير جلالة الملك الحسن الثاني في فرنسا، عباس الفاسي، يسلم وسام العرش من درجة فارس لألبير ساسون (باريس، مقر إقامة السفير، فبراير 1994)

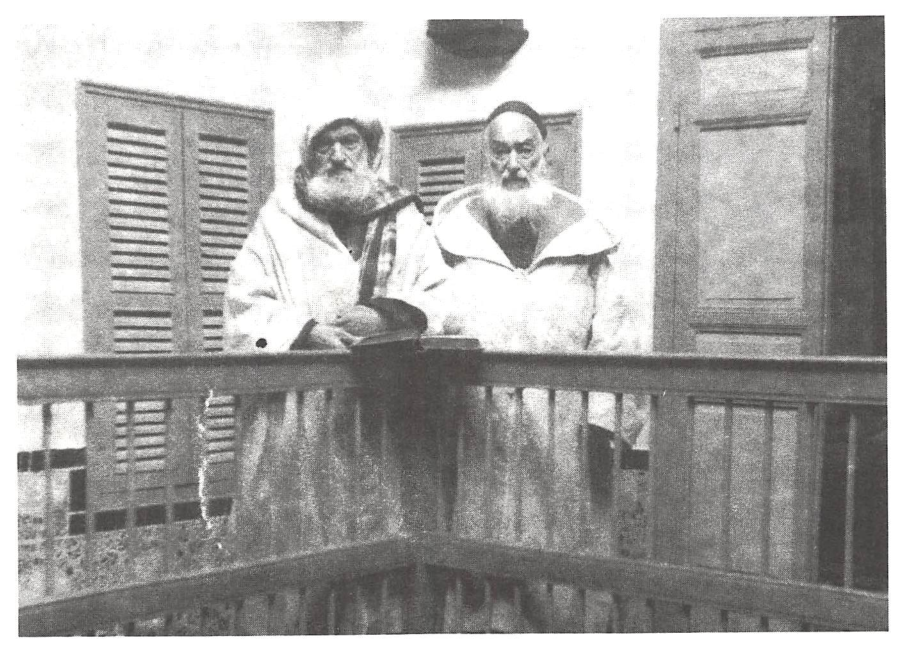


أبراهام ساسون (1860 / 1939) في بيته بملاح الرباط



أبراهام والياقوت ساسون في منزلهما بملاح الرباط

الياقوت ساسون (1871 / 1941)، الزوجة الثانية لأبراهام ساسون في بيتها بملاح الرباط



أبراهام ساسون (يمين الصورة) وأخوه سالومون (1858 / 1943)
في منزل الأول بملاح الرباط



الياقوت ساسون (1871 / 1941)، المزدادة مامان، الزوجة الثانية لأبراهام ساسون وهي تلبس "الكسوة الكبيرة" اليهودية التقليدية



رحمة ساسون (1888 / 1929)، البنت البكر لأبراهام ساسون وحسيبة بنسوسان



عائشة ساسون (1894 / 1978)، ابنة أبراهام ساسون وحسيبة بنسوسان، مع أخيها غير الشقيق أمرام موشي (أرمان، 1907 / 1988)، ابن أبراهام من زوجته الثانية الياقوت مامان



عائشة ساسون (1894 / 1978)، زوجة حاييم بوطبول الثانية



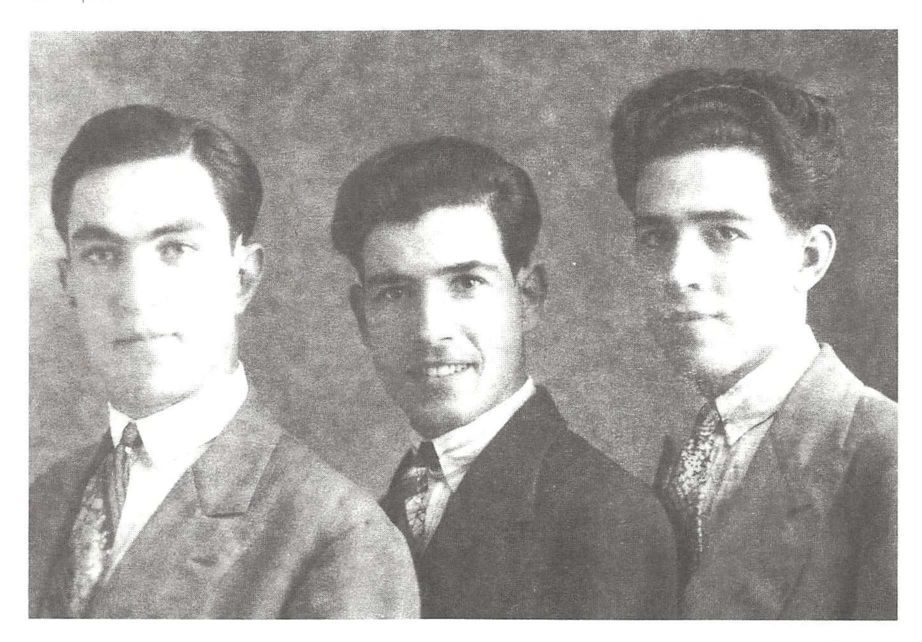
مسعودة 1975/1889 يمينا، وعائشة 1978/1894 يسارا، بنات أبراهام ساسون وحسيبة بنسوسان، في صورة التقطت لهما بمنزل حاييم بوطبول (زوج عائشة) في ملاح الرباط



أرمان ساسون (1907 / 1988) يسارا، ويمينا راحاميم (رايمون) إلوز، ابن خالته مسعودة ساسون



في الصف الأول من اليسار إلى اليمين: مسعود بوطبول (1912 / 1975)، ابن حاييم بوطبول ورحمة ساسون، وشارل ساسون (1911 / 2000)، ابن أبراهام ساسون والياقوت مامان. أما يسار الصف الثاني، فيظهر صامويل (سام، 1912 / 2003)، بينما أرمان ساسون (1907 / 1988) وسط هذا الصف. الصورة التقطت على شرفة منزل أبراهام ساسون بملاح الرباط



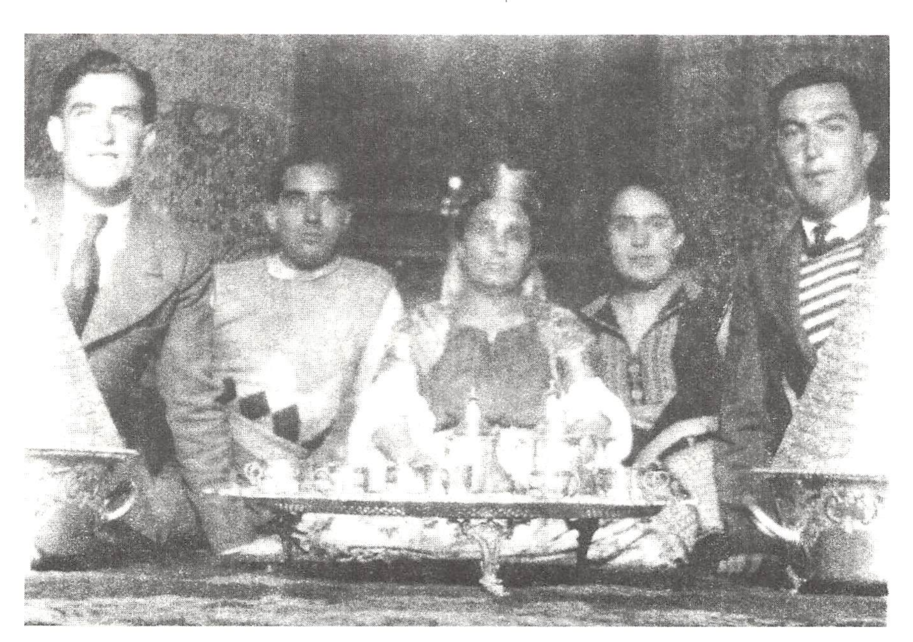
أرمان ساسون (1907 / 1988)، الأول يسارا بالصف الأخير، في صورة مع زملائه في القسم بمدرسة الرابطة اليهودية العالمية بفاس



أرمان ساسون (1907 / 1988) مع زوجتي أخويه لاحقا: غراسيا كوهن، يسارا، التي ستعقد قرانها مع شارل ساسون (1911 / 2000)، وراشيل إسرائيل التي ستتزوج صامويل (سام) ساسون (1912 / 2003)



حسيبة بوطبول (1905 / 1995) وأخوها يوسف بوطبول (1906 / 1994)،
أطفال حاييم بوطبول ورحمة ساسون



صورة التقطت سنة 1935 في قصر التازي بالرباط بمناسبة زواج شارل ساسون وغراسيا كوهن.
ويظهر فيها من اليسار إلى اليمين: شارل ساسون 2000/1911، يوسف بوطبول 1994/1906،
الياقوت ساسون 1941/1871، حسيبة (أليس) بوطبول 1995/1905 وأرمان ساسون 1988/1907



أرمان ساسون (1907 / 1988) جالسا، ومعه يوسف بوطبول (1905 / 1995)، ابن أخته رحمة ساسون وحاييم بوطبول



أبناء عمومتنا بأمريكا الشمالية (كريتيه، 1990) في بيت شارل ساسون. من اليمين إلى اليسار: غراسيا ساسون (1916 / 2007)، زوجة شارل ساسون، حاييم ساسون (1930)، ابن آرون (1899 / 1975) وحفيد سالومون ساسون (1858 / 1943) القاطن بولاية نيو جيرزي، وشارل ساسون (1911 / 2000)



زواج ألبير ساسون وفلوري بنسيمون (20 يناير 1963)
في قاعة المحكمة الربية الكبرى للمغرب بالرباط (طقس مباركة الزواج)



صورة من حفل بلوغ دانييل ساسون، المزداد في 1942، سن الرشد الديني (بارمصواه) الذي أقيم بالرباط وهو في سنته الثالثة عشرة. يظهر في الصورة من اليسار إلى اليمين: شارل ساسون (1911 / 2000)، والد دانييل، الابن المحتفى به، أبراهام كوهن، جد دانييل من والدته، وميير بيردوغو، الحاخام الذي أقام شعائر الاحتفال



الجيلان الثاني والثالث في 1994. من اليسار إلى اليمين: شارل ساسون (1911 / 2000)، دانييل (1942)، غابرييل (1937)، ألبير (1935)، دينا (1946)، بينما غراسيا كوهن (1916 / 2007)، زوجة شارل ساسون، جالسة



محمد الفاسي، رئيس جامعة محمد الخامس، شاول دانان، كبير حاخامات المغرب، الحاخام ميخائيل إنكاوا، عبد المالك فرج، عميد كلية الطب بالرباط، محمد عزيز لحبابي، عميد كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط وعائشة بوطبول، زوجة حاييم بوطبول وعمة ألبير ساسون، خلال حفل زفاف هذا الأخير



حفل زفاف مارك بيردوغو ويائيل ساسون يوم الأحد 30 أكتوبر 1994 بدار الفرح بحدائق النخيل في مراكش، الزواج الذي أحياه شالوم مساس، الحاخام الأكبر للقدس وأكبر حاخامات المغرب سابقا



ليلة الحناء، الخميس 27 أكتوبر 1994،
خلال زفاف مارك بيردوغو ويائيل ساسون في مراكش



ألبير ساسون وابنته يائيل ليلة الحناء، أكتوبر 1994 بمراكش،
وعلى اليسار عازف العود الكبير سعيد الشرايبي.

فهرس